تأليف أبي عبد الله

فيصل بن عبره قائد الحاشدي

حفظه الله

الابتلاء

السنة الباقية

هاني صالح

دار القمة
الإسكندرية

دار الإيمان
الإسكندرية

ة ضوئيا بـ CamScanner

الإبتلاء

السُّنَّةُ الباقِيَةُ

تأليف أبي عبد الله
فيصل بن عبره قايد الحاشري
عفا الله عنه

دار القيمة
الإسكندرية

دار الإيمان
الإسكندرية

ة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: الابتلاء السنة الباقية
تأليف فضيلة الشيخ : فيصل الحاشدي
رقم الإيداع: ٩٨٨٣ /٢٠٢١.
نوع الطباعة: لون واحد.
عدد الصفحات: ٢٢٤ .
القياس: ٢٤X١٧.

محفوظة جميع الحقوق

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ / عادل السلماني .

٢٠٢١

الإدارة
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس ٠٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٥٩٦

المبيعات
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس ٠٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail
dar_aleman@hotmail.com

فرعنا في الجمهورية اليمنية
دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار
جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

ة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

ة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لِلَّهِ ربِّ العالمين والصلاةُ والسلامُ علىٰ أشرفِ المرسَلين وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

أما بعدُ:

وخيرٌ من القولِ المقدَّمِ فاعرَفْ نتيجتَهُ والنحلُ يُكْرَمُ للشَّهْدِ[1]

فمِنْ سُنَنِ اللهِ التي لا تَتَبَدَّلُ ولا تتخلَّفُ أنَّ الابتلاءَ سنةٌ مقدرةٌ علىٰ العبادِ إلىٰ يومِ الميعادِ، فلا مَرَدَّ لها، ولا سبيلَ إلىٰ إيقافِها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣]. فالابتلاءُ من مقاصِدِ الخَلْقِ: والبلاءُ في عَصْرِنَا أَشَدُّ مِنْ ذِي قَبْلٍ، قال ابْنُ بَاز رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ هَذَا الْعَصرَ شَدِيدُ الغُرْبَةِ، شَديدُ الاخْتِلاطِ، شَدِيدُ الْبَلاءِ، إلا مَن عَصَمَ اللهُ وَوَفَّقَهُ»[2] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وما من إنسانٍ إلَّا وقد ابْتُلِيَ بنوعٍ من أنواعِ البلاءِ ما بين مُعَجَّلٍ ومُؤَجَّلٍ.

المرءُ رَهْنُ مصائبٍ لا تنقضي حتى يُوَسَّدَ جِسْمُهُ في رَمْسِهِ

فمؤجَّلٌ يلْقى الرَّدَى في غيرِهِ ومعجلٌ يلقى الرَّدَى في نفسِهِ[3]

---

(١) «أَبُو الطَّيِّب مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ» (٥١).

(٢) «مجموعُ فتاويه» (٢٣/ ١٩٢)

(٣) دِيوَانُ أبي فِراسٍ (٢٠٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وإنِّي لمَّا رأيتُ الجَهْلَ عند كثيرٍ من الناسِ بحقيقةِ الابتلاءِ وبُعْدَهم عن آدابِهِ شَرَعْتُ في كتابةِ رسالتي هذهِ وسمَّيتها «الابْتِلاءُ السُّنَّةُ الْبَاقِيَةُ».

ورَجَوْتُ أنْ تَسُدَّ الخلَلَ وتُكمِلَ النقصَ: «ولَنْ تَعْدِمَ الحسناءُ ذامًّا».

فإلىٰ محتويات الرسالةِ جعلها اللهُ نافعةً مباركةً وكتَبَ لها القبولَ وما ذلك علىٰ اللهِ بعزيزٍ وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وكتبهُ

فيصلُ الحاشديُّ

٢ رمضان سنة ١٤٣٩هـ

تعريفُ الابتلاءِ

تَسَامَى عن التعريفِ في شِعْرٍ ناظمٍ ... إليهِ انتهتْ آمالُ كلِّ مُؤَمِّلِ[١]

أ - من الناحيةِ اللُّغويةِ:

قال ابنُ فارسٍ:

بُلِيَ الْإِنْسَانُ وَابْتُلِيَ، وَهَذَا مِنَ الِامْتِحَانِ، وَهُوَ الِاخْتِبَارُ. وَقَالَ:

بُلِيتُ وَفُقْدَانُ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ ... وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ

وَقَالَ الْجَعْدِيُّ فِي الْبَلَاءِ إِنَّهُ الِاخْتِبَارُ:

كَفَانِيَ الْبَلَاءُ وَإِنِّي امْرُؤٌ ... إِذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبِ[٢]

ب - من النَّاحية الشَّرعيَّة:

النَّاظِرُ في المدارِكِ الشَّرعيَّةِ يجدُ أنَّ الابتلاءَ لم يَخْرُجْ في المفهومِ الشَّرعيِّ عن المعنى اللغويِّ من الاختبارِ والامتحانِ، فمِنْ ذلكَ قولُ اللهِ - تعالى -: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال ابنُ جريرٍ: وإذْ اخْتَبَرَ[٣]، وقال القرطبيُّ: الامتحانُ والاختبارُ[٤].

ومن ذلكَ قولُهُ - سبحانَهُ -: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم

---

(١) دواوينُ الشِّعرِ العربي (٨٧/ ٤٨٢).

(٢) مقاييسُ اللُّغةِ (١/ ٢٩٣ - ٢٩٣).

(٣) البيانُ (١ - ٥٧١).

(٤) أحكامُ القرآنِ (٢ - ٩٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

﴿بِمَكْرٍ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقال - سبحانه -: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٦]؛ قال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الابتلاءُ: هو الاختبارُ والامتحانُ(١).

وقال - جَلَّ ذِكْرُهُ -: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨]، قال ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واختبرْناهم بالرَّخاءِ في العيشِ والخَفْضِ في الدُّنيا والدَّعَةِ والسَّعَةِ في الرِّزقِ، وهي (الحسناتُ) التي ذكرَها - جلَّ ثناؤُهُ - ويعني بـ (السيِّئات) الشِّدَّةَ في العيشِ والشَّظَفَ فيه، والمصائبَ والرَّزايا في الأموالِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ يقول: ليرْجِعوا إلى طاعةِ ربِّهم، ويُنيبوا إليه، ويتوبُوا من معاصيهِ»(٢).

ولكنْ ليسَ من صريحِ الابتلاءِ - أي: الاختبارِ - قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣]؛ لأنَّه هنا بمعنى العُقوبةِ، وقد يُسْتَشْعَرُ منه ذلك المعنى أيضًا، ولو حُمِلَ على الاختبارِ والامتحانِ؛ لأنَّهُ - تعالى - اختبرَهم بما يعلَمُ أنَّهم لَنْ يستقيموا فيه على أمرِ اللهِ تعالى، فهو في حقيقتِهِ عقوبةٌ وإنْ كانَ ظاهِرُه الاختبارَ والامتحانَ، وعلَّلَ اللهُ - تعالى - ذلك بِفِسْقِهِمْ وخروجِهم عن الطاعةِ.

وأمَّا من السُّنَّةِ، فعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: دَخَلَتْ امرأةٌ معها ابنتانِ لها تسألُ، فلَمْ تجِدْ عندي شيئًا غيرَ تمرةٍ، فأعطيتُها إيَّاها، فقَسَمَتْها بين ابنتيْها ولم تأكُلْ منها، ثمَّ قامَتْ فخرجَتْ، فدخَلَ النَّبيُّ ﷺ علينا فأخبرتُهُ، فقال: «مَن ابتُلِيَ مِنْ هذهِ البناتِ بشيءٍ كُنَّ لَهُ سِترًا من النَّارِ»(٣).

---

(١) تفسيرُ السَّعْدِي (١ - ٢٦٨).

(٢) البيانُ (٦ - ٣٨).

(٣) رواهُ البُخاريُّ (١٣٥٤).

ة صوتيا بـ CamScanner

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «إنَّ الله قال: إذا ابتَلَيْتُ عبدي بحبيبَيْهِ فصَبَرَ، عوَّضْتُهُ منهما الجنَّةَ»(١).

الفرقُ بينَ الابتلاءِ والاختبارِ:

ولا فَرْقَ فيها بينَ عَزْمٍ وصارمٍ ... كأنَّ الظُّبى فيها طُعِنَّ مِنَ العَزْمِ(٢)

الابتلاءُ لا يكونُ إلَّا بتحمُّلِ المكارِهِ والمشَاقِّ، والاختبارُ يكونُ بذلك وبفعْلِ المحبُوبِ ألا ترى أنْ يُقالَ اختبرهُ بالإنعامِ عليه، ولا يُقالُ ابتلاهُ بذلك ولا هو مُبتَلًى بالنعمةِ»(٣).

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥٣٢٩).

(٢) «ديوانُ ابنِ الخَيَّاطِ» (٢١٦).

(٣) «الفُرُوقُ اللُّغَوِيَّةُ» (٢١٦).

أنواعُ الابتلاءِ

وما هُوَ إلَّا حادِثٌ بعدَ حادِثٍ ... فمِنْ أيِّ أنواعِ الحوادثِ تجزَعُ(١)

الابتلاءُ أنواعٌ كثيرةٌ أقتصرُ على ذكرِ أهمِّها:

١ - الابتلاءُ التَّكليفيُّ:

ويُعرَفُ هذا الابتلاءُ بالتَّكليفِ وحَمْلِ الأمانةِ أيَّ أمانةٍ كانت ابتداءً من أمانةِ الأهلِ والأولادِ وانتهاءً بالإمارةِ أو الحكمِ فكُلُّ راعٍ مسؤولٌ عمَّا استرعاهُ أحَفِظَ ذلك أمْ ضَيَّعَ.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٢ - الابتلاءُ الشَّخصيُّ:

وليلٍ بِتُّهُ رهنَ اكتئابٍ ... أُقاسي فيهِ أنواعَ العذابِ(٢)

وهو ما يصيبُ الإنسانَ في نفسِهِ أو مالِهِ أو وَلَدِهِ أو أحَدٍ من أفرادِ أُسْرَتِهِ.

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٣ - الابتلاءُ الاجتماعيُّ:

وَدُمْنا على حِفْظِ الوِدادِ فَطالَما ... بُلينا بأقوامٍ إذا حَفِظُوا خانوا(٣)

---

(١) ديوانُ أبي العَتاهِيَة (٩٨).

(٢) ديوانُ أبي مَنصُورٍ الثَّعالبيِّ (١٨).

(٣) ديوانُ ابنِ حيُّوسٍ (٦٣٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وهو ابتلاءُ الناسِ بَعْضِهم ببعضٍ فيَظْهَرُ به عدوانُ الظالمين وطغيانُهم، وصَبْرُ الصابرين وتحمُّلُهم قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وهذا الابتلاءُ لا ينجو منه أحدٌ حتى الأنبياءُ - عليهم الصلاةُ والسلامُ - قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

ولقد أحسن الذي يقول:

إذا امْتَحَنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفتْ ... لهُ عن عَدُوٍّ في ثيابِ صديقِ (١)

٤ - الابتلاءُ الجماعيُّ:

لَعَمْرُكَ ما تدري الضَّوارِبُ بالحصَى ... ولا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانِعُ (٢)

وهو ابتلاءٌ يُصِيبُ الأُمَّةَ أو الجماعةَ بأسرِها من رَغَدِ العيشِ أو ضِيقِهِ، من اعتدالِ المُنَاخِ أو قسوتِهِ، أو شِحَّةِ الأمطار ونُضُوبِ مياهِ الآبارِ أو الزَّلازلِ والبراكينِ أو الفيضاناتِ والأعاصيرِ أو الطاعونِ والأمراضِ غيرِ المعروفة وما أشبهَ ذلكَ من الابتلاءاتِ التي لا يَقْتَصِرُ أثرُها على فَرْدٍ دُونَ آخَرَ أو جماعةٍ دُونَ سواها.

ومن أسبابِ ظهورِ هذا الابتلاءِ ما يقترفُهُ الناسُ من المعاصي وما يرتكبونَه من الآثامِ.

---

(١) «الآدابُ النَّافِعَةُ» (٣٠).

(٢) ديوانُ لَبِيدٍ (٣٧).

ة ضوئيا بـ CamScanner

قال الله ﷻ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

أي أنَّ الله ﷻ يَبْتليهم بنقصِ الأموالِ والأنفُسِ والثمراتِ اختبارًا منه لهم ومجازاةً على صنيعِهم لعلَّهم يرجعون عن المعاصي»(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: كنتُ عاشِرَ عَشَرةِ رَهْطٍ من المهاجرين عند رسولِ اللهِ ﷺ فأقبلَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ بوجْهِهِ فقال: «يا مَعْشَرَ المهاجرين، خمْسُ خصالٍ أعوذُ باللهِ أن تُدْرِكوهُنَّ: ما ظَهَرَت الفاحشةُ في قومٍ حتى أعْلَنُوا بها إلا ابْتُلوا بالطَّواعين والأوجاعِ التي لم تَكُنْ في أسلافِهم الذين مَضَوا، ولا نَقَصَ قومٌ المكيالَ والميزانَ إلا ابْتُلوا بالسِّنينَ وشِدَّةِ المؤونَةِ وجَوْرِ السُّلطانِ، وما مَنَعَ قومٌ زكاةَ أموالِهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السَّماءِ فلَولا البهائِمُ لم يُمْطروا، ولا خَفَرَ قومٌ العَهْدَ إلا سَلَّطَ اللهُ عليهم عدوًّا من غيرِهم فأخَذوا ما في أيديهم، وما لَمْ يَعمَلْ أئمَّتُهم بما أنْزَلَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ إلا جَعَلَ اللهُ بأسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(٢)(٣).

إذا مـا الـدَّهْرُ جَـرَّ علـى أنـاسٍ ... كلاكِلَـهُ أنـاخَ بآخرينـا

فقُـلْ للـشَّامتين بنـا أفيقـوا ... سـيلقى الـشَّامتون كمـا لقِينـا(٤)

---

(١) «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ» (٣/ ٤٤٥).

(٢) (صحيحٌ) أخرجَهُ ابنُ ماجه (٤٠١٩) وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ١٣٣١).

(٣) انظُرْ «نضرةَ النَّعيمِ» (١/ ٩ - ١٢) بتصرُّفٍ.

(٤) «الآدابُ الشَّافعةُ» (٣٠).

ة ضوئيا بـ CamScanner

فقه الابتلاء

١ - أنواعُ البَلاءِ:

في كُلِّ بلوى تُصيبُ المرءَ عافيةٌ ... إلا البلاءَ الذي يُدْنِي من النارِ[1]

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

قال السعدي رحمه الله:

أخبرَ تعالى أنهُ لا بدَّ أن يَبْتَلِيَ عبادَهُ بالمِحَنِ، لِيَتَبَيَّنَ الصادِقَ من الكاذبِ، والجازِعَ من الصابِرِ، وهذهِ سنَّتُهُ تعالى في عبادِهِ؛ لأنَّ السَّرَّاءَ لو استمرَّتْ لأهلِ الإيمانِ، ولم يَحْصُلْ معها مِحْنَةٌ، لَحَصَلَ الاختلاطُ الذي هو فَسادٌ، وحكمةُ اللهِ تقتضي تمييزَ أهلِ الخَيْرِ من أهلِ الشَّرِّ. هذه فائدةُ المِحَنِ، لا إزالةَ ما مع المؤمنين من الإيمانِ، ولا رَدَّهم عن دينِهم، فما كان اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَ المؤمنين، فأخبرَ في هذه الآيةِ أنه سيبتلي عبادَهُ ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداءِ ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: بشيءٍ يسيرٍ منهما؛ لأنَّهُ لو ابتلاهم بالخوفِ كُلِّهِ، أو الجوعِ، لَهَلَكوا، والمِحَنُ تُمَحِّصُ لا تُهْلِكُ.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يَشْمَلُ جميعَ النَّقْصِ المعتري للأموالِ من جَوائحَ سماويةٍ، وغَرَقٍ، وضياعٍ، وأَخْذِ الظَّلَمةِ لِلأموالِ من الملوكِ الظَّلَمةِ، وقُطَّاعِ الطريقِ وغيرِ ذلك.

---

(١) الأمالي في لغة العرب (٢/ ٩٦).

﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ أي: ذهابُ الأحبابِ من الأولادِ، والأقاربِ، والأصحابِ، ومن أنواعِ الأمراضِ في بَدَنِ العبدِ، أو بَدَنِ من يُحِبُّهُ، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: الحبوبُ، وثمارُ النخيلِ، والأشجارِ كُلِّها، والخَضِرُ بِبَرَدٍ، أو بَرْدٍ، أو حَرْقٍ، أو آفةٍ سماويةٍ، من جرادٍ ونحوِهِ. فهذه الأمورُ، لا بُدَّ أنْ تَقَعَ، لأنَّ العليمَ الخبيرَ، أخبرَ بها، فوَقَعَتْ كما أخبرَ، فإذا وقعتْ انقسمَ الناسُ قِسمين: جازِعينَ وصابِرين، فالجازعُ، حَصَلَتْ له المصيبتانِ، فواتُ المحبوبِ، وهو وجودُ هذه المصيبةِ، وفواتُ ما هو أعظَمُ منها، وهو الأجرُ بامتثالِ أمرِ اللهِ بالصَّبْرِ، ففازَ بالخسارةِ والحرمانِ، ونَقَصَ ما معهُ من الإيمانِ، وفاتَهُ الصَّبْرُ والرِّضا والشُّكرانُ، وحَصَلَ [لَهُ] السَّخَطُ الدالُّ على شِدَّةِ النُّقصانِ.

وأمَّا من وَفَّقَهُ اللهُ لِلصَّبْرِ عند وجودِ هذه المصائبِ، فحَبَسَ نَفْسَهُ عن التَّسَخُّطِ، قولًا وفعلًا واحْتَسَبَ أجرَها عند اللهِ، وعَلِمَ أنَّ ما يُدْرِكُهُ من الأجرِ بصَبْرِهِ أعظمُ من المصيبةِ التي حَصَلَتْ له، بل المصيبةُ تكونُ نعمةً في حَقِّهِ، لأنَّها صارتْ طريقًا لِحُصولِ ما هو خيرٌ له وأنْفَعُ منها، فقد امْتَثَلَ أمْرَ اللهِ، وفازَ بالثوابِ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ أي: بَشِّرهم بأنَّهم يُوَفَّونَ أجرَهم بغيرِ حسابٍ.

فالصابرون، هم الذين فازوا بالبِشارةِ العظيمةِ، والمِنحةِ الجَسيمةِ، ثمَّ وَصَفَهم بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي كُلُّ ما يؤلِمُ القَلْبَ أو البَدَنَ أو كِلَيهما مما تقدمَ ذِكْرُهُ.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مدَبَّرون تحتَ أمرِهِ وتصريفِهِ، فليس لنا من أنفُسِنا وأموالِنا شيءٌ، فإذا ابتلانا بشيءٍ منها، فقد تَصَرَّفَ أرْحَمُ الراحمين، بمماليكِهِ وأموالِهِم، فلا اعتراضَ عليه، بل من كَمالِ عبوديَّةِ العَبْدِ، عِلْمُهُ، بأنَّ وقوعَ البليةِ من المالِكِ الحكيمِ، الذي هو أرحَمُ بعبدِهِ من نفسِهِ، فيوجِبُ له ذلك، الرِّضا عن اللهِ،

والشُّكْرَ له على تدبيرِه، لما هو خيرٌ لعبدِه، وإنْ لم يَشْعُرْ بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإنَّا إليه راجعون يومَ المَعَادِ، فمُجازٍ كُلَّ عاملٍ بعملِه، فإنْ صَبَرْنا واحتَسَبْنا وَجَدْنا أجْرَنا موفورًا عنده، وإنْ جَزِعْنا وسَخِطْنا، لم يكُنْ حَظُّنا إلا السُّخْطَ وفَوَاتَ الأجْرِ، فكونُ العَبْدِ لله، وراجعًا إليه، من أقوى أسبابِ الصَّبْرِ.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفونَ بالصبرِ المذكورِ ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثناءٌ وتنويهٌ بحالِهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمةٌ، ومن رحمتِه إيَّاهم، أنْ وفَّقَهم للصَّبْرِ الذي ينالون به كمالَ الأجْرِ، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الذين عرفوا الحَقَّ، وهو في هذا الموضِعِ، عِلْمُهُم بأنَّهم لله، وأنَّهم إليه راجعون، وعَمِلوا به وهو هنا صَبْرُهم لِلَّهِ.

ودَلَّتْ هذه الآيةُ، على أنَّ مَنْ لم يَصْبِرْ، فَلَهُ ضِدُّ ما لَهم، فحَصَلَ له الذَّمُّ من الله، والعقوبةُ، والضَّلالُ والخَسَارُ، فما أعْظَمَ الفَرْقَ بين الفريقين وما أقَلَّ تَعَبَ الصابرين، وأعْظَمَ عناءَ الجازعين، فقد اشتملتْ هاتانِ الآيتانِ على تَوْطِينِ النفوسِ على المصائبِ قَبْلَ وقوعِها، لِتَخِفَّ وتَسْهُلَ، إذا وقعتْ، وبيانِ ما تُقَابَلُ به، إذا وَقَعَتْ، وهو الصَّبْرُ، وبيانِ ما يُعِينُ على الصبرِ، وما للصابرِ من الأجْرِ، ويُعْلَمُ حالُ غيرِ الصابرِ، بضِدِّ حالِ الصابرِ.

وأنَّ هذا الابتلاءَ والامتحانَ، سُنَّةُ اللهِ التي قد خَلَتْ، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تبديلًا وبيانِ أنواعِ المصائبِ[1].

مـــا للعبيـــدِ مـــن الـــذي ... يقـــضي بـــه اللهُ امتنـــاعُ
ذُدْتُ الأُســـودَ عَـــنِ الفـــرا ... ئِسِ ثـــمَّ تَفْرِسُـــني الـــضِّباعُ[2]

---

(١) تفسيرُ السَّعْدِيِّ - (١/ ٧٥).

(٢) ديوانُ أبي فِرَاسٍ (٢١٦).

٢- أقسامُ الناسِ في البلاءِ:

تلكَ أقسامٌ متى يعلَمْ بها ... طالبٌ يسعدْ ويرشدْ ويصيبْ(١)

الناسُ حينَ نُزُولِ البلاءِ ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوَّلُ: محرومٌ من الخيرِ يُقابِلُ البلاءَ بالتَّسخُّطِ وسُوءِ الظَّنِّ باللهِ واتِّهامِ القَدَرِ.

الثاني: مُوَفَّقٌ يقابِلُ البلاءَ بالصَّبرِ وحُسنِ الظَّنِّ باللهِ.

الثالثُ: راضٍ يقابِلُ البلاءَ بالرِّضا والشُّكرِ وهو أمرٌ زائدٌ على الصَّبرِ.

تحتَ رَزَيَّاتٍ وتعزو مصائبٌ ... ولا مِثلَ ما أنحتْ علينا يدُ الدَّهرِ

لقد عَرِكَتْنا للزمانِ مُلِمَّةٌ ... أدَقَّتْ بمحمودِ الجلادةِ والصَّبرِ(٢)

٣- مراتبُ الناسِ في البَلاءِ

للناسِ في مِحَنِ الزمانِ مراتبٌ ... ولكُلِّهم فيها نصيبٌ راتبُ(٣)

الناسُ في البلاءِ على مراتِبَ أربعٍ:

المرتبةُ الأولى: التَّسخُّطُ، وهو على أنواعٍ:

النوعُ الأوَّلُ: أنْ يكونَ بالقلبِ، كأنْ يتسخَّطَ على ربِّهِ يَغتاظُ مِمَّا قدَّرَهُ اللهُ عليهِ، فهذا حرامٌ وقد يؤدِّي إلى الكُفرِ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١].

---

(١) ديوانُ كَشاجِم (٣٣).

(٢) «الذَّخيرةُ الخَمْشُوشيَّة» (١/ ٢١٨).

(٣) تتمَّةُ اليتيمة (١/ ٣٧٢).

ة صوتيا بـ CamScanner

النوعُ الثاني: أن يكونَ التَّسخُّطُ باللِّسانِ، كالدُّعاءِ بالوَيْلِ والثُّبورِ وما أشْبَهَ ذلكَ، وهذا حرامٌ.

النوعُ الثالثُ: أنْ يكونَ التسخُّطُ بالجوارحِ، كلَطْمِ الخُدودِ وشَقِّ الجُيُوبِ ونَتْفِ الشُّعورِ وما أشْبَهَ ذلكَ، وكُلُّ هذا حرامٌ منافٍ للصَّبْرِ الواجبِ.

المرتبةُ الثانيةُ: الصَّبْرُ، وهو كما قال الشَّاعِرُ:

والصَّبْرُ مثلُ اسمِهِ مُرٌّ مذاقتُهُ ... لكنْ عواقبُهُ أحلى من العَسَلِ

فيَرى أنَّ هذا الشيءَ ثقيلٌ عليهِ، لكنَّهُ يَحتمِلُهُ، وهو يَكْرَهُ وُقُوعَهُ، ولكنَّ الصبرَ يحْميهِ من السَّخَطِ، فليس وقوعُهُ وعدمُهُ سواءً عندَهُ، وهذا واجبٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بالصَّبْرِ فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

المرتبةُ الثالثةُ: الرِّضا، بأنْ يرضَى الإنسانُ بالمصيبةِ، بحَيْثُ يكونُ وجودُها وعَدَمُها سواءً، فلا يَشُقُّ عليه وجُودُها ولا يَتَحَمَّلُ لها حِمْلًا ثقيلًا، وهذه مستَحَبَّةٌ وليستْ بواجبةٍ على القَوْلِ الراجحِ، والفَرْقُ بينها وبينَ المرتبةِ التي قبلَها ظاهِرٌ؛ لأنَّ المصيبةَ وعدمَها سواءٌ في الرِّضا عند هذا، أما التي قبلَها فالمصيبةُ صعبةٌ عليه، لكِنْ صَبَرَ عليها.

المرتبةُ الرابعةُ: الشُّكْرُ، وهو أعلى المراتبِ، وذلكَ بأنْ يَشْكُرَ اللهَ على ما أصابَهُ من مصيبةٍ، حيثُ عَرَفَ أنَّ هذهِ المصيبةَ سَبَبٌ لتكفيرِ سيِّئاتِهِ، وربَّما لزيادةِ حسناتِهِ، قال ﷺ: «ما مِنْ مصيبةٍ تُصيبُ المسلمَ إلا كَفَّرَ اللهُ بها عنه، حتى الشوكةُ يُشاكُها»[1][2].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٢٠٩).

(٢) مَجْمُوعُ فَتَاوَى وَرَسَائِلُ ابْنِ عُثَيْمِينَ (١٠/ ٦٩٨).

٤ - الفرقُ بينَ البَلاءِ والعُقُوبةِ:

وَكَابِدْ إلى أنْ تَبْلُغَ النَّفْسُ عُذْرَهَا ... وَكُنْ فِي اقْتِبَاسِ العِلْمِ طَلَّاعَ أنْجُدِ[1]

هل يُعَدُّ كُلُّ ابتلاءٍ مصيبةً جزاءً على تقصيرٍ؟ وبالتالي فهَلْ كُلُّ بلاءٍ ومصيبةٍ عقوبةٌ؟

تِلكَ مسألةٌ قد تُشْكِلُ على بعضِ الناسِ. ومَنْشَأُ الإشكالِ فيما أرى: هو الاختلافُ في فَهْمِ النصوصِ المُتَعَلِّقَةِ بهذهِ المسألةِ، وكيفَ يكونُ الجَزاءُ على الأعمالِ.

فعلى حينِ يَرِدُ التصريحُ في بعضِها بأنَّ كُلَّ مصيبةٍ تَقَعُ فهي بسببِ ما كَسَبَهُ العبدُ، كقولِهِ تباركَ وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

نَجِدُ نصوصًا أُخَرَ تصرِّحُ بأنَّ «أَشَدَّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثَلُ فالأمثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِهِ فإنْ كانَ في دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ وإنْ كانَ في دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على قَدْرِ دِينِهِ فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي على الأرْضِ وَمَا عليهِ خَطِيئَةٌ»[2].

وبأنَّ البلاءَ يَقَعُ - فيما يَقَعُ له - على المؤمنينَ لِيَكْشِفَ عن معدِنِهم ويَخْتَبِرَ صِدْقَهم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ فلو كان كُلُّ بلاءٍ يقعُ يكونُ جزاءً على تقصيرٍ؛ لكان القياسُ أن يكونَ أَشَدَّ الناسِ بلاءً الكفرةُ والمشركون والمنافقون بدليلِ الآيةِ السابقةِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) مَجْمُوعَةُ القَصائِدِ الزُّهْدِيَّةِ (١/ ١٩٩).

(٢) (حَسَنٌ) أخرجَهُ التِّرمذيُّ ٢٣٩٨، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في الصَّحيحةِ، (١٤٣). عن سَعْدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه.

والذي يزولُ بِهِ هذا الإشكالُ بإذنِ اللهِ تعالىٰ، هو أنْ نَنْظُرَ إلىٰ هذهِ المسألةِ من ثلاثِ جهاتٍ:

الأولىٰ: أنْ نُفَرِّقَ بين حالِ المؤمنينَ وحالِ الكُفَّارِ في هذهِ الدنيا.

فالمؤمنون لا بُدَّ لهم من الابتلاءِ في هذهِ الدنيا، لأنهم مؤمنون، قبل أنْ يكونوا شيئًا آخَرَ، فهذا خاصٌّ بهم، وليس الكفارُ كذلكَ. ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١-٢].

الجهةُ الثانيةُ: أنَّهُ لا انفصالَ بين الجزاءِ في الدنيا والجزاءِ في الآخرةِ.

فما يَقَعُ علىٰ المؤمنينَ من البلاءِ والمصائبِ في الدنيا، فهو بما كَسَبَتْ أيديهم من جهةٍ، وبِحَسَبِ منازلِهم عندَ اللهِ في الدارِ الآخرةِ من جهةٍ ثانيةٍ.

فمِنْهُم من يُجْزَىٰ بكُلِّ ما اكتسبَ من الذنوبِ في هذه الدنيا، حتىٰ يلقىٰ اللهَ يومَ القيامةِ وليس عليهِ خطيئةٌ. وهذا أرفَعُ منزلةً ممَّنْ يلقىٰ اللهَ بذُنُوبِهِ وخطاياه، ولهذا اشتدَّ البلاءُ علىٰ الأنبياءِ فالصالحين فالأمثَلِ فالأمثَلِ؛ لأنهم أكرمُ علىٰ اللهِ من غيرِهم.

ومَنْ كان دونَ ذلك فجزاؤه بما كَسَبَتْ يداهُ في هذه الدنيا بحَسَبِ حالِهِ. وليس الكفارُ كذلك؛ فإنهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾، فليس هناك أجورٌ تُضاعَفُ ولا درجاتٌ تُرْفَعُ، ولا سيئاتٌ تُكَفَّرُ. ومقتضىٰ الحكمةِ ألَّا يدَّخِرَ اللهُ لهم في الآخرةِ عَمَلًا صالحًا، بل ما كان لهم من عَمَلِ خيرٍ، وما قدَّموا من نفعٍ للخَلْقِ يُجْزَون ويكافؤون به في الدنيا، بأنْ يُخَفِّفَ عنهم في لأوائها وأمراضِها. وبالتالي لا يَمُنُّ عليهم ولا يَبْتليهم بهذا النوعِ من المصائبِ والابتلاءاتِ.

ة ضوئيا بـ CamScanner

فما يصيبُ المؤمنينَ ليس قَدْرًا زائدًا على ما كَسَبَتْهُ أيديهم، بل هو ما كَسَبُوهُ أو بَعْضُهُ، عُجِّلَ لهم، لما لهم من القَدْرِ والمنزلةِ عندَ الله.

وهذه يوضِّحُها النَّظرُ في الجِهَةِ الثالثةِ وهي:

أن نعلمَ علمَ اليقينِ أنَّ أيَّ عملٍ نافعٍ تقومُ به الجماعةُ أو الأمةُ المسلمةُ، فإنَّها لا بُدَّ أن تلقىٰ جزاءَهُ في الدنيا، كما يلقىٰ ذلكَ غيرُها، بل أفضلُ ممَّا يلقاهُ غيرُها. وهذا شيءٌ اقتضتْهُ حكمةُ الله، وجَرَتْ بهِ سُنَّتُهُ.

ولهذا صَحَّ مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مؤمنًا حَسَنَةً. يُعطَىٰ بها في الدنيا ويُجزىٰ بها في الآخرةِ. وأمَّا الكافرُ فيُطْعَمُ بحسناتِ ما عَمِلَ بها لِلَّهِ في الدنيا، حتىٰ إذا أفضىٰ إلىٰ الآخرةِ لم تكُنْ له حَسَنَةٌ يُجزَىٰ بها»[1].

والخلاصةُ:

أنَّه لا يكونُ بلاءٌ ومصيبةٌ إلا بسببِ ذنبٍ.

وأنَّ المؤمنينَ يُجْزَوْنَ بحسناتِهم في الدنيا والآخرةِ، ويُزادُ في بلائِهم في الدنيا ليُكَفِّرَ اللهُ عنهم من خطاياهم التي يَجْتَرِحُونها، فلا يُعاقَبون عليها هناك، وحتىٰ تُسْلَمَ لهم حسناتُهم في الآخرةِ.

وأما الكفارُ فيُجْزَوْنَ بحسناتِهم كُلِّها في الدنيا، فيكونُ ما يَسْتَمْتِعون به في دنياهم - مما يُرىٰ أنَّهُ قَدْرٌ زائدٌ علىٰ ما أُعْطِيَهُ المؤمنون - يكونُ هذا في مُقابلةِ ما يكونُ لهم من حسناتٍ. وليس لهم في الآخرةِ من خَلاقٍ[2].

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٠٨).

(٢) «سُنَنُ اللهِ في الأممِ مِنْ خِلالِ آياتِ القُرآنِ» (٣٨٦ - ٣٨٨) للدكتورِ حَسَنِ الحَبِيدِ - وفَّقَهُ اللهُ -

٥ - الابتلاءُ خاصٌّ بالمؤمنين:

هِيَ الدَّارُ ما الآمالُ إلا فجائعٌ عليها ولا اللَّذَّاتُ إلا مصائبُ[١]

الابتلاءُ خاصٌّ بالمؤمنِ دَلَّ على ذلك حديثُ كَعْبِ بنِ مالكٍ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

«مَثَلُ المؤمنِ كالخامةِ من الزَّرْعِ تفيؤُها الريحُ مرةً وتعدِلُها مرةً ومَثَلُ المنافقِ - وفي روايةٍ للبخاريِّ: الفاجرِ وفي روايةٍ عند مسلمٍ الكافرِ - كالأَرْزَةِ لا تَزالُ حتى يكونَ انجعافُها مَرَّةً واحدةً»[٢].

وهذا الحديثُ فيه دلالةٌ واضحةٌ أنَّ حالَ العبدِ المؤمنِ لا تستقرُّ فقد شبَّهَهُ - أي المؤمنَ - بالخامةِ من الزَّرْعِ أي: اللَّيِّنةِ من الزَّرْعِ الذي يَخرجُ من الأرضِ لا يستطيعُ أنْ يتغلَّبَ على الريحِ فهي تَفْعَلُ به ما تشاءُ تُقيمُهُ تارةً وتُنْزِلُهُ إلى الأرضِ تارةً وهكذا حالُ العبدِ المؤمنِ من حالٍ إلى حالٍ بخلافِ حالِ الكافرِ والمنافقِ والفاجرِ على الغالبِ في صحةٍ وعافيةٍ تُحْمَدُ في غالبِ الأحوالِ فقد شَبَّهَهُ عليه الصلاةُ والسَّلامُ بالأَرْزَةِ والأَرْزَةُ كما قال الحافظُ: قال الخطابيُّ: الأَرْزَةُ مفتوحةُ الرَّاءِ واحِدَةُ أَرْزٍ وهو شَجَرُ السَّنَوْبَرِ فيما يُقالُ [٣]، وشَجَرَةُ السنوبرِ ضخمةٌ لا يكونُ للريحِ عليها أثرٌ إلَّا إذا أتتْ ريحٌ قويَّةٌ فتكْسِرُها فيكونُ مآلُها الموتَ والزوالَ وهذا معنى قولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ: «كالأَرْزَةِ لا تَزالُ حتى يكونَ انْجعافُها مَرَّةً واحدةً» أي انقلاعُها مَرَّةً واحدةً.

---

(١) العقدُ الفريدُ (٣/ ١٤٣).

(٢) والبُخاريُّ (٥٣١٩)، ومُسلمٌ (٢٨١٠).

(٣) انظرِ الفتحَ (١١/ ٩١).

ة صوتيا بـ CamScanner

وهكذا الكفارُ والمنافقون لا يُسَلِّطُ اللهُ عليهم ما لا يُحِبُّونَ بل يَفْتَحُ لهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ حتى إذا تمادَوا ونَسُوا أخذَهم اللهُ أخذةَ واحدةً أخذةَ عزيزٍ مقتدرٍ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

بخلافِ المؤمنِ فإنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عليه ما يَكْرَهُ إمَّا لأنَّ له ذنوبًا يريدُ اللهُ أنْ يُكَفِّرَها له أو ابتلاءً يريدُ أنْ يرفعَ له به الدَّرجاتِ.

وما يُرَى فيه الكافرُ في الظاهرِ من عَدَمِ البلاءِ وأنَّ اللهَ فتحَ عليه أبوابَ كُلِّ شيءٍ فباطِنُ ذلك بخلافِهِ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، أي عيشًا ضيقًا في الدُّنيا، يقولُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «لا طُمأنينةَ لَهُ، ولا انشراحَ لِصَدْرِهِ، بل صَدْرُهُ ضيقٌ حَرَجٌ؛ لضَلالِهِ وإنْ تنعَّمَ ظاهِرُهُ، ولَبِسَ ما شاءَ، وأكَلَ ما شاءَ، وسَكَنَ حَيْثُ شاءَ؛ فإنَّ قَلْبَهُ ما لم يَخْلُصْ إلى اليقينِ والهُدى فهُو في قلقٍ وحَيْرةٍ وشَكٍّ؛ فلا يَزالُ في رَيْبِهِ يتردَّدُ؛ فهذا من ضَنكِ المَعيشةِ»[1].

بخلافِ المؤمنِ فحياتُهُ حياةٌ طيبةٌ بالإيمانِ، والعملِ الصالحِ. كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ويعجبني قول شمس المعالي قابوس:

قل للذي بصروف الدَّهرِ عيَّرنا ... هل حارب الدَّهرَ إلا مَنْ لَهُ خطرُ

---

(١) تفسيرُ ابنِ كثيرٍ (٥/ ٣٢٢).

فَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ ... وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالقَمَرُ

وَكَمْ فِي الأَرْضِ مِنْ خَضْرَاءَ مُونِقَةٍ ... وَلَيْسَ يُرْجَمُ إِلَّا مَا لَهُ ثَمَرُ[1]

٦ - المصائبُ كفَّاراتٌ ومع الصبرِ كفَّاراتٌ وأجرٌ:

جَلَّ شَأْنُ اللهِ هَادِي خَلْقِهِ ... بِهُدَى العِلْمِ، وَنُورِ العُلَمَاءِ[2]

اختلفَ العلماءُ هل يُكْتَبُ الثوابُ على مُجَرَّدِ ابتلاءِ اللهِ تعالى لعبدِهِ المسلمِ بالأمراضِ والمصائبِ أمْ يُشْتَرَطُ الصَّبْرُ والاحْتِسابُ؟

والتحقيقُ في ذلكَ: أنَّ المصائبَ كفاراتٌ لأهلِها ما لَمْ تَصْدُرْ منهم محرماتٌ كَتَسَخُّطٍ أو شَقِّ ثوبٍ أو نياحةٍ، وأنَّها رافعةٌ للدَّرجاتِ وبابٌ للأجرِ والثوابِ إذا صاحَبَها صَبْرٌ واحتسابٌ.

قالَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «الأحاديثُ الصحيحةُ صريحةٌ في ثبوتِ الأجرِ بمجرَّدِ حُصُولِ المصيبةِ، وأما الصَّبْرُ والرِّضا فقدْرٌ زائدٌ يُمْكِنُ أنْ يُثابَ عليهما زيادةً على ثوابِ المصيبةِ، قالَ القرافيُّ: «المصائبُ كفَّاراتٌ جَزْمًا سواءٌ اقْتَرَنَ بها الرِّضا أمْ لا، لكنْ إنِ اقترنَ بها الرِّضا عَظُمَ التكفيرُ وإلَّا قَلَّ»، كذا قالَ، والتحقيقُ: أنَّ المصيبةَ كفارةٌ للذَّنْبِ يُوَازِيهَا، وبالرِّضا يُؤْجَرُ على ذلكَ، فإنْ لم يكُنْ للمُصابِ ذنبٌ: عُوِّضَ عنْ ذلكَ منَ الثوابِ بما يوازيهِ»[3].

وقالَ الشيخُ محمدُ بنُ صالحِ العثيمينَ رَحِمَهُ اللهُ: «وليَعْلَمِ المصابُ بأيِّ مصيبةٍ أنَّ

---

(١) أنوارُ الربيعِ (١/ ٥٥).

(٢) ديوانُ شَوْقِي (١٥٥).

(٣) «فتحُ الباري» (١٠/ ٧٥).

هذه المصائب كفارات لما حصل منه من الذنوب؛ فإنه لا يصيب المرء المؤمن هم ولا غم ولا أذى إلا كفر الله عنه به حتى الشوكة يشاكها، ومع الصبر والاحتساب ينال منزلة الصابرين، تلك المنزلة العالية التي قال الله تعالى في أهلها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[1].

وهذا قول جُلَّة من الصحابة كأبي عُبيدة وابن مسعود رضي الله عنهما، وجُلَّة من العلماء المحققين كابن تيمية وابن القَيِّم رحمهما الله.

قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: والدَّلائل على أنَّ المصائب كفَّارات: كثيرة، إذا صَبَرَ عليها: أُثِيبَ على صَبْرِه، فالثوابُ والجزاءُ إنَّما يكونُ على العملِ وهو الصَّبْرُ، وأمَّا نَفْسُ المصيبة: فهي من فِعْلِ الله لا مِنْ فِعْلِ العبد، وهي من جزاءِ الله للعَبْدِ على ذنبِه وتكفيرِه ذَنْبَهُ بها، وفي المُسْنَدِ «أنَّهم دَخلوا على أبي عبيدةَ بنِ الجَرَّاحِ وهو مريضٌ، فذَكَروا أنَّهُ يُؤْجَرُ على مرضِه، فقال: «ما لي من الأجرِ ولا مِثْلُ هذا، ولَكِنَّ المصائبَ حِطَّةٌ»؛ فبيَّنَ لهم أبو عبيدةَ رضي الله عنه أنَّ نَفْسَ المَرَضِ لا يُؤْجَرُ عليه، بل يُكَفِّرُ به عن خطاياه[2].

وقال ابنُ القَيِّم رحمه الله: وذُكِرَ عن أبي مَعْمَرٍ الأزديِّ قال: كنَّا إذا سَمِعْنا من ابنِ مسعودٍ شيئًا نكرهُهُ سكَتْنا، حتى يُفَسِّرَهُ لنا، فقال لنا ذاتَ يومٍ: «ألا إنَّ السُّقْمَ لا يُكْتَبُ له أجرٌ، فساءَنا ذلك وكَبُرَ علينا» فقال: «ولكنْ يُكَفِّرُ به الخطيئةَ»، فسَرَّنا ذلك وأعجَبَنا.

---

(١) «مجموعُ فتاوى الشيخ العثيمين» (١٧/ ٦١).

(٢) «مجموعُ فتاوى ابن تيميَّة» (٢٠/ ٣٦٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا من كمالِ علمِهِ وفقهِهِ رحمه الله؛ فإنَّ الأجرَ إنما يكونُ على الأعمالِ الاختياريةِ وما تولَّدَ منها، كما ذكرَ اللهُ سبحانه النوعَين في آخرِ سورةِ «التوبة» في قولِهِ في المبايرِ من الإنفاقِ وقطعِ الوادي: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ وفي المتولِّدِ من إصابةِ الظمأِ والنَّصَبِ والمخمصةِ في سبيلِهِ وغيظِ الكفارِ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ فالثوابُ مرتبطٌ بهذين النوعين.

وأمَّا الأسقامُ والمصائبُ: فإن ثوابَها: تكفيرُ الخطايا ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ والنبيُّ ﷺ إنما قال في المصائبِ: «كفَّرَ اللهُ بها من خطاياه»، وكذا قوله: «المَرَضُ حِطَّةٌ» فالطاعاتُ ترفعُ الدرجاتِ، والمصائبُ تحطُّ السيئاتِ، ولهذا قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصِبْ منه» وقال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدينِ» فهذا يرفعُهُ وهذا يَحُطُّ خطاياه[1].

ما أَجْدَرَ العلماءَ أنْ يُعْنَى لَهُمْ ... ويطاعَ أَمْرُهُمُ الأئمةُ الأُرَّدُ

فَهُمُ الملوكُ ولاؤُهُمْ لا يَنْقَضِي ... والأغنياءُ ثراؤُهُمْ لا يَنْفَدُ[2]

٧- المصائبُ تُكفِّرُ الصغائرَ والكبائرَ:

فابْكِ وَنُحْ وتَضَرَّعْ في الدُّجَى أَسَفًا ... عَلَى كَبَائِرَ لا تُحْصِي لَهَا عَدَدَا[3]

المصائبُ تُكفِّرُ جميعَ الذنوبِ على الصحيحِ كما هو ظاهرُ الأدلَّةِ:

قال ابنُ حَجَرٍ عند إيرادِهِ لقولِ الرسولِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يُصِبْ مِنْهُ»[4]

---

(١) «عُدَّةُ الصَّابِرِينَ» (ص٦٩، ٧٠).

(٢) ديوانُ العبدِ آل خليفةَ (٢٠٨).

(٣) القصائدُ الزُّهديَّاتُ (٢/ ٨٤).

(٤) رواهُ البخاريُّ (٥٦٤٥).

وما قَبْلَهُ من الأحاديثِ السابقةِ: وفي هذه الأحاديثِ بشارةٌ عظيمةٌ لكُلِّ مؤمنٍ؛ لأنَّ الآدميَّ لا يَنْفَكُّ غالبًا من ألمٍ بسببِ مرضٍ أو هَمٍّ أو نَحْوِ ذلك مما ذَكَرَ، وأنَّ الأمراضَ والأوجاعَ والآلامَ بدنيةً كانت أو قلبيةً تُكَفِّرُ ذنوبَ مَنْ تَقَعُ له، وسيأتي في البابِ الذي بعدَهُ من حديثِ ابنِ مسعودٍ: «ما مِنْ مسلمٍ يصيبُهُ أَذًى إلا حاتَّ اللهُ عنهُ خطاياهُ»[1] وظاهِرُهُ تعميمُ جميعِ الذنوبِ لكنَّ الجمهورَ خَصُّوا ذلكَ بالصَّغائِرِ، للحديثِ: «الصلواتُ الخَمْسُ والجُمُعَةُ إلى الجُمُعَةِ ورمضانُ إلى رمضانَ كفَّاراتٌ لما بينهُنَّ ما اجْتُنِبَتِ الكبائِرُ»[2]. فحَمَلوا المطلقاتِ الواردةَ في التكفيرِ على هذا المُقَيَّدِ.[3] ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ معنى الأحاديثِ التي ظاهِرُها التعميمُ أنَّ المذكوراتِ صالحةٌ لتكفيرِ الذنوبِ فيُكَفِّرُ اللهُ بها ما شاءَ من الذنوبِ ويكونُ كثرةُ التكفيرِ وقلَّتُهُ باعتبارِ شِدَّةِ البلاءِ وخِفَّتِهِ[4].

قال شَيْخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ: فأَهْلُ السُّنَّةِ والجماعةِ لا يُوجِبون العذابَ في حَقِّ كُلِّ مَنْ أتى كبيرةً ولا يَشْهَدون لمسلمٍ بعينِهِ بالنارِ لأجْلِ كبيرةٍ واحدةٍ عَمِلَها؛ بل يجوزُ عِنْدَهم أنَّ صاحِبَ الكبيرةِ يُدْخِلُهُ اللهُ الجَنَّةَ بلا عذابٍ إما لحسناتٍ تَمْحو كبيرَتَهُ منه أو من غيرِهِ؛

---

(١) رواهُ البُخارِيُّ (٥٣٢٣)، ومُسْلِمٌ (٢٥٧١).

(٢) رواهُ مُسْلِمٌ (٢٣٣).

(٣) أجابَ العلماءُ على هذا الاعتراضِ بقولِهم أنَّه لا يُحْمَلُ المُطْلَقُ على المُقَيَّدِ - ولا سِيَّما في مثلِ هذا الموضِعِ - لأنَّ سببَ التكفيرِ مختلفٌ، فالتكفيرُ في حديثِ: «ما اجْتُنِبَتِ الكبائِرُ» واقعٌ بِفِعْلِ الحسناتِ، وموضوعُ التكفيرِ بِفِعْلِ الحسناتِ شيءٌ، وموضوعُ التكفيرِ بوقوعِ المَصائِبِ شيءٌ آخَرُ، فليسَ السببُ واحدًا، ولا بُدَّ في حَمْلِ المُطْلَقِ على المقيَّدِ من اتحادِ السببِ والحُكْمِ حتى نَحْمِلَ هذا على هذا، فالمصائِبُ شيءٌ غَيْرُ الطاعاتِ.

(٤) فَتْحُ البارِيِّ (١٠/ ١٠٨).

وإما لمصائبَ كفَّرتْها عنه وإما لدُعاءٍ مستجابٍ منه أو من غيرِه فيه وإما لغيرِ ذلك[١].

وقال بعد ذكرِه الأسبابَ العشرةَ التي يُكفِّرُ اللهُ بها المصائبَ:

«والعِقابُ قد يُدفَعُ عن أهلِ الذُّنوبِ بهذِهِ الأسبابِ العَشَرةِ كانَ دعْواهُمْ أنَّ عُقوباتِ أهلِ الكبائرِ لا تَندفعُ إلَّا بالتَّوبةِ مُخالِفٌ لذلك»[٢].

قال شيخُنا أبو بكرٍ الحماديُّ - حفظه الله - ظاهرُ الأدلَّةِ أنَّ المصائبَ تُكفِّرُ جميعَ الذنوبِ حتى الكبائرَ لحديثِ مُصْعبِ بنِ سَعْدٍ عن أبيه قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً قال: «الأنبياءُ ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ يُبتَلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دينِهِ فإن كانَ دينُهُ صلبًا اشتدَّ بلاؤه وإنْ كانَ في دينِهِ رِقَّةٌ ابتلاهُ على حَسَبِ دينِهِ فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يَتْرُكَهُ يمشي على الأرضِ وما عليه خطيئةٌ»[٣]. وأيضًا فإنَّ العقوبةَ الشرعيةَ وهي الحدودُ تُكفِّرُ الكبائرَ كما جاءت بذلك السنةُ ولا فَرْقَ بينهما وبينَ العقوبةِ القَدَريَّةِ النازلةِ على أهلِ الكبائرِ واللهُ أعلمُ.

٨- المصائبُ سببُها الذنوبُ والمعاصي:

فارْغَبْ إلى الربِّ في تيسيرِهِ سببًا ... تنجو بِهِ من بلايا حادثِ الزَّمَنِ[٤]

يَظُنُّ مَنْ لا خَلاقَ له أنَّ البلايا إنما تأتي من طاعةِ اللهِ ورسولِهِ. وهذا إنما أُتِيَ من جَهْلِهِ.

---

(١) «الفتاوى» (٧/ ٥٠١).

(٢) المرجعُ السابقُ (١٢/ ٤٨٠).

(٣) (صحيحٌ) أخرجَهُ الترمذيُّ (٢٣٩٨)، وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٩٩٢).

(٤) «نَظْمُ الدُّرَرِ» (٥/ ٣١٦).

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وليستِ البلايا والمصائبُ تأتي من طاعةِ اللهِ ورسولِهِ، كما يَظُنُّ بَعْضُ الجُهَّالِ، فإنَّ هذه جزاءُ أصحابِها خَيْرُ الدنيا والآخرةِ[1]. ولكنْ قد تُصيبُ المؤمنين باللهِ ورسولِهِ مصائبُ بسببِ ذنوبِهم لا بما أطاعوا فيه اللهَ ورسولَهُ كما لَحِقَهم يومَ أُحُدٍ بسببِ ذنوبِهم.

وكذلك ما ابتُلُوا به من السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والزلزالِ، ليسَ هو بسببِ إيمانِهم وطاعتِهم، ولكنْ امتُحِنُوا بِهِ ليتخلَّصُوا مما فيهم من الشَّرِّ، وفُتِنُوا به كما يُفْتَنُ الذَّهَبُ بالنارِ ليتميَّزَ خبيثُهُ من طَيِّبِهِ، والنفوسُ فيها شَرٌّ، والامتحانُ يُمَحِّصُ المؤمنَ من ذلك الشرِّ الذي في نفسِهِ»[2].

وإنَّما شجاني والشُّجونُ كثيرةٌ ... ذنوبٌ عظامٌ أسبلتْ عبراتي

وأقلقني أني أموتُ مُفَرِّطًا ... على أنني خُلِّفْتُ بعدَ لِداتي

إلى اللهِ أشكو جَهْلَ نفسي فإنَّها ... تميلُ إلى الراحاتِ والشهواتِ[3]

٩ - الأجرُ على قَدْرِ البَلاءِ:

إنَّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ ... فإذا تضاعفَ صارَ غيرَ مُطاقِ[4]

كلَّما تَضَعَّفَ البلاءُ على العبدِ يُضاعَفُ له الأجرُ فمَنْ أُصيبَ بحادثٍ ليسَ كَمَنْ أُصيبَ بشوكةٍ وقُلْ مثلَ ذلك في أنواعِ البلاءِ.

---

(١) «أي مَنِ ابْتُلِيَ بسببِ طاعتِهِ للهِ وصبرِهِ فإنه يُجْزَى بخيرِ الدُّنيا والآخرةِ وليس المرادُ أنَّ المصائبَ بسببِ الذنوبِ فقط» [مجلةُ البحوثِ عَدَد ١٥ ص٢٧٧].

(٢) الظرْ: الحسنةُ والسيئةُ لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ (١٨).

(٣) ديوانُ الإلبيريِّ (٥٣).

(٤) ديوانُ ابنِ الرومي (٣٠٨٤).

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ قَالَ: «إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ثُمَّ مَنْ قَالَ: «ثُمَّ الصَّالِحُونَ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ»(١).

فَأَعِدَّ صَبْرَكَ لِلنَّوَائِبِ جُنَّةً ... فَالْمَرْءُ رَهْنُ مَصَائِبٍ وَحَوَادِثِ(٢)

١٠ - المؤمنُ لا يستدعي البلاءَ:

كَلِّفْ جَوَادَكَ مَا يُطِيقُ فَبِالْحَرَى ... أَنْ تَسْتَقِلَّ بِمَا تُطِيقُ حَوَافِرُهْ(٣)

لا يجوزُ للمسلمِ أن يستدعِيَ البلاءَ على نفسِهِ كما لا يجوزُ له تمني لقاءِ العَدُوِّ والذي يَجِبُ عليه هو الدعاءُ الذي عَلَّمَهُ النبيُّ ﷺ لأُمَّتِهِ فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ(٤) فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ قَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَقُولُ اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) (صحيحٌ) أخرجهُ أحمدُ (٣/ ٧٧) وابنُ ماجه (٤٠٢٤) وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «الصَّحيحَةِ» (١٤٤) وحسنه شيخُنا الوادعي في «الجامع الصحيح» (٤٠٨).

(٢) «مفيدُ العلومِ» (٢٩١).

(٣) البصائرُ والذخائرُ (٢/ ٣٢).

(٤) مِثْلَ الْفَرخ: ضعيفُ الجسمِ من شِدَّةِ المرضِ.

صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ أَفَلَا قُلْتَ اللَّهُمَّ ﴿ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ قَالَ فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ(١).

قال النوويُّ في هذا الحديث:

١ - النَّهْيُ عن الدعاءِ بتعجيلِ العُقُوبةِ.

٢ - وجوازُ التَّعَجُّبِ بقَوْلِ: سبحانَ اللهِ.

٣ - واستحبابُ عيادةِ المريضِ والدعاءِ لَهُ.

٤ - وفيه كراهَةُ تمني البلاءِ لِئَلَّا يتضجَّرَ منه ويَسْخَطَهُ وربَّما شكا.

٥ - وفَضْلُ الدعاءِ باللَّهُمَّ آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النارِ(٢).

وقد جاء النَّهْيُ عن تمني لقاءِ العَدُوِّ وورَدَ الأمرُ بالثباتِ عند لقائِهِ، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ في بَعْضِ أيامِهِ التي لَقِيَ فيها انتظرَ حتى مالَتِ الشمسُ، ثم قامَ في الناسِ خَطيبًا قال: «أيُّها الناسُ، لا تَتَمَنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُمُوهم فاصْبِروا، واعْلَموا أن الجنةَ تَحْتَ ظلالِ السيوفِ. ثم قال: اللهمَّ مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وهازِمَ الأحزابِ، اهْزِمْهُم وانْصُرْنا عليهم»(٣).

ويُعجبني قولُ شمسِ الدينِ بنِ خِلِّكَانَ:

انظُرْ إلى عارِضِهِ فوقَهُ ... لحاظُهُ تُرسِلُ منها الحتوفْ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٨٨).

(٢) شَرْحُ النَّوَوِيِّ على مسلم (١٧/ ١٣).

(٣) رواهُ البخاريُّ - حديث ٢٩٦٥ - ٢٩٦٦.

تشاهِدُ الجنَّةَ في وجهِهِ ... لكنَّها تحتَ ظلالِ السيوفْ[1]

١١ - الحكمةُ من تسليطِ أعداءِ اللهِ على أوليائِهِ:

إن للهِ حكمةً دونَها العقـ ... ـلُ فَحَلْ المِراءَ والتَّرديدا[2]

كَمْ لِلَّهِ في خلقِهِ من حكمةٍ حَيَّرتْ العقولَ والأفهامَ فمَنْ لا يَقِفُ عليها فَلْيُسَلِّمْ للعليمِ الحكيمِ ويتركِ الشَّكَّ والاعتراضَ ومَنْ وَقَفَ على بعضٍ منها فذلك نورٌ إلى نورٍ فمِنْ تلكَ الحكمةِ تَسليطُ أعدائِهِ على أوليائِهِ.

قال الله ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ١ - ٨].

قال الشيخُ محمدُ بنُ صالحٍ العثيمينَ رحِمَهُ اللهُ تعالى: «في هذهِ الآياتِ من العِبَرِ: أنَّ اللهَ ﷻ قَدْ يُسَلِّطُ أعداءَهُ على أوليائِهِ، فلا تَسْتَغْرِبْ إذا سَلَّطَ اللهُ ﷻ الكفارَ على المؤمنين وقَتْلوهم وحَرَّقُوهم، وانتهكوا أعراضَهم، لا تستغربْ لِلَّهِ تعالى في هذا حكمةٌ، المُصابون من المؤمنين أجرُهُمْ عند الله عظيمٌ، وهؤلاءِ الكفارُ المعتدون أَمْلَى لَهُمُ اللهُ ﷻ ويَسْتَدْرِجُهم من حيثُ لا يعلمون، والمسلمون الباقون لهم عبرةٌ وعِظَةٌ فيما حَصَلَ لإخوانِهم، فمثلًا نحن نسمعُ ما يَحْصُلُ من الانتهاكاتِ العظيمةِ، انتهاكَ الأعراضِ، وإتلافَ الأموالِ، وتجويعَ الصغارِ والعجائزِ، نسمعُ أشياءَ تُبكي فنقولُ: سبحانَ اللهِ ما هذا التسليطُ الذي سَلَّطَهُ اللهُ على هؤلاءِ المؤمنين؟ نقولُ يا أخي لا تستغربْ فاللهُ ﷻ ضَرَبَ

---

(١) الازدهارُ (٨).

(٢) دواوينُ الشعرِ العربيِّ (٧١/ ٢٠٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

لنا أمثلاً فيمن سَبَقَ يُحَرِّقون المؤمنين بالنارِ، فهؤلاءِ الذين سُلِّطوا على إخوانِنا في بلادِ المسلمين هذا رفعةُ درجاتِ المصابين، وتكفيرُ السيئاتِ، وهو عبرةٌ للباقين، وهو - أيضًا - إغراءٌ لهؤلاءِ الكافرين حتى يَتَسَلَّطوا فيأْخُذَهُمُ اللهُ ﷻ أَخْذَ عزيزٍ مُقْتدرٍ»[1].

وقال ابنُ القَيِّمِ رحمه الله تعالى: «ولهذا سَلَّطَ على أنبيائِهِ وأوليائِهِ ما سَلَّطَ عليهم من القَتْلِ، وأذى الناسِ، وظُلْمِهم لهم، وعُدوانِهم عليهم، وما ذاك لهوانِهم عليه ولا لكرامَةِ أعدائهم عليه، بَلْ ذاكَ عَيْنُ كرامَتِهم وهوانُ أعدائِهم عليه، وسُقوطُهم من عينِهِ، ليَنالُوا بذلك ما خُلِقُوا له من مُساكَنَتِهم في دارِ الهوانِ، ويَنالَ أولياؤه وحزبُهُ ما هُيِّئَ لهم من الدرجاتِ العُلَى، والنعيمِ المقيمِ فكان تَسْليطُ أعدائِهِ وأعدائِهم عليهم عَيْنَ كرامَتِهم، وعينَ إهانَةِ أعدائِهم»[2].

تَطْرُقُ أَهْلَ الفَضْلِ دونَ الورى ... مَصَائِبُ الدنيا وآفاتُها

كالطَّيْرِ لا يُنْجَنُ من بينِها ... إلا التي تُطْرِبُ أصواتُها[3]

١٢ - الحكمةُ من ابتلاءِ الأنبياءِ:

فَقْرٌ كفَقْرِ الأنبياءِ وغربةٌ ... وصَبابَةٌ لبِسَ البلاءُ بواجِدِ[4]

قال ابنُ القَيِّمِ: «فإنَّهُ سبحانَهُ كما يَحْمِي الأنبياءَ ويصونُهم ويَحْفَظُهُمْ ويتولَّاهم، فيَبْتَلِيهِمْ بما شاءَ من أذى الكفارِ لهم:

---

(١) تفسيرُ جُزْءِ عَمَّ للعثيمين (١٣٠).

(٢) مفتاحُ دارِ السعادةِ (٢/ ١٨٩).

(٣) «مِنْ رحيقِ الشِّعْرِ» (١٢٠).

(٤) «المصونُ في الأدبِ» (١٦).

أ - ليستوجبوا كمالَ كرامتِه.

ب - وليتسلّى بهم مَنْ بعدَهم من أممِهم وخُلفائِهم إذا أُوذوا من الناسِ، فرأَوْا ما جَرَى على الرُّسُلِ والأنبياءِ صَبَروا ورَضُوا وتأسَّوْا بهم.

ج - ولِتَمْتَلِئَ صاعُ الكُفَّارِ، فيستوجبون ما أعَدَّ لهم من النَّكالِ العاجِلِ والعقوبةِ الآجلةِ، فيمْحَقهُمْ بسببِ بَغْيِهم وعداوتِهم، فيُعَجِّل تطهيرَ الأرضِ منهم.

فهذا من بَعْضِ حكمتِهِ تعالىٰ في ابتلاءِ أنبيائِه ورُسُلِهِ بإيذاءِ قومِهم، وله الحكمةُ البالغةُ، والنعمةُ السابغةُ، لا إلهَ غيرُه، ولا رَبَّ سواه»[1].

١٣ - كراهة تمني الموتِ بسببِ البلاءِ:

لـيـسَ مـن مـاتَ فاسـتراحَ بِمَيْـتٍ ... إنَّـمـا المَيْـتُ مَيْـتُ الأحـيـاءِ[2]

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[3].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ فيه: التَّصْرِيحُ بِكَرَاهَةِ تَمَنِّي الْمَوْتِ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَاقَةٍ أَوْ مِحْنَةٍ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَشَاقِّ الدُّنْيَا، فَأَمَّا إِذَا خَافَ ضَرَرًا فِي دِينِهِ أَوْ فِتْنَةً فِيهِ، فَلَا كَرَاهَةَ فِيهِ؛ لِمَفْهُومِ هَذَا الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ فَعَلَ هَذَا الثَّانِي خَلَائِقُ مِنَ السَّلَفِ عِنْدَ خَوْفِ الْفِتْنَةِ فِي أَدْيَانِهِمْ. وَفِيهِ أَنَّهُ إِنْ خَافَ وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى حَالِهِ فِي بَلْوَاهُ بِالْمَرَضِ وَنَحْوِهِ فَلْيَقُلْ:

---

(١) «بدائعُ الفوائد» (٢/ ٦٥٣).

(٢) تتمةُ اليتيمة (٢/ ١٠٥).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦٣٥١) ومسلمُ (٦٨٩٠).

اللَّهُمَّ أَحْيِنِي إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا... إِلَخْ، وَالأَفْضَلُ الصَّبْرُ وَالسُّكُونُ لِلْقَضَاءِ(١).

إِنْ يَكُنْ نَابَكَ الزَّمَانُ بِبَلْوَى ... عَظُمَتْ مِحْنَةٌ عليكَ وَجَلَّتْ

وَأَتَتْ بَعْدَهَا مَصَائِبُ أُخْرَى ... سُئِمَتْ دُونَهَا الحياةُ وَمُلَّتْ

فَاصْطَبِرْ وانتظِرْ بلوغَ مداها ... فالرَّزَايَا إِذَا توالَتْ تَوَلَّتْ(٢)

١٤ - تأويلُ مصائبِ الأطفالِ:

فَإِنْ تَكُ فِي قَبْرٍ فَإِنَّكَ فِي الحَشَا ... وَإِنْ تَكُ طِفْلًا فَالأَسَى لَيْسَ بِالطِّفْلِ(٣)

لا شَكَّ أن ولادةَ الولَدِ أعمىٰ أو مُعاقًا ليس بسَبَبِ الذنوبِ لأنَّهُ لم يَقَعْ منه ذَنْبٌ وليسَ مُكَلَّفًا، وإنما هو ابتلاءٌ قد يرفَعُهُ اللهُ تعالىٰ به ويُكْرِمُ والديهِ وذَوِيهِ إذا صَبَرُوا علىٰ البلاءِ.

فمَرَضُ الطِّفْلِ، أو ولادَتُهُ مُعوَّقًا، في ميزانِ حسناتِهِ يومَ القيامةِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما يَزَالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِهِ، وولدِهِ، ومالِهِ، حتىٰ يَلْقَىٰ اللهَ وما عليه خطيئةٌ»(٤).

واللهُ ﷻ ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ١٠] ومِمَّا ذَكَرَ أهلُ العلمِ من حكمةِ ابتلاءِ الأطفالِ ببعضِ الآلامِ أنَّ اللهَ تعالىٰ يُعَوِّضُهُم عن ذلك بعد موتِهِم، قال القرطبيُّ في تفسيرِهِ: قال العلماءُ: كما اشْتَرَىٰ من المؤمنينَ البالِغِينَ المُكَلَّفينَ كذلك اشترىٰ من الأطفالِ فآلَمَهُمْ وأسْقَمَهُم لما في ذلك من المصلحةِ وما فيه من الاعتبارِ للبالغينَ فإنَّهم لا يكونونَ عند شيءٍ أكثرَ صلاحًا وأقلَّ فَسَادًا مِنْهُمْ عند أَلَمِ الأطفالِ وما

---

(١) شرحُ النَّوويِّ علىٰ مُسْلِمٍ (٩/ ٤٣).

(٢) «المحاضراتُ والمحاوراتُ» (٣٥٩).

(٣) التذكرةُ الحمدونيةُ (٤/ ٢٧٩).

(٤) (صحيحٌ) أخرجَهُ التِّرمِذيُّ (٢٣٩٩) وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ الجامعِ (٥٨١٥).

يحصل للوالدين الكافلين من الثواب فيما ينالهم من الهم ويتعلق بهم من التربية والكفالة، ثم هو ﷻ يعوض هؤلاء الأطفال عوضا إذا صاروا إليه ونظير هذا في الشاهد أنك تكتري الأجير ليبني وينقل التراب وفي كل ذلك له ألم وأذى ولكن ذلك جائز لما في عمله من المصلحة ولما يصل إليه من الأجر. انتهى[1].

فلن يضيع أجر هذا الطفل، فهو الذي لا يضيع حتى أجر الكافر، ولكنه يعجل أجره في الدنيا من ماله، وولده، وصحته، وشهرته... إلى غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥ - ١٦] وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى: ٢٠] وقال رسولنا ﷺ: «إن الله تعالى لا يظلم المؤمن حسنة، يعطى عليها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا»[2][3].

---

(١) تفسير القرطبي (٣٦٧/٨).

(٢) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٣) فقه الابتلاء وأقدار الله المؤلمة (٥٢ - ٥٣).

مظاهرُ الابتلاءِ

١ - الابتلاءُ بالضَّرَّاءِ:

تَجَهَّمَتْ نُوَبُ الدنيا لِعامِرِها ... فلا يَدٌ عن يَدِ الضَّرَّاءِ تَمْنَعُهُ[1]

الابتلاءُ بالضَّرَّاءِ يُرادُ بِهِ الفتنةُ عند الإطلاقِ وله صُوَرٌ منها:

١ - أنْ يَبْتَلِيَ اللهُ المؤمنَ بِفَقْدِ عزيزٍ عليه كأبيهِ أو أُمِّهِ أو وَلَدِهِ أو شريكةِ حياتِهِ.

٢ - أنْ يبتليَ المؤمنَ بِفَقْدِ جُزْءٍ من جِسْمِهِ كذهابِ بَصَرِهِ أو سَمْعِهِ أو رِجْلِهِ أو يَدِهِ.

٣ - أنْ يبتليَ المؤمنَ بمَرَضٍ عُضالٍ، أو فَتّاكٍ، أو يُبْتَلَى بالخَوْفِ، والجوعِ، وضِيقِ العيشِ.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ اللهَ ﷻ لم يبتلِهِ - أي: عَبْدَهُ - ليهلكَهُ وإنَّما ابتلاهُ ليمتحنَ صبرَهُ وعبوديتَهُ، فإنَّ للهِ ﷻ على العبدِ عبوديةَ الضَّرَّاءِ»[2].

٢ - أشدُّ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ الابتلاءُ بالدِّينِ:

وكُلُّ كَسْرٍ فإنَّ اللهَ يَجْبُرُهُ ... وما لِكَسْرِ قَناةِ الدينِ جُبْرانُ[3]

أعظَمُ البلاءِ وأخطَرُهُ البلاءُ في الدينِ في العقيدةِ في الإقبالِ على اللهِ في العبادةِ إنَّها - لَعَمْري - مصيبةٌ من أعظَمِ المصائبِ.

---

(١) «تاريخُ الأندلسِ» (٣٣٣).

(٢) «الوابلُ الصيبُ» (٥).

(٣) «المحاضرةُ في اللغةِ والأدبِ» (١٣٥).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ومن دعاءِ النبيِّ ﷺ: «ولا تجعَلْ مصيبَتَنا في دينِنا»(١).

ومتى سَلِمَ لك دينُكَ فلا تُبالِ بما فاتَك من الدنيا.

إذا أبقَتِ الدُّنيا على المَرْءِ دينَهُ ... فما فاتَهُ منها فليسَ بضائرِ(٢)

٢ - الابتلاءُ بالمعاصي:

إذا كُنْتَ في نعمةٍ فارْعَها ... فإنَّ المعاصي تُزيلُ النِّعَمْ(٣)

المعاصي إنما تُعَدُّ نوعًا من الابتلاءِ من حيثُ إنَّ الله حرَّمَها على عبادِهِ، واختَبَرهم بها هَلْ يمتنِعون منها أم لا؟

وهي تَدْخُلُ في الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ وإنما أفْرَدْناها هنا؛ لأنها قد تَخْفَى على كثيرٍ من الناسِ ويُرادُ بها اختبارُ الصِّدْقِ في الإيمانِ فيُختَبَرُ العِبادُ بطاعةِ ربِّهم في الكَفِّ عن المعاصي مع تمكُّنِهم منها؛ لا في نَفْسِ ممارستِها دلَّ على ذلك قولُ الله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نَختبرُهم بإظهارِ السَّمَكِ لهم على ظَهْرِ الماءِ في اليومِ المُحَرَّمِ عليهم صَيْدُهُ وإخفائِهِ عنهم في اليومِ المُحَلَّلِ لهم صَيْدُهُ.

---

(١) (حسنٌ) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٣٥٩٧)، عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ الجامعِ» (٢٦٨).

(٢) «ربيعُ الأبرارِ» للزَّمخشريِّ (١/ ٣٩).

(٣) «المحاضراتُ والمحاوراتُ» (٣٦٦).

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ يقول: يفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها»[1].

قال ابنُ عاشور: رَحِمَهُ اللَّهُ «أي نمتحنُ طاعتَهُمْ بتعريضهم لداعي العصيان، وهو وجودُ المُشتهى الممنوع»[2].

وقد قرَّرَ اللهُ ﷻ في آيةٍ أُخرى ومع قومٍ آخرين، ولكنَّهم نجحُوا في هذا الامتحانِ فكانوا خيرًا من اليهودِ، وهُمُ المسلمونَ أصحابُ النبيِّ ﷺ لما كانوا مُحرِمين بعمرةِ الحُدَيبيةِ ابتلاهم اللهُ بالصَّيْدِ وهو مُحَرَّمٌ على المحرمِ حتى أنَّ الصيدَ اقتَرَبَ منهم فكانَ أحدُهم يستطيعُ أنْ يَصِيدَهُ بِيَدِهِ دونَ استخدامِ آلةِ الصَّيْدِ.

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: ٩٤].

وفي هذا الزَّمنِ يتكرَّرُ ابتلاءٌ عظيمٌ لكنْ بشكلٍ مختلفٍ فقبلَ عشرةِ أعوامٍ تقريبًا كان الحُصُولُ على الصُّورِ والمقاطعِ المحرَّمةِ بعيدَ المَنالِ نوعًا ما، أمَّا الآنَ فبلمسةٍ خفيفةٍ على شاشةِ الجوَّالِ أو بضغطةِ زرٍّ على الحاسبِ الآليِّ تُشاهِدُ هذا حتى من دونِ برامجِ الحَجْبِ.

وقد تتعدَّدُ وسائلُ المعاصي فكُنْ منها على حذرٍ وتذكَّرْ: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

---

(١) تفسيرُ الطبريِّ (١٣/ ١٨٣).

(٢) «التحريرُ والتنويرُ» (٩/ ٥٠).

٣ - الابتلاء بالسراء:

لا تبطرُ السَّرَّاءُ لي خُلُقًا ولا ... أغدو على ضَرَّائها متخشِّعًا[١]

يَبتلي الله ﷻ عبدَهُ بالنَّعماء أو الخَيرِ فِتنةً وتمحيصًا بأنْ يُعطيَهُ المالَ أو الجاهَ أو المنصبَ أو العافيةَ ونحوَ ذلك لِينظُرَ أيشكرُ أم يكفرُ.

قال الله ﷻ عن نبيِّه سليمانَ - عليه الصلاةُ والسَّلامُ - عندما رأى عَرْشَ بلقيسَ عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

فقولُهُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي هذا التمكينُ من حصولِ المُرادِ من فضلِ الله وعطائِه.

وقولُهُ: ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي: ليُخْبِرَني أأشكرُ أم أجحدُ هذه النِّعَمَ.

وقولُهُ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: مَنْ شَكَرَ الله على نعمةِ السَّرَّاءِ فإنما يَشْكُرُ لنفسِهِ حيثُ يزيدُهُ الله ﷻ منها.

وقولُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: ومن كَفَرَ نِعَمَ الله ﷻ وجَحَدَها فإنَّ الله غنيٌّ عن خَلْقِهِ كريمٌ في معاملتِهِ لهم حيثُ لم يُعاجِلْهم بالعقوبةِ، بل يَعْفُو ويَصْفَحُ عن كثيرٍ من ذنوبِهم.

وقال الله ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: نختبركم بالمصائبِ تارةً، وبالنعم تارةً أخرى، لننظرَ من يشكرُ ومن يكفرُ ومن يصبرُ ومن يقنطُ»[٢].

---

(١) «الحلة السيراء» لابن الأبار (١/ ٣٩٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٨).

وعن صُهَيبِ بنِ سِنانٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ خيرٌ، وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ إنْ أصابتْهُ سرَّاءُ شكرَ فكانَ خيرًا لهُ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكانَ خيرًا لهُ»(١).

صُوَرٌ من الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ:

١ - أنْ يُبتلَى العبدُ بالغِنَى وكثرةِ العَرَضِ:

فعن عمرِو بنِ عوفٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «... فواللهِ ما الفقرَ أخشَى عليكم، ولكنِّي أخشَى أنْ تُبسَطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَتْ على مَنْ كانَ قبلكم فتنافَسُوها كما تنافَسُوها وتهلِكَكُمْ كما أهلَكَتْهُمْ»(٢).

٢ - ابتلاؤُهُ بزينةِ الدُّنيا وزَهْرَتِها:

فعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جلَسَ ذاتَ يومٍ على المِنبرِ وجَلَسْنا حَوْلَهُ فقالَ: «إنِ ممَّا أخافُ عليكُمْ مِنْ بعدِي ما يُفتَحُ عليكُمْ مِنْ زهْرةِ الدُّنيا وزينتِها»(٣).

٣ - الابتلاءُ بحُبِّ الرِّياسةِ والجاهِ:

فيَطلُبُها ويَحرِصُ عليها فيكونُ فيها هلاكُهُ.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّكُمْ ستَحرِصُونَ علَى الإمارةِ، وستَكُونُ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٥).

(٢) رواه البُخاريُّ (٣٦٩١).

(٣) رواهُ البخاريُّ (١٤٦٥).

نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ»(١).

الابتلاءُ بالسَّرَّاءِ أشدُّ من الضَّرَّاءِ:

قد يُنعِمُ اللهُ بالبَلْوى وإن عَظُمَتْ ... ويَبْتَلِي اللهُ بعضَ القومِ بالنِّعَمِ(٢)

الابتلاءُ بالسَّرَّاءِ أشدُّ من الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ؛ لأنَّ القيامَ بحقوقِ الصَّبْرِ أيسرُ من القيامِ بحُقُوقِ الشُّكْرِ هكذا حالُ أكثرِ الناسِ يَضْعُفُونَ أمامَ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ بسببِ المغرياتِ وتطلعاتِ النفسِ خِلافًا للضرَّاءِ، فإنَّه يُحَفِّزُ قُوى الإنسانِ وطاقَتَهُ ويَجْعَلُهُ مستعدًّا لمقاومةِ المصاعِبِ ويَدْفَعُهُ للافتقارِ إلى اللهِ واللُّجوءِ إليه فَيُفْرِغُ اللهُ عليه صَبْرًا، فأينَ هذا من السَّرَّاءِ كالصِّحَّةِ والثراءِ والمَنْصِبِ فكُلُّ ذلك يُغْرِي الإنسانَ ويُثِيرُ شَهْوَتَهُ وغرائِزَهُ الفطريَّةَ فتَتَطَلَّعُ نَفْسُهُ للمُغْرِياتِ والمُتَعِ الماديَّةِ ويَسْتجيبُ لها شيئًا فشيئًا من دونِ أنْ يَشْعُرَ أو يُدْرِكَ أنَّهُ واقعٌ في فتنةٍ إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ؛ لهذا قال عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: ابْتُلِينا مع النبيِّ ﷺ بالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنا، ثُمَّ ابْتُلِينا بَعْدَهُ بالسَّرَّاءِ فلَمْ نَصْبِرْ»(٣).

٤ - الابتلاءُ بالطَّاعاتِ:

ذنوبُكَ في الطاعاتِ وهي كثيرةٌ ... إذا عُدِّدَتْ تَكْفِيكَ عن كُلِّ زَلَّةِ(٤)

الابتلاءُ بالطاعاتِ يَدْخُلُ في الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ، وإنَّما أفْرَدْناهُ هنا؛ لأنَّهُ - يَخْفَى على كثيرٍ من الناسِ كما هو الحالُ في الابتلاءِ بالمعاصي.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٧١٤٨).

(٢) ديوانُ أبي تَمام (٣٦٤).

(٣) (حَسَنٌ) أخرجَهُ الترمذيُّ (٢٤٦٤) وقال الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٢٠٣٤): حَسَنُ الإسنادِ.

(٤) «الكشكولُ» لبهاءِ الدينِ الهَمَذَاني (٢/ ٤٠).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ومن تأمَّلَ النصوصَ من الكتابِ والسُّنَّةِ التي تأمُرُ بالطاعاتِ فقد عَرَفَ أنَّه مُبتَلَىٰ البَلاءَ العظيمَ فإنْ أعرَضَ عنها فقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ للهَلاكِ وإنْ آمَنَ ببَعْضٍ وكَفَرَ ببَعْضٍ فقد عَرَّضَ نفسَهُ للهَلاكِ - أيضًا - وإنْ أخَذَها بقُوَّةٍ وُفِّقَ وسُدِّدَ وأعانَهُ اللهُ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَنَادَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٤ - ١٠٦][1].

فالله ﷻ ابتلى إبراهيمَ وإسماعيلَ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ - بالطاعاتِ فعمل إبراهيم بالحزْمِ فَقَبِلَ اللهُ فِعْلَهُ، وانقادَ إسْماعيلُ لأمرِ اللهِ فَقَبِلَ اللهُ خُضُوعَهُ.

اصْبِرْ على مَضَضِ الإدْلاجِ في السَّحَرِ ... وفي الرَّواحِ إلى الطاعاتِ في البُكَرِ

إنِّي رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ ... للصَّبْرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثَرِ

وقَلَّ مَنْ جَدَّ في أمرٍ يؤمِّلُهُ ... واستصحَبَ الصَّبرَ إلا فازَ بالظَّفَرِ[2]

---

(١) انظرْ: نَضْرَةَ النَّعيمِ (١/ ١٢ - ١٤).

(٢) جواهرُ الأدبِ للهاشميِّ (٢/ ١٧٧).

مراتب الابتلاء بالضراء

للابتلاءِ بالضَّرَّاءِ ثلاثُ مَراتِبَ:

المرتبةُ الأُولى: التَّمْحِيصُ:

دَلَّ علىٰ ذلكَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١].

قال الطبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني تعالىٰ ذِكْرُهُ بقولِهِ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وليَخْتَبِرَ اللهُ الذين صَدُّوا اللهَ ورسولَهُ فَيَبْتَلِيهم بإدالَةِ المشركين منهم حتىٰ يَتَبَيَّنَ منهم المُخْلِصَ الصحيحَ الإيمانِ من المنافِقِ»[1].

المرتبةُ الثانيةُ: التَّطْهِيرُ:

دلَّ علىٰ ذلكَ حديثُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما يُصيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ ولا هَمٍ ولا حَزَنٍ ولا أَذًىٰ ولا غَمٍّ حَتَّىٰ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[2].

المرتبةُ الثالثةُ: القُرْبُ والتَّكْرِيمُ ورَفْعُ الدَّرَجَاتِ:

قال اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وعن جابرِ بنِ عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يَوَدُّ أَهْلُ العافيةِ يومَ

---

(١) تفسيرُ الطبريِّ (٦/ ٨٩).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٥٦٤٢)، ومُسْلِمٌ (٢٥٧٢).

ة ضوئيا بـ CamScanner

القيامةِ حِينَ يُعْطَى أهْلُ البلاءِ الثوابَ لو أنَّ جُلُودهم كانت قُرِضَتْ بالمقاريضِ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ ثوابِ أهْلِ البلاءِ»[1].

ويعجبني قولُ أحمدَ مُخرِمٍ:

على الجَمْرِ سِرْ فَهْوَ السَّبيلُ الذي مَضَى ... عليه الأُلى ساروا إلى ذلك الحِمَى

على الجَمْرِ سِرْ تَسْتَبْقِ نَفْسَكَ واتَّخِذْ ... عليهِ إلى عليا المراتبِ سُلَّمَا[2]

---

(١) (حَسَنٌ) أخرجَهُ الترمذي (٢٤٠٢)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في (صحيح الجامع) (٥٨٤٤).

(٢) ديوانُ أحمدَ مُخرِمٍ (٢٠١٧).

فضائلُ الابتلاءِ بالضَّرّاء

تفنى الفداءُ لها وبوحُ فضائلٍ تتشرّفُ الأرواحُ أنْ تُهدِي لها[١]

فضائلُ الابتلاءِ بالضَّرّاءِ جَمَّةٌ وسوف أقتصرُ على رحيقِ أزهارِها.

إذا ما ذُقْتُهُ عسلٌ مُصَفّى جَنَتْهُ النحلُ في علمٍ شَناحِ[٢]

فمِنْ تلك الفضائلِ ما يأتي:

١ - تحقيقُ الإيمانِ:

وثِقْ أنَّ للإيمانِ بالحقِّ قُوَّةً وأنَّ لهُ في كلِّ معركةٍ بَدْرا[٣]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرّاءِ تحقيقُ الإيمانِ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

قال ابنُ القيِّمِ رحمه الله: «ذَكَرَ سبحانَهُ في هذه السُّورةِ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ يَمْتَحِنَ خَلْقَهُ ويَفْتِنَهُمْ لِيَتَبَيَّنَ له الصَّادقُ من الكاذبِ والمؤمنُ من الكافرِ ومَنْ يَشْكُرُهُ ويَعْبُدُهُ مِمَّنْ يَكْفُرُهُ ويُعْرِضُ عنه ويَعْبُدُ غيرَهُ وذَكَرَ أحوالَ المُمْتَحَنِينَ في العاجلِ والآجلِ وذَكَرَ أئِمَّةَ المُمْتَحَنِينَ في الدنيا وهم الرُّسُلُ وأتباعُهُمْ وعاقبةَ أمرِهم وما صاروا إليه وافْتَتَحَ بالإنكارِ على مَنْ يَحْسَبُ أنه يَتَخَلَّصُ من الامتحانِ والفِتْنَةِ في هذه الدَّارِ إذا ادَّعَى

---

(١) المذاهبُ الأدبيةُ في الشعرِ الحديثِ لجنوبِ المملكةِ (٢٠).

(٢) منتهى الطلبِ في أشعارِ العَرَبِ (٣٤٧). والشَّناحُ: الطَّويلُ.

(٣) المذاهبُ الأدبيةُ (٨٩).

الإيمانَ وأنَّ حكمتَهُ سبحانه وشأنَهُ في خَلْقِهِ بأبين ذلك وأخبرَ عن سرِّ هذه الفِتْنةِ والمِحْنَةِ وهو تَبَيُّنُ الصادِقِ من الكاذِبِ والمؤمنِ من الكافِرِ وهو سبحانَهُ كان يَعْلَمُ ذلك قَبْلَ وُقُوعِهِ ولكنْ اقتضى عَدْلُهُ وحَمْدُهُ أنَّهُ لا يُجْزِي العبادَ بِمُجَرَّدِ عِلْمِهِ فيهم بَلْ بمعلومِهِ إذا وُجِدَ وتَحَقَّقَ والفِتْنَةُ هي التي أظْهَرَتْهُ وأخرجَتْهُ إلى الوجودِ فحينئذٍ حَسُنَ وقوعُ الجَزاءِ عليه»[1].

ولْذُ بِحِمَى الإيمانِ وارْضَ بما قضى ... بِهِ اللهُ واعلمْ أنَّ حِكْمَتَهُ أعلى

فللدِّينِ فَضْلٌ في الحياةِ لأنَّها ... بغيرِ الهُدَى تغدو جحيمًا بِهِ تَصْلَى[2]

٢ - تقويةُ الإيمانِ بالقَضاءِ والقَدَرِ:

تجري المقاديرُ على غَرْزِ الإبَرْ ... ما تَفْعَلُ الإبرةُ إلا بِقَدَرْ[3]

من فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ تقويةُ الإيمانِ بالقَضاءِ والقَدَرِ.

فعن الوليدِ بنِ عبادةَ قال: دَخَلْتُ على أبي وهو مريضٌ أتخايَلُ فيه الموتَ فقلتُ: يا أبتاه أوصِني واجتهِدْ لي، فقال: أجْلِسوني، فلما أجْلَسُوهُ، قال: يا بُنَيَّ إنكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإيمانِ ولَنْ تَبْلُغَ حقيقةَ العلمِ باللهِ ﷻ حتى تُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، قلتُ: يا أبتاه وكيفَ لي أنْ أعْلَمَ ما خيرُ القَدَرِ وشَرُّهُ؟ قال: تعلمُ أنَّ ما أخطأكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وما أصابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يا بُنَيَّ إني سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قال: اكتبْ، فجرى في تلكَ الساعةِ بما هو كائنٌ إلى يومِ

---

(١) شفاءُ العليلِ (١/ ٢٤٥).

(٢) المذاهبُ الأدبيةُ (١/ ٣٠).

(٣) «القضاءُ والقدرُ» للحمد (٢٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

القيامة...» يا بُنَيَّ إنْ مِتَّ وَلَسْتَ على ذلك دخلتَ النارَ»(١).

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الحديثُ دَلَّتْ عليه النُّصوصُ وهو قولُ جمهورِ السَّلَفِ»(٢).

قال ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «على المسلمينَ أنْ يُؤمنوا بمشيئةِ اللهِ في عمومِ مُلْكِهِ فإنَّه ما مِن شيءٍ في السمواتِ أو في الأرضِ إلا وهوَ مُلْكٌ للهِ ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠].

وما من شيءٍ في ملكِهِ إلا وهو بمَشِيئَتِهِ وإرادتِهِ فبِيَدِهِ المُلْكُ، وبيدِهِ مقاليدُ السَّماواتِ والأرضِ، ما من شيءٍ يَحْدُثُ من رَخاءٍ وشِدَّةٍ، وخَوْفٍ وأمْنٍ، وصِحَّةٍ ومَرَضٍ، وقِلَّةٍ وكَثْرَةٍ، إلا بمشيئتِهِ ﷻ»(٣).

ويُعجبُني قولُ لَبيدٍ:

إنَّ تَقْوى ربِّنا خَيْرُ نَفَلْ ... وبإذْنِ اللهِ رَيْثي وعَجَلْ

أحْمَدُ اللهَ فلا نِدَّ لَهُ ... بيَدَيْهِ الخَيْرُ ما شاءَ فَعَلْ

مَن هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهْتَدى ... ناعِمَ البالِ ومَن شاءَ أضَلْ(٤)

---

(١) (صَحِيحٌ) أخرجَهُ أحمدُ (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٤٧٠٠) وابنُ أبي عاصمٍ في «السُّنَّة» (١٠٣)، وصححه الألبانيُّ في تعليقه على السُّنَّة (١٠٤)، وقال شيخنا الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ: الحديث صحيح بمجموع الطرق كما في «الجامع في القدر» (٣٢).

(٢) «مجموعُ الفتاوى» (١٨/ ٢٧٣).

(٣) «الضياءُ اللامعُ» للعثيمين (٣٤٩).

(٤) «الإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ» للمحمد (٢٨).

٢- تمحيص ما في القلوب:

رأيتُ فضيلاً كان شيئاً مُلفَّفاً ... فكشفَهُ التمحيصُ حتى بَدا ليا[١]

من فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ تمحيصُ ما في القلوبِ قالَ اللهُ ﷻ ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فَهَلْ عَرَفْتَ ما هو التمحيصُ إنَّه التطهيرُ من الذُّنوبِ والتَّخليصُ من العيوبِ والتَّنقيةُ من دخائلِ الضَّعفِ والوَهَنِ بملاقاةِ الشَّدائدِ والصَّبرِ عليها حتى تَصْفُرَ النفوسُ فلا يَبْقَى فيها دَرَنٌ.

قالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تمحيصُ ما في قلوبِ المؤمنينَ هو تخليصُهُ وتَنقيتُهُ وتَهذيبُهُ فإنَّ القلوبَ يخالِطُها بغَلَباتِ الطَّبائعِ وميلِ النفوسِ وحُكْمِ العادةِ وتَزيينُ الشيطانِ واستيلاءِ الغفلةِ ما يُفْسِدُ ما أُودِعَ فيها من الإيمانِ والإسلامِ والبِرِّ والتقوى فلَوْ تُرِكَتْ في عافيةٍ دائمةٍ مُستمرَّةٍ لم تَتَخلَّصْ من هذه المخالَطةِ ولم تَتَمحَّصْ منه فاقتضَتْ حكمةُ العزيزِ أنْ قَيَّضَ لها من المِحَنِ والبلايا ما يكونُ كالدَّواءِ الكريهِ لِمَنْ عَرَضَ له دالَّةٌ إنْ لَمْ يُتَدارَكْهُ طبيبُهُ بإزالتِهِ وتَنقيتِهِ من جَسَدِهِ وإلا خِيفَ عليه منه الفَسادُ والهَلاكُ»[٢].

لكنَّ نَفْسًا في جهادِكَ رُضْتَها ... بالحادثاتِ خِفافِها وثِقالِها

مَحَّصْتَها تمحيصَ أغلى جوهرٍ ... في ضَمِّ كُلِّ مُلِمَّةٍ ونكالِها

فَلْتَشْهَدِ الأيامُ بَعْدَكَ شَمَّها ... ولْيَعْمُرِ الآفاقَ ظِلُّ ظِلالِها[٣]

---

(١) «الكاملُ في اللغةِ والأدبِ» (١/ ١٧٣).

(٢) «زادُ المعادِ» (٣/ ٢٠٩).

(٣) دواوينُ الشِّعرِ العربيِّ (١٨/ ٤٣٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٤ - رفعة المنزلة في الآخرة:

زِدْ كُلَّ يومٍ في العُلَى رِفْعَةً ... وليَصْنَعِ الحُسَّادُ ما يَصْنَعوا[١]

من فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ رفعةُ المنزلةِ في الآخرةِ فعَنْ أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ ليكونُ له المنزلةُ عند اللهِ، فما يَبْلُغُها بعَمَلٍ فلا يزالُ اللهُ يَبْتليهِ بما يكْرَهُ حتَّى يُبَلِّغَهُ إياها»[٢].

وعن عائشةَ ﷺ قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما يُصيبُ المؤمنَ من شوكةٍ فما فوقها إلا رَفَعَهُ اللهُ بها دَرَجَةً، أو حَطَّ بِها خَطيئةً»[٣].

فهؤلاءِ العبادُ تكونُ لهم المنزلةُ العظيمةُ عند اللهِ ولكنَّ أعمالَهم لا تُمَكِّنُها أنْ تَرْقَى بهم إلى هذهِ المنزلةِ فكانَ الابتلاءُ وسيلةً يَسْتخرجُ اللهُ ﷻ من قلوبِ هؤلاءِ ألوانًا من العبوديَّةِ من ذُلٍّ وانكسارٍ وفَقْرٍ واضْطرارٍ ما كانت لِتَخْرُجَ من قلوبِهم إلا مِن خلالِ هذا الابتلاءِ.

ويُؤَكِّدُ هذا المعنى القاضي عياضٌ ﷺ فيقولُ: «فإنْ قيل: فما الحكمةُ من إجراءِ الأمراضِ وشِدَّتِها عليه ﷺ وعلى غيرِهِ من الأنبياءِ جَميعِهم - عليهم السلامُ - وما الوَجْهُ فيما ابْتلاهم اللهُ به من البلاءِ، وامتحانِهم بما امْتُحِنُوا به، كأيُّوبَ، ويعقوبَ، ودانيالَ، ويحيى، وزكريا، وإبراهيمَ، ويوسُفَ، وغيرِهم - صلواتُ اللهِ عليهم - وهم خِيرَتُهُ من خَلْقِهِ وأحبَّاؤُهُ، وأصفياؤُهُ؟

---

(١) «ديوانُ ابنِ نباتة» (٢٦١).

(٢) (حَسَنٌ) أخرجَهُ ابنُ حِبَّانَ في «صحيحِهِ» (٢٩٠٨)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ الجامعِ» (٢٢٧٥).

(٣) رواهُ مُسلمٌ. (٢٥٧٢).

فاعلمْ - وفَّقنا اللهُ وإياكَ - أنَّ أفعالَ اللهِ تعالى - كُلَّها عَدْلٌ، وكلماتِهِ جميعُها صِدْقٌ، لا مُبَدِّلَ لكلماتِهِ، يبتلي عبادَهُ كما قال تعالى لهم: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤]. فامتحانُهُ إيَّاهم بِضُروبِ المِحَنِ زيادةٌ في مكانِهم ورفعةٌ في درجاتِهم، وأسبابٌ لاستخراجِ حالاتِ الصَّبْرِ والرِّضا، والشُّكْرِ والتسليمِ، والتوكُّلِ، والتفويضِ، والتضرُّعِ منهم، وتأكيدٌ لبصائرِهم في رَحْمَةِ المُمْتَحَنين، والشَّفَقَةِ على المُبْتَلين، وتذكرةٌ لغيرِهم، وموعظةٌ لِسِواهم ليتأسَّوا في البلاءِ بهم، فيَتَسَلَّوا في المِحَنِ بما جَرَى عليهم، ويقتدوا بهم في الصَّبْرِ، ومَحْوٌ لِهَنَاتٍ فَرَطَتْ منهم، أو غَفَلاتٍ سَلَفَتْ لهم، لِيَلْقَوا اللهَ طَيِّبِينَ مُهَذَّبين، وليكونَ أجرُهم أكمَلَ، وثوابُهم أوفَرَ وأجزَلَ»[1].

وما اليومَ يمتازُ التفاضُلُ بينهم ... ولكنَّ غدًا يمتازُ في الدَّرجاتِ[2]

٥ - أنَّ مَنِ ابتلاك أرحَمُ بك مِنْ نفسِك:

فحتَّى متى يُعصَى ويَعفُو إلى متى ... تَبارَكَ ربِّي، إنَّهُ لَرحيمُ[3]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنْ تَعْلَمَ أنَّ الذي ابتلاكَ هو اللهُ الذي هو أرحَمُ بِكَ من نَفْسِكَ ووالِدَيك والناسِ أجمعين.

فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ»؟ قُلْنَا: لا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ

---

(١) الشِّفا للقاضي عياض (٢/ ٧٧٨).

(٢) ديوانُ أبي إسحاقَ الإلبيري (٩٤).

(٣) ديوانُ أبي العتاهية (٢٦٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

لا تطرحه. فقال: «اللهُ أرحمُ بعبادِهِ من هذهِ بولدِها»(١).

قال ابنُ القيمِ رحمه الله ناصحًا من ابتلاهُ الله: «أن يعلمَ أنَّ الذي ابتلاهُ بها أحكمُ الحاكمين، وأرحمُ الراحمين، وأنَّهُ سبحانهُ لم يُرسِلْ إليهِ البلاءَ ليُهلِكَهُ بهِ، ولا ليُعذِّبَهُ بهِ، ولا ليَجتاحَهُ، وإنَّما ابتلاهُ بهِ ليمتحنَ صبرَهُ ورضاهُ عنهُ وإيمانَهُ وليسمعَ تضرُّعَهُ وابتهالَهُ، وليراهُ طريحًا ببابِهِ لائذًا بجنابِهِ مكسورَ القلبِ بينَ يديهِ رافعًا قصصَ الشكوى إليهِ»(٢).

يقولونَ لي صبرًا وإني لصابرٌ ... على نائباتِ الدهرِ وهي فواجعُ

سأصبرُ حتى يقضيَ اللهُ ما قضى ... وإنْ لم أصبرْها فما أنا صانعُ؟(٣)

٦- توقُّعِ المِنَحِ:

وقد يهلكُ الإنسانُ من بابِ أمنِهِ ... وينجو بإذنِ اللهِ من حيثُ يحذرُ(٤)

من فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنَّ من المِحَنِ قد تأتي المِنَحُ ولعلَّ الخيرَ فيما تكرهُ ألم تسمعْ إلى قولِ المولى ﷻ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]، وقولِهِ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعنْ صُهيبٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عجبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَهُ كلَّهُ خيرٌ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٩٩٩).

(٢) زادُ المعادِ (٤/ ١٧٨).

(٣) «قصيدةُ القصرِ» (٢/ ٨٦٠).

(٤) الذخائرُ والعبقرياتُ (١/ ٢٢٨).

وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[١].

ويُعجبني الذي يقولُ:

لا تكرهِ المكروهَ عند نزولِهِ ... إن العواقبَ لم تزلْ مُتباينةْ

كَمْ نعمةٍ لا تستقلُّ بشكرِها ... للهِ في ظلِّ المكارهِ كامنةْ[٢]

٨ - تحقيقُ العبوديَّة:

ومَنْ لَكَ بالأمانِ وأنتَ عبدٌ ... أُمِرْتَ فما ائتمرْتَ ولا أطعتَا[٣]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ تحقيقُ العبودية.

فالجَمُّ الغفيرُ من الناسِ عَبْدٌ لهواهُ يَحْسَبُ أنهُ عبدٌ لِلَّهِ، ولكنْ عندَ الابتلاءِ تظهرُ الحقائقُ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحجّ: ١١].

ومن الناسِ صِنْفٌ لم يَتَمَكَّنِ الإيمانُ من قلبِهِ، بل هو مُنْتَزَعُ العقيدةِ تَتَحَكَّمُ مصالِحُهُ في إيمانِهِ فإنْ أصابَهُ رخاءٌ وسَعَةُ عيشٍ رضِيَ واطمأنَّ واستبشرَ بالدينِ فَعَبَدَ اللهَ، وإنْ أصابَهُ شرٌّ وبلاءٌ، وضيقُ عيشٍ ارْتَدَّ ورَجَعَ إلى الكُفْرِ فَخَسِرَ في الدنيا راحةَ الاطمئنانِ إلى قضاءِ اللهِ ونَصْرِهِ، كما خَسِرَ في الآخرةِ النعيمَ[٤].

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ (٢٩٩٩).

(٢) زهرةُ الأدبِ (١/ ١٦٨).

(٣) ديوانُ أبي إسحاقَ الإلبيري (٣١).

(٤) «أيسرُ التفاسيرِ» لأسعدَ حومد (١/ ٢٥٤).

ة صوبا بـ CamScanner

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فلولا أنَّهُ - سبحانَهُ - يُداوي عبادَهُ بأدويةِ المِحَنِ والابتلاءِ لَطَغَوْا وبَغَوْا وعَتَوْا، واللهُ - سبحانه - إذا أرادَ بعبدٍ خيرًا سقاهُ دواءَ من الابتلاءِ والامتحانِ على قَدْرِ حالِهِ، يستفرغُ بِهِ من الأدواءِ المُهلكةِ، حتى إذا هَذَّبَهُ ونَقَّاهُ وصَفَّاهُ: أهَّلَهُ لأشرفِ مراتبِ الدنيا وهي عبوديَّتُهُ، وأرفعِ مراتبِ الآخرةِ وهي رُؤيتُهُ وقُربُهُ»[1].

٩- ظُهورُ فضلِ العَبْدِ وما جُبِلَ عليه من المكارمِ:

كريمٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ فَضْلَ حيائِهِ ... ويَدنُو وأطرافُ الرِّماحِ دَوانِ[2]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ ظهورُ فَضْلِ اللهِ على العَبْدِ وما جَبَلَهُ عليه من المكارمِ فقد يُوَفِّقُ اللهُ العَبْدَ لصفاتٍ حَسَنةٍ خفيَّةٍ لكنْ عند الابتلاءِ يُظْهِرُ تلكَ الصفاتِ فَيَحْمَدُ اللهَ ويَشْكُرُهُ على ما مَنَّ به عليه وخُذْ مَثَلَ ذلك كَظْمَ الغَيْظِ والعَفْوَ والصَّفْحَ والإنفاقَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

فقد يَسْتَفِزُّكَ صاحِبُ سُخْفٍ وطَيْشٍ فَتُوَفَّقُ لِكَظْمِ الغَيْظِ وتَعْفُو عنه كَرَمًا وتَصْفَحُ ويَقْصِدُكَ أخٌ أو قريبٌ لحاجةٍ فتجودُ نَفْسُكَ بما تَجِدُ فهنا ظَهَرَتِ الحقائِقُ وظَهَرَ فَضْلُ اللهِ عليك.

وأنَّهُ لولا البلاءُ ما عرفْتَ أنَّ اللهَ قد جَبَلَكَ بِخِصالِ الحَمْدِ زِدْ على ذلك الأجْرَ العظيمَ على تلك الصفاتِ حِينَ ظُهورِها وقَبْلَهُ.

ألَمْ تسمعْ إلى قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا

---

(١) زادُ المعادِ (٤/ ١٩٥).

(٢) ديوانُ أبي الشِّيصِ (٧٨).

السَّمَوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

وقُلْ مِثْلَ ذلكَ في بقيَّةِ المكارِمِ والمِنَحِ.

وقال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنَّهُ لولا الابتلاءُ والامتحانُ لما ظَهَرَ فَضْلُ الصَّبْرِ والرِّضا والتوكُّلِ والعِفَّةِ والشجاعةِ والحِلْمِ والعَفْوِ والصَّفْحِ والله ﷻ يُحِبُّ أنْ يُكْرِمَ أولياءَهُ بهذهِ الكمالاتِ ويُحِبُّ ظهورَها عليهم هو وملائكتُهُ، وينالوا بأتصافِهم بها غايةَ الكرامةِ واللَّذَّةِ والسُّرورِ، وإنما كانت مُرَّةَ المبادئِ فلا أحلى من عواقِبِها، ووجودُ الملزومِ بدونِ لازِمِهِ مُمْتَنِعٌ»(١).

أضاءَ لنا الأُفُقَ المُظْلِمْ ... بِمُنْسَاكَ وافْتَحَ المُبْهَمْ
مكارِمُ تملأُ سَمْعَ الأنامْ ... عجبًا لِنَكْرِهَا الأبكَمْ(٢)

١٠ - معرفةُ أنَّ مرارةَ الدنيا حلاوةُ الآخرةِ:

حلاوةُ دنياكَ مسمومةٌ ... فما تأكلُ الشهدَ إلا بسُمْ(٣)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ معرفةُ العبدِ أنَّ مرارةَ الدنيا على ما يَنالُ فيها حلاوةُ الآخرةِ مَنْ رَضِيَ وصَبَرَ واحْتَسَبَ.

---

(١) «شفاءُ العليل» (١/ ٢٦٨).

(٢) الإبانةُ عن شريعةِ المتقي لفظًا ومعنًى (٣٧).

(٣) «ديوانُ عبد الله بن المبارك» (٢٩).

ة ضوئيا بـ CamScanner

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُؤتَى بأنعمِ أهلِ الدنيا من أهلِ النَّارِ يومَ القيامةِ فيُصْبَغُ[1] في النارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يا بنَ آدمَ هل رأيتَ خيرًا - قطُّ - هل مَرَّ بكَ نعيمٌ - قطُّ - فيقولُ: لا - واللهِ - يا ربِّ. ويُؤتَى بأشدِّ الناسِ بُؤسًا في الدُّنيا من أهلِ الجنَّةِ فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجنَّةِ فيُقَالُ لَهُ: يا بنَ آدمَ هل رأيتَ بُؤسًا - قطُّ - هل مَرَّ بكَ شِدَّةٌ - قطُّ - فيقولُ: لا - واللهِ - يا ربِّ ما مَرَّ بي بُؤسٌ - قطُّ - ولا رأيتُ شِدَّةً - قطُّ -».

وفي روايةٍ: «يُؤتَى بأشدِّ النَّاسِ كانَ بَلاءً مِنْ أهلِ الجنَّةِ فيقُولُ: اصْبُغُوهُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فيُصْبَغُ فيها صَبْغَةً، فيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يا ابنَ آدمَ، هَلْ رأيتَ بُؤسًا قطُّ؟ أو شيئًا تكرَهُهُ؟

فيقُولُ: لا وعِزَّتِكَ، ما رأيتُ شيئًا أكرَهُهُ - قطُّ -، ثُمَّ يُؤتَى بأنعمِ النَّاسِ كانَ في الدُّنيا، مِنْ أهلِ النَّارِ، فيُقَالُ: اصْبُغُوهُ فيها صَبْغَةً، فيقولُ: يا ابنَ آدمَ، هَلْ رأيتَ خيرًا - قطُّ -؟ قُرَّةَ عَيْنٍ؟ فيقُولُ: لا وعِزَّتِكَ، ما رأيتُ خيرًا ولا قُرَّةَ عَيْنٍ»[2].

ويُعْجبني الذي يقولُ:

ألا إنَّما الدنيا تَضارةُ أيْكةٍ ... إذا اخْضَرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانِبُ

هي الدارُ ما الآمالُ إلا فجائعٌ ... عليها ولا اللَّذَّاتُ إلا مصائِبُ

فكم سخنتْ بالأمسِ عينٌ قريرةٌ ... وقرَّتْ عيونٌ دمعُها اليومَ ساكِبُ[3]

---

(١) يُصْبَغُ: أي يُغْمَسُ «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٧).

(٢) رواهُ مُسْلِمٌ (٢٨٠٧) واللفظُ الأولُ له. وأحمد (١٣٤٨٣) و(١٣٦٩٥) واللفظ الثاني له.

(٣) «العِقدُ الفريدُ» (٣/ ١٤٤).

١١ - يكشف لك أنَّ الدنيا نكدٌ وتعبٌ:

وكابدْ إلى أنْ تبلغَ النفسُ عذرَها ... وترقعَ في ثوبٍ من العفوِ ساترِ (١)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ معرفةُ حقيقةِ الدنيا وأنَّها دارُ القذى والأذى يُكابِدُ فيها الإنسانُ من حينِ يُولَدُ إلى أنْ يلقى رَبَّهُ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤].

قال بعضُ العلماءِ: أوَّلُ ما يُكابِدُ قطعُ سُرَّتِهِ ثم إذا قُمِطَ قِماطًا وشُدَّ رباطًا، يكابِدُ الضِّيقَ والتَّعَبَ، ثم يُكابِدُ الارْتِضاعَ، ولو فاتَهُ ضاعَ، ثم يكابِدُ نَبْتَ أسنانِهِ، ثم يكابِدُ الفِطامَ الذي هو أشدُّ من اللِّطامِ، ثم يكابِدُ الختانَ والأوجاعَ، ثم المُعلِّمَ وصَوْلَتَهُ، والمُؤدِّبَ وسياسَتَهُ، والأستاذَ وهَيْبَتَهُ، ثم يكابِدُ شُغْلَ التزويجِ، وشُغْلَ الأولادِ والخَدَمِ، وشُغْلَ المسكنِ والجيرانِ، ثم الكِبَرَ والهَرَمَ، وضَعْفَ الرُّكَبِ والقَدَمِ، في مصائبَ يكثُرُ تعدادُها من صُداعِ الرأسِ ووَجَعِ الأضراسِ، ورَمَدِ العَيْنِ، وهمِّ الدَّيْنِ، ووجَعِ السِّنِّ، وألمِ الأُذُنِ، ويكابِدُ مِحَنًا في المالِ والنَّفْسِ من الضَّرْبِ والحَبْسِ، ولا يَمضي عليه يومٌ إلا يُقاسي فيه شِدَّةً، ثم يكابِدُ بعد ذلك مَشَقَّةَ الموتِ، ثم بعدَهُ سؤالَ المَلَكِ وضَغْطَةَ القبرِ وظُلْمَتَهُ، ثم البَعْثَ والعَرْضَ على اللهِ تعالى إلى أنْ يستقرَّ به القرارُ، إما في الجنَّةِ وإما في النارِ، فدَلَّ هذا على أنَّ له خالقًا دَبَّرَهُ وقضى عليه بهذه الأحوالِ، ولو كان الأمرُ إليه ما اختارَ هذه الشدائدَ فليتمثَّلْ أمرَ خالقِهِ (٢).

---

(١) مجموعةُ القصائدِ الزُّهديَّةِ لعبدِ العزيزِ السلمانِ (١/ ٢٣٢).

(٢) السِّراجُ المنيرُ في الإعانةِ على معرفةِ بعضِ معاني كلامِ ربِّنا الحكيمِ الخبيرِ (٤/ ٣٥٨ - ٣٥٩) شمسُ الدينِ، محمدُ بنُ أحمدَ الخطيبِ الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ثمانيةٌ لا بُدَّ منها على الفتى ... ولا بُدَّ أنْ تجري عليه الثَّمانيةْ

سرورٌ وهَمٌّ واجتماعٌ وفرقةٌ ... ويُسْرٌ وعُسْرٌ ثم سَقْمٌ وعافيةْ(١)

١٢ - الابْتلاءُ بالفقرِ أقلُّ للحِسَابِ:

ولَسْتُ بِمَيَّالٍ إلى جانبِ الغِنَى ... إذا كانت العلياءُ في جانبِ الصَّبْرِ(٢)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنَّهُ:

إذا ابْتُلِيَ المسلمُ بالفَقْرِ فَصَبَرَ واحْتَسَبَ ورَضِيَ بِقِسْمَةِ اللهِ كان ذلك أقلَّ للحسابِ يومَ القيامةِ.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يدخُلُ الفقراءُ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بخمْسمِائةِ عامٍ»(٣).

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اطَّلَعْتُ على الجنةِ فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراءَ، واطَّلَعْتُ على النارِ فرأيتُ أكثرَ أهلِها النساءَ»(٤).

وعن أُسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قُمْتُ على بابِ الجنَّةِ، فكان عامَّةُ من دخَلَها المساكينَ، وأصحابَ الجَدِّ(٥) محبوسون غيرَ أنَّ أصحابَ النارِ قد أُمِرَ بهم إلى النارِ»(٦).

---

(١) «المحاضراتُ في اللغةِ والأدبِ» (٢/١).

(٢) «حماسةُ القرشي» (٣٩٢).

(٣) (حَسَنٌ صحيحٌ) أخرجَهُ الترمذيُّ (٢٣٥٣)، وقال الألبانيُّ في «سُنَنِ ابنِ ماجه»: حَسَنٌ صحيحٌ.

(٤) رواهُ البخاريُّ (٦٤٤٩) معلقًا ومسلم (٩٤).

(٥) أصحابُ الجَدِّ: أصحابُ الحظِّ والغِنَى.

(٦) رواهُ البخاريُّ (٩٤٠٠)، ومُسْلِمٌ (٢٧٣٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

مـن ثِـرَفِ الفَقْـرِ ومـن فَـضْلِهِ ... على الغِنَى لو صَحَّ منك النَّظَرْ

أنَّـكَ تعْـصِي اللهَ تبغـي الغِنَـى ... ولَسْتَ تعصي اللهَ كي تَفْتَقِرْ(١)

١٣ - الشَّوْقُ إلى الجَنَّةِ:

قـال لـي: إنَّ رقيبـي ... سَيِّئُ الخُلْقِ قَدَارَهْ

قُلْتُ: دَعْهُ وَجْهُكَ الجنْـ ... ـنَةُ حُفَّتْ بالمكارِهْ(٢)

ومن فضائل الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنْ تشتاق إلى الجَنَّةِ متى ذُقْتَ مرارةَ الدنيا.

ومن نوابغِ الحِكم: «حلاوةُ الدنيا مرارةُ الآخرةِ ومرارةُ الدنيا حلاوةُ الآخرةِ»(٣).

وعن عائشةَ رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قال: «إنما يَستريحُ مَنْ غُفِرَ لَهُ»(٤).

وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: «لا راحةَ للمؤمنِ دونَ لقاءِ اللهِ»(٥).

وعن محمد بنِ حَسْنَوَيْهِ رحمه الله قال: حَضَرْتُ أبا عبدِ اللهِ أحمدَ بنَ حَنْبَلٍ وجاءَهُ رجلٌ من أصْلِ خُراسانَ، فقال: يا أبا عبدِ اللهِ قَصَدْتُكَ من خُراسانَ، أسألُكَ عن مسألةٍ. قال له: سَلْ. قال: متى يَجِدُ العَبْدُ طَعْمَ الرَّاحَةِ؟

قال: عند أوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُها في الجَنَّةِ(٦).

---

(١) «التمثيلُ والمحاضرةُ» (٣٩٤).

(٢) «ديوانُ الصبابةِ» شهابُ الدين المغربي (٥٤).

(٣) «التمثيلُ والمحاضرةُ» للثعالبي (١٧١).

(٤) (صحيحٌ) أخرجهُ أحمدُ (٢٤٣٩٩) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٣٦٩).

(٥) (صحيحٌ) أخرجهُ أحمدُ في «الزُّهْدِ» (١٢٨) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «الضعيفة» (٢/ ١١).

(٦) «طبقاتُ الحنابلةِ» (١/ ٢٩٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

إعمل لدارِ البقا رضوانُ خازنُها ... الجارُ أحمدُ والرَّحمنُ بانيها

أرضٌ لها ذَهَبٌ والمسكُ طينتُها ... والزَّعفرانُ حشيشٌ نابتٌ فيها

أنهارُها لبنٌ مَحضٌ ومن عسلٍ ... والخمرُ يجري رحيقًا في مجاريها

١٤ - أنَّهُ سببٌ للنَّجاةِ من النارِ:

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاعَ لهُ ... إنْ لم أفُزْ فَوزَةً تُنجي مِنَ النَّارِ[١]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنَّهُ:

سببٌ للنجاةِ من النارِ فعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عادَ مريضًا من وَعْكٍ (حُمَّى) كان بِهِ، فقال لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَبْشِرْ، فإنَّ اللهَ عز وجل يقولُ: هِيَ ناري أُسَلِّطُها علىٰ عبدي المؤمنِ في الدنيا لتكونَ حَظَّهُ من النارِ في الآخرةِ»[٢].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الحُمَّىٰ حَظُّ المؤمنِ من النارِ في الآخرةِ»[٣].

١٥ - أنَّهُ دليلُ حُبِّ اللهِ لِعَبْدِهِ:

هو الحُبُّ نبعٌ لا يَغيضُ فتَرْتَوي ... نُفُوسٌ وتُروى لَهْفَةٌ ومَشَاعِرُ[٤]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنَّهُ قد يكونُ الدليلَ علىٰ حُبِّ اللهِ لِلعَبْدِ فطُوبَىٰ لَهُ

---

(١) ديوانُ الطِّرِمَّاحِ (٧٢).

(٢) (صحيحٌ) أخرجهُ أحمدُ (٢/ ٤٤٥) وابنُ ماجه (٣٤٧٠). وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٥٥٧).

(٣) (صحيحٌ) أخرجهُ البَزَّارُ كما في مجمع الزوائد عنه (٢/ ٣٠٦) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣١٨٧).

(٤) موسوعةُ الشعرِ الإسلامي (١/ ٩٠٩).

إذا كان ممَّن يُحبُّهم الله، وعلاماتُ حُبِّ الله للعبدِ كثيراتٌ ومن ذلك الابتلاءُ.

فعَنْ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمَنْ رَضِيَ فلَهُ الرِّضا، ومَنْ سَخِطَ فلَهُ السَّخطُ»(١).

لَعمرُكَ ما يَدري الفَتى كيفَ يَتَّقي ... مَصائِبَ هذا الدَّهرِ أمْ كيفَ يَحْذَرُ

تَرى الشَّيْءَ مما تَتَّقي فتخافُهُ ... وما لا ترى مما يَقِي اللهُ أكْثَرُ(٢)

١٦ - أنَّهُ تكفيرٌ للذنوبِ وحَطٌّ للخطايا:

إذا ما كُنْتَ مَحْبُولَ الخطايا ... وعانيها فَمَنْ لي بالبراحِ(٣)

من فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ تكفيرُ الذنوبِ وحَطُّ الخطايا دَلَّ على ذلك ما جاءَ عن عائشةَ ﷺ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ مُصِيبةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إلا كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ بها حتى الشَّوكَةُ يُشاكُها»(٤).

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذًى، ولا غَمٍّ، حتى الشَّوكةُ يُشاكُها إلا كَفَّرَ اللهُ بها من خطاياه»(٥).

أسيرُ الخطايا عندَ بابِكَ واقفٌ ... على وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أنتَ عارفُ

---

(١) (حَسَن) أخرجهُ الترمذيُّ (٢٣٩٦)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «المشكاة» (١٥٦٦)، و«الصحيحة» (١٤٦).

(٢) المحاضراتُ والمحاوراتُ (٣٩١).

(٣) ديوانُ أبي إسحاقَ الإلبيري (٤٣).

(٤) رواهُ البخاريُّ (٥٣١٧)، ومُسْلِمٌ (٢٥٧٢).

(٥) رواهُ البخاريُّ (٥٣١٨)، ومُسْلِمٌ (٢٥٧٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

يخافُ دنيًا لم يَغِبْ عنك غَيْبُها ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائفُ(١)

١٧ - يُضاعِفُ الأُجُورَ:

غَدَا غَدْوَةً والحَمْدُ نَسْجُ رِدائِهِ فلَمْ يَنْصَرِفْ إلا وأكفانُهُ الأَجْرُ(٢)

من فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ عظيمُ الأجرِ يُوَضِّحُ ذلكَ حديثُ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يَوَدُّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ حينَ يُعْطَى أهلُ البلاءِ الثوابَ لو أنَّ جلودَهُمْ قُرِضَتْ بالمقاريضِ»(٣).

أي يتمنَّى أهلُ العافيةِ في الدنيا يومَ القيامةِ قائلينَ ليتَ جلودَنا قُرِضَتْ بالمقاريضِ - أيْ قُطِّعَتْ بآلةٍ حادَّةٍ قِطعةً قِطعةً - فِدْنَا الثوابَ المُعْطَى على البلاءِ وذلك (مِمَّا يَرَوْنَ من ثوابِ أهلِ البلاءِ)؛ لأنَّه ﷺ طَهَّرَهُمْ في الدنيا من موادِّهِمُ الخبيثةِ بأنواعِ البلاءِ فَلَقُوهُ وقد خَلُصَتْ سَبيكةُ إيمانِهِمْ فصَلُحُوا لرفعِ الدرجاتِ»(٤).

عليكَ بثَوبِ الصبرِ إذْ فيهِ ملبَسٌ فإنَّ ابْنَكَ المحمودَ بعدَ ابْنِكَ الصَّبْرُ(٥)

١٨ - المبتلى عزيزٌ على اللهِ:

فما أوحَشَ الرحمنُ ساحةَ عبدِهِ إذا عايَنَ الجُلَّى ومؤنِسُهُ الأجْرُ(٦)

---

(١) «مجاني الأدبِ» (٣/ ١٤).

(٢) «ديوانُ أبي تمَّامٍ» (٤٩٥).

(٣) (حَسَنٌ) أخرجهُ الترمذيُّ (٢٤٠٢)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ الجامعِ» (٨١٧٧).

(٤) «التيسيرُ بشرحِ الجامعِ الصغيرِ» (٢/ ٣٣٦).

(٥) «ديوانُ أبي تمَّامٍ» (٥٠).

(٦) «ديوانُ أبي تمَّامٍ» (٥٠٠).

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنَّ المُبتلىٰ عزيزٌ علىٰ الله يُؤكِّدُ ذلك حديثُ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله ﷻ يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدمَ مَرِضْتُ فلَمْ تَعُدْني. قال: كيفَ أعودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟

قال: أما عَلِمْتَ أنَّ عبدي فلانًا مَرِضَ فلَمْ تَعُدْهُ؟!

أما عَلِمْتَ أنكَ لو عُدْتَهُ لوجدْتني عندهُ»(١).

فتأمَّلْ إلىٰ هذا الشَّرَفِ العظيمِ وكيفَ أضافَ اللهُ ﷻ المَرَضَ لنفسِهِ تكريمًا للمريضِ ومواساةً له وتخفيفًا عن بلائِهِ وفوق ذلك هو ﷻ عندهُ، فمَنْ زارَ مريضًا أو عادَ مُبتلًىٰ فقد وَجَدَ اللهَ عنده، ألا ما أجملَ هذهِ المِنَّةَ وأعظمَ هذهِ المكافأةَ.

١٩ - فَضْلُ الحَمْدِ على البلاءِ:

فَاشْدُدْ علىٰ الحَمْدِ يدًا إنَّهُ ... إذا اسْتَحَسَّ العلقُ علقَ نفيسُ (٢)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاء أنَّ من ابْتلاهُ اللهُ فَحَمِدَهُ علىٰ البلاءِ فإنَّهُ يقومُ من مَضْجَعِهِ كيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ من الخطايا دَلَّ علىٰ ذلكَ حديثُ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا فَحَمِدَنِي عَلَىٰ مَا ابْتَلَيْتُهُ فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا. وَيَقُولُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي وَابْتَلَيْتُهُ فَأَجْرُوا لَهُ مَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ»(٣).

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٩).

(٢) ديوانُ أبي تمَّام (٥٩٨).

(٣) (حَسَنٌ) أخرجهُ أحمدُ (٤/ ١٢٣) وَحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٠٠).

فتأمَّلْ هذا الحديثَ وتدبَّرْهُ جهدَكَ فإنَّ فيه سلوةً لكُلِّ مبتلًى يرى في البلاءِ نعمةً وأيَّ نِعْمَةٍ.

ومن دُرَرِ ابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «لو عَلِمَ العَبْدُ أنَّ نعمةَ اللهِ عليه في البلاءِ ليستْ بدونِ نعمةِ اللهِ عليهِ في العافيةِ لَشَغَلَ قلبَهُ بشُكْرِهِ ولسانَهُ»(١).

ويُعجبني قولُ أبي العتاهيةِ:

كَمْ نعمةٍ لا يستقلُّ بشُكْرِها ... فيها طَيُّ المكارِهِ كامِنَةُ(٢)

٢٠ - في الصَّبْرِ على ما تكرَهُ خيرٌ كثيرٌ:

والحادِثاتُ وإنْ أصابَكَ بُؤسُها ... فهو الذي أنباكَ كيفَ نعيمُها(٣)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ خيرٌ كثيرٌ قد لا تعلمُهُ، فكثيرٌ من الناسِ إذا أُحْسِنَ تلقِّي البلاءِ عَلِمَ أنَّهُ نعمةٌ عليهِ ومِنحةٌ لا مِحْنَةٌ.

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ: «معصيةٌ تُقْبِلُ بها على اللهِ خيرٌ لَكَ من نعمةٍ تُنْسِيكَ ذِكْرَ اللهِ»(٤).

وكان ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ يَعُدُّ سِجْنَهُ نعمةً عليه تَسَبَّبَ فيها أعداؤُهُ.

قال ابنُ القيِّمِ: «وقال لي مَرَّةً - يعني شيخَ الإسلامِ - ما يَصْنَعُ أعدائي بي!! أنا جَنَّتي وبُستاني في صَدْرِي، أينَ رُحْتُ فهي معي لا تفارِقُني، إنَّ حَبْسِي خَلْوَةٌ، وقَتْلي شهادةٌ، وإخراجي من بلدي سِياحةٌ».

---

(١) «طريقُ الهجرتين» (٤٩٦).

(٢) أحسنُ ما سمعتُ (٨).

(٣) التذكرةُ الحمدونيةُ (٩/ ٢٤٠).

(٤) عباراتٌ والتفاتٌ لابنِ تيميةَ (٧).

ة صوتيا بـ CamScanner

وكان يقولُ في محبسِهِ في القلعةِ: لو بذلتُ ملءَ هذه القلعةِ ذهبًا ما عدلَ عندي شُكرَ هذهِ النعمةِ أو قال: ما جزيتُهم على ما تسبَّبوا لي فيه من الخيرِ ونحوَ هذا.

وكان يقولُ في سجودِهِ وهو محبوسٌ: اللهمَّ أعِنِّي على ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عبادتِكَ ما شاء اللهُ، وقال لي مرةً: المحبوسُ مَنْ حُبِسَ قلبُهُ عن ربِّهِ تعالى، والمأسورُ مَنْ أسَرَهُ هواهُ، ولمَّا دخلَ إلى القلعةِ وصار داخلَ سُورِها نظرَ إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾، وعَلِمَ اللهُ ما رأيتُ أحدًا أطيبَ عَيْشًا منه قطُّ، مع كُلِّ ما كان فيه من ضيقِ العَيْشِ، وخلافِ الرفاهيةِ والنَّعيمِ، بل ضِدُّها، ومعَ ما كان فيه مِن الحَبْسِ والتَّهديدِ والإرهاقِ، وهو مع ذلك من أطيبِ الناسِ عَيْشًا، وأشرحِهِمْ صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرِّهم نفسًا، تلوحُ نَضرَةُ النعيمِ على وجهِهِ، وكُنَّا إذا اشتدَّ بنا الخوفُ، وساءتْ مِنَّا الظُّنونُ، وضاقتْ بنا الأرضُ، أتيناهُ فما هو إلَّا أنْ نراهُ ونَسْمَعَ كلامَهُ فيذهبُ ذلك كُلُّهُ، وينقلبُ انشراحًا وقوةً ويقينًا وطُمأنينةً، فسبحانَ من أشهدَ عبادَهُ جنَّتَهُ قبلَ لقائِهِ، وفتحَ لهم أبوابَها في دارِ العملِ، فأتاهم من رُوحِها ونسيمِها وطيبِها ما استفرغَ قُواهم لِطَلَبِها والمسابقةِ إليها»[1].

لا تكرهِ المكروهَ عندَ نزولِهِ ... إنَّ المكارهَ لم تزلْ متباينةْ

كم نعمةٍ لم تستقلَّ بشُكرِها ... هُوَ في طيِّ المكارهِ كامنةْ[2]

٢١ - أنَّ ابتلاءَ المؤمنِ كالدَّواءِ له:

إذا أنتَ لم تعلمْ طبيبكَ كلُّ ما ... يسوؤكَ أبعدتَ الدواءَ عنِ السقمْ[3]

---

(١) «الوابل الصيب» (ص١٠٢).

(٢) «الآداب الشافعة» (٢٥).

(٣) «مجاني الأدب في حدائق العرب» (٣/ ٦٥).

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّراءِ أنَّهُ للمؤمنِ كالدواءِ يَسْتَخْرِجُ منه الأدواءَ فَيَبْقَى اللهُ ﷻ وليسَ عليهِ ذَنْبٌ.

فعن أنسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ الخيرَ عجَّلَ له العُقوبةَ في الدُّنيا، وإذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ الشَّرَّ أمسكَ عنه بذنبِهِ حتى يُوافيَ بِهِ يومَ القيامةِ»(١).

يقولُ المناويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «(عجَّلَ) بالتشديدِ أسرعَ (لَهُ العُقوبةَ) بِصَبِّ البلاءِ والمصائبِ عليه (في الدنيا) جزاءً لما فَرَّطَ منه من الذنوبِ، فيَخرُجُ منها وليسَ عليه ذنبٌ يُوافي به يومَ القيامةِ»(٢).

ويقولُ الإمامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «ابتلاءُ المؤمنِ كالدواءِ له، يُستَخرَجُ منه الأدواءُ التي لو بَقِيَتْ فيه أهلَكَتْهُ أو نَقَصَتْ ثوابَهُ وأنزلَتْ درجَتَهُ، فيَستَخرِجُ الابتلاءُ والامتحانُ منه تلكَ الأدواءَ، ويَستَعِدُّ به لتمامِ الأجرِ وعُلُوِّ المنزلةِ»(٣).

٢٢ - فضلُ مَن ابتُلِيَ بعَينَيْهِ فصبَرَ:

إنْ يأخُذِ اللهُ مِن عَيْنَيَّ نورَهما ... ففي لِساني وقلبي منهما نُورُ(٤)

ومن فضلِ الابتلاءِ بالضَّراءِ أنَّهُ مَن ابتلاهُ اللهُ بِفَقْدِ البصرِ فصبَرَ عَوَّضَهُ اللهُ الجنَّةَ وهذا عامٌّ لِكُلِّ مَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ فَصَبَرَ واحْتَسَبَ دَلَّ على ذلكَ حديثُ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إنَّ اللهَ قالَ: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ بِهِمَا الجَنَّةَ»(٥).

---

(١) رواهُ الترمذيُّ (٢٣٩٦)، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٠٨).

(٢) فيضُ القديرِ (١/ ٢٥٨).

(٣) إغاثةُ اللهفانِ (٢/ ١٨٨).

(٤) «الحلةُ السيراءُ» (١/ ٢٣) والقائلُ ابنُ عباسٍ ﷺ بعدَ ذهابِ بَصَرِهِ.

(٥) رواهُ البخاريُّ (٥٦٥٣).

ة صوبا بـ CamScanner

قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قولُهُ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ» بِالتَّثْنِيَةِ، وَقَدْ فَسَّرَهُمَا آخِرَ الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: «يُرِيدُ عَيْنَيْهِ» وَلَمْ يُصَرِّحْ بِالَّذِي فَسَّرَهُمَا، وَالْمُرَادُ بِالْحَبِيبَتَيْنِ الْمَحْبُوبَتَانِ لِأَنَّهُمَا أَحَبُّ أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ إِلَيْهِ، لِمَا يَحْصُلُ لَهُ بِفَقْدِهِمَا مِنَ الْأَسَفِ عَلَى فَوَاتِ رُؤْيَةِ مَا يُرِيدُ رُؤْيَتَهُ مِنْ خَيْرٍ فَيُسَرُّ بِهِ، أَوْ شَرٍّ فَيَجْتَنِبُهُ.

وقَوْلُهُ: (فَصَبَرَ) وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَصْبِرُ مُسْتَحْضِرًا مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ الصَّابِرَ مِنَ الثَّوَابِ، لَا أَنْ يَصْبِرَ مُجَرَّدًا عَنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَابْتِلَاءُ اللهِ عَبْدَهُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَ مِنْ سُخْطِهِ عَلَيْهِ بَلْ إِمَّا لِدَفْعِ مَكْرُوهٍ أَوْ لِكَفَّارَةِ ذُنُوبٍ أَوْ لِرَفْعِ مَنْزِلَةٍ، فَإِذَا تَلَقَّى ذَلِكَ بِالرِّضَا تَمَّ لَهُ الْمُرَادُ.

قَوْلُهُ: (عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ) وَهَذَا أَعْظَمُ الْعِوَضِ؛ لِأَنَّ الِالْتِذَاذَ بِالْبَصَرِ يَفْنَى بِفَنَاءِ الدُّنْيَا وَالِالْتِذَاذَ بِالْجَنَّةِ بَاقٍ بِبَقَائِهَا، وَهُوَ شَامِلٌ لِكُلِّ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ بِشَرْطِ الْمَذْكُورِ وَإِلَّا فَمَتَى تَضَجَّرَ وَتَقَلَّقَ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ ثُمَّ يَئِسَ فَيَصْبِرُ لَا يَكُونُ حَصَلَ الْمَقْصُودُ[1].

ويُعجبني قولُ بَشَّارٍ وهو الذي وُلِدَ أَعْمَى:

عَمِيتُ جَنِينًا والذكاءُ من العَمَى ... فجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ للعلمِ مَوْئِلا

وغاضَ ضياءُ العينِ للعلمِ رافِدًا ... لِقلبٍ إذا ما ضَيَّعَ الناسُ حَصَّلا

وَبِشْعْرٍ كَنُورِ الرَّوْضِ لامَسْتُ نَظْمَهُ ... بقولٍ إذا ما أَحْزَنَ الشِّعْرُ أَسْهَلا[2]

---

(١) فَتْحُ الباري لابنِ حَجَرٍ - (١٦/ ١٨٦) باختصارٍ.

(٢) ديوانُ بَشَّارٍ (٩٧٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٢٣ - فضل من احتسب حبيبًا أو عزيزًا:

تُحَلُّ الذنوبَ فإنَّ اللهَ يغفرُها ... إنْ شَيَّعَ المرءَ إخلاصٌ وإيمانُ[١]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ عند فَقْدِ حبيبٍ أو عزيزٍ وشَيَّعَ ذلك صَبْرٌ واحتسابٌ فليسَ له ثوابٌ دونَ الجَنَّةِ.

دلَّ على ذلك حديثُ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقولُ اللهُ ﷻ: ما لِعبدي المؤمنِ عندي جزاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ[٢] من أهلِ الدنيا ثمَّ احتَسَبَهُ، إلَّا الجَنَّةُ»[٣].

ويُعجبُني قولُ أعرابيةٍ مِنْ بني كِلابٍ وقد ماتَ ابنٌ لها:

هو ابني وأنَّى أجْرَهُ لي وعزَّني ... على نفسِهِ ربٌّ إليَّ ولاؤها

فإنْ أحتسِبْ أُؤجَرْ وإنْ أبكِهِ أكُنْ ... كباكيةٍ لم يُغْنِ شيئًا بكاؤها[٤]

٢٤ - فضلُ الصَّبْرِ على مَوْتِ الأولادِ:

وإنَّما أولادُنا بيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرضِ[٥]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ ما جاءَ في فضلِ الصَّبْرِ على مَوتِ الأولادِ:

عَنْ حُمَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا رضي الله عنه يَقُولُ: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ

---

(١) رسائلُ الثعلبي (٤٤).

(٢) صَفِيَّه: أيْ حبيبهُ من ولدٍ أو والدٍ أو نحوِه.

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦٠٦٠).

(٤) «العِقْدُ الفريدُ» (٣/ ١٧٧).

(٥) «أدبُ العُقُولِيَّة» (٣٤).

يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ فَقَالَ: «وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ أَوْ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَمُوتُ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلَّا أَدْخَلَهُمَا اللهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمُ الْجَنَّةَ». قَالَ: «يُقَالُ لَهُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَيَقُولُونَ حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا فَيُقَالُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ»(٢).

وعَنْ أُمِّ سُلَيْمٍ بِنْتِ مِلْحَانَ - وَهِيَ أُمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنهما قَالَ مُحَمَّدٌ أَخْبَرَتْهُ - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَمُوتُ لَهُمَا ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلَّا أَدْخَلَهُمَا اللهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ». قَالَتْهَا ثَلَاثًا قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَاثْنَانِ قَالَ: «وَاثْنَانِ»(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَتِ امْرَأَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِصَبِيٍّ لَهَا فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ لَهُ فَلَقَدْ دَفَنْتُ ثَلَاثَةً. قَالَ: «دَفَنْتِ ثَلَاثَةً». قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «لَقَدِ احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ(٤) شَدِيدٍ مِنَ النَّارِ»(٥).

ويعجبني قولُ أبي الحَسَنِ التهاميّ رَحِمَهُ اللهُ يرثي وَلَدَهُ:

أَبْكِيهِ ثُمَّ أَقُولُ مُعْتَذِرًا لَهُ ... وَوُقُوفُ حِينَ تَرُحْتُ أَلْأَمُ دَارِ

---

(١) صحيحُ البخاريّ (٣٩٨٢).

(٢) (صحيحٌ) سُنَنُ النسائي (١٨٨٧) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٧٨٠).

(٣) (صحيحٌ) مُسْنَدُ أحمدَ (٢٨٧٩١) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٧٧٦).

(٤) الاحتظارُ فِعْلُ الحِظار، أراد لقد احتميت بحِمًى عظيم من النار يقيك حرَّها ويؤمِّنُك دخولها. «النهاية»: ١/ ٤٢٩.

(٥) رواهُ مُسْلِمٌ (٢٦٣٦).

جاورتُ أعدائي وجاورَ ربَّهُ ... شتّانَ بينَ جواريهِ وجواري[١]

٢٥ - معرفةُ قَدْرِ العافية:

قد ذُقتُ أنواعَ الطُّعومِ فلَمْ أجِدْ ... فيهنَّ طعمًا مثلَ طَعْمِ العافيةْ[٢]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّراءِ معرفةُ قَدْرِ العافية.

فالإنسانُ لا يعرفُ قَدْرَ النعمةِ إلا بعد ذهابِها منه لهذا يُذكِّرُنا نبيُّنا ﷺ بمعرفةِ قَدْرِ العافية بقولِه: «مَن أصْبَحَ مُعافًى في بَدَنِهِ آمِنًا في سِرْبِهِ عندَه قُوتُ يومِهِ فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا»[٣].

ويوصي عَمَّهُ العباسَ رضي الله عنه بقولِه: «يا عباسُ يا عَمَّ رسولِ اللهِ! سَلِ اللهَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ»[٤].

ومِنْ وصايا السَّلَفِ وصيةُ صالحٍ الدمشقيِّ لابنِهِ - رحمهما اللهُ -: «يا بُنَيَّ إذا قَرُبَ منك يومٌ وليلةٌ قد سَلِمَ فيها دينُك وجِسْمُك، ومالُك وعيالُك فأكثِرِ الشُّكْرَ لله تعالى، فكَمْ من مسلوبٍ دينُهُ، ومنزوعٍ مُلكُهُ، ومَهْتوكٍ سِتْرُهُ، ومغصومٍ ظهرُهُ في ذلك اليومِ وأنتَ في عافيةٍ».

ومن لطائفِ ابنِ عساكرَ رحمه الله أنَّهُ عَقَّبَ على قولِ صالحٍ الدمشقيِّ بعد إيرادِهِ هذهِ الوصيةَ له بقولِه:

---

(١) «الحماسةُ المغربيةُ» (١/ ٨٦٩).

(٢) «ديوانُ ابنِ الرومي» (٦٩٩٦).

(٣) (حَسَنٌ لغيرِه) أخرجهُ ابنُ حبانَ في «صحيحِه» (٧٧٩) عن أبي الدرداءِ وقالَ الألبانيُّ في «الصحيحةِ» (٢٣١٨): حَسَنٌ لغيرِه.

(٤) (صحيحٌ) أخرجهُ الترمذيُّ (٣٥٨٩) عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رضي الله عنهما وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ الجامعِ» (٧٩٣٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

لو أنني أعطيتُ سؤلي لما ... سألتُ إلا العفوَ والعافية
فكمْ فتى قد باتَ لي نعمةٍ ... قَلَّ منها الليلةَ الثانية[١]

وقال ابنُ الروميِّ رَحِمَهُ اللهُ وأحسنَ:

إذا جُدِّدَتْ نعمةٌ لامرئٍ ... فتكميلها جِدَّةُ العافيةْ
وبالشُّكرِ قُدِّرَ تجديدُها ... ولو بعدَ يدٍ ثافيةْ
ولو صُفِّيتْ كان أصفى لها ... ولكنَّ دُنيا الفتى جافيةْ[٢]

٢٦ - مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصِبْ منه:

فالحمدُ للهِ على كُلِّ ما ... أَوْلَى وأَبْلَى ولِرَبِّي الشُّكورْ[٣]

من فضائلِ الابتلاءِ بالضراءِ أنه لا يَنْزِلُ إلا بمَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يَبْتليه بالمصائبِ لِيُثيبَهُ عليها.

دلَّ على ذلك حديثُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصِبْ مِنْهُ»[٤].

٢٧ - إظهارُ حقائقِ الناسِ:

سوفَ يأتي يومٌ به تتجلَّى ... واضحاتٍ حقائقُ وسرائرْ[٥]

---

(١) تاريخُ دمشقَ لابنِ عساكرَ (٢٣/ ٣٢٥) برقم (٢٣٠١٨).
(٢) «ديوانُ ابن الرومي» (٤٩٩٧).
(٣) «الأغاني» (٢٠/ ٣٧٥).
(٤) رواهُ البخاريُّ (٥٦٤٥).
(٥) «ديوانُ أحمدَ سحنون» (٢/ ٢٠).

ضوئيا بـ CamScanner

من فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ إظهارُ الناسِ على حقائقِهم ومعادِنِهم فَجُلُّ الناسِ لا يُعرَفُ فضلُهم إلا في المِحَنِ.

فَعَقِبَ الإسراءِ والمعراجِ افتُتِنَ ناسٌ لِعَدَمِ تحمُّلِهِمْ وَقْعَ الخَبَرِ لضعفِ يقينِهم وثَبَتَ آخرون منهم الصِّدِّيقُ.

فعن أبي سَلَمَةَ قال: افْتُتِنَ ناسٌ كثيرٌ بعدَ عقبَ الإسْرَاءِ فجاءَ ناسٌ إلى أبي بكرٍ فذكَرُوا لهُ فقالَ أشهدُ أنَّهُ صادِقٌ فقالُوا: وتُصدِّقُهُ بأنَّهُ أتى الشَّامَ في ليلةٍ واحدةٍ ثُمَّ رَجَعَ إلى مكَّةَ.

قالَ: نعمْ إنِّي أُصدِّقُهُ بأبعدَ مِنْ ذلكَ أُصدِّقُهُ بخبرِ السَّماءِ قالَ: فَسُمِّيَ يومئذٍ الصِّدِّيقَ»[1].

كَمْ بِدْءٍ كَشَفَتْ مَعَادِنَ أَهْلِهَا ... إِنَّ الشَّدَائِدَ لِلْوَرَى غِرْبَالُ

وقالَ أبو العتاهية:

أَلَا إِنَّمَا الإِخْوَانُ عِنْدَ الحَقَائِقِ ... وَلَا خَيْرَ فِي وُدِّ الصَّدِيقِ المُمَاذِقِ

لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ مِنَ العَيْشِ كُلِّهِ ... أَقَرُّ لِعَيْنِي مِنْ صَدِيقٍ مُوَافِقِ

وَكُلُّ صَدِيقٍ لَيْسَ فِي اللهِ وُدُّهُ ... فَإِنِّي بِهِ فِي وُدِّهِ غَيْرُ وَاثِقِ

أُحِبُّ أَخًا فِي اللهِ مَا صَحَّ دِينُهُ ... وَأُفْرِشُهُ مَا يَشْتَهِي مِنْ خَلَائِقِي[2]

٢٨ - استخراجُ عبوديَّةِ الدُّعاءِ:

دَعَوْتُكَ بَعْدَمَا عَظُمَتْ ذُنُوبِي ... وَضَاعَ العُمْرُ فَاسْتَجِبِ الدُّعَاءَ[3]

---

(١) (صحيحٌ) أخرجهُ البيهقي في الدلائلِ (٧/ ٩٩) وصحَّحهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٠٦).

(٢) «ديوانُ أبي العَتَاهِيَة» (١٣٣).

(٣) «دواوينُ الشعرِ العربي» (٨٣/ ٢٨٤).

ومن فضائل الابتلاء بالضَّرَّاءِ أنَّهُ يستخرج عبودية الدعاء فيدعو العبد ربه ويَرْجُو رَحْمَتَهُ وسبحان مُسْتَخْرِجِ الدعاءِ بالبلاءِ والتضرع بالأَوَاءِ[1].

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٥١].

فذو دُعَاءٍ عريضٍ: أيْ فَهُوَ ذُو دُعَاءٍ بإزَالَةِ الشَّرِّ عَنْهُ وكَشْفِ ضرِّهِ كثير مُسْتَمِر.

والعرب تستعملُ الطولَ والعَرْضَ في الكَثْرَةِ[2].

٢٩ - استخراجُ عبوديَّةِ الشُّكْرِ:

كَم نعمةٍ لا يستقلُّ بشكرِها ... لِلَّهِ في طَيِّ المكارِهِ كامنةْ[3]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ استخراجُ عبوديَّةِ الشُّكْرِ، فإنَّ العبدَ إذا ابتُلِيَ بعد الصِّحَّةِ بالمرضِ وبعد العافيةِ بالدَّاءِ تاقَتْ نَفْسُهُ إلى الصِّحَّةِ والعافيةِ فيأتي الابتلاءُ لاستخراجِ عبوديَّةِ الشُّكْرِ التي ارتضاها اللهُ لعبادِهِ وحَثَّهُم عليها.

قال اللهُ ﷻ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال اللهُ ﷻ: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

إذا كانَ شُكري نعمةَ اللهِ نعمةً ... عليَّ لهُ في مِثْلِها يَجِبُ الشُّكْرُ

---

(١) اللأْوَاءُ: ضِيقُ المعيشةِ وشِدَّةُ المَرَضِ.

(٢) انظر «البحرُ المحيطُ في التفسيرِ» (٩/ ٣٦٦).

(٣) «أحسنُ ما سمعتُ» لأبي منصورٍ الثعالبي (٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

فكيفَ بلوغُ الشُّكرِ إلا بفضلِهِ وإنْ طالتِ الأيامُ واتَّصلَ العُمرُ[١]

٣٠- الرحمةُ بالعُصاةِ:

إنَّ المعاصي لا تُقيمُ بمَنزِلٍ إلَّا لِتَجعَلَ مِنهُ قاعًا صَفصَفًا[٢]

ومن فضائل الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ الرحمةُ بالعُصاةِ بأنْ يُعَجَّلَ لهم العقوبةُ تخفيفًا عنهم فيأتون القيامةَ خِفافًا من الذنوبِ.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ كمَثَلِ الزَّرعِ لا تَزالُ الريحُ تُمِيلُهُ، ولا يزالُ المؤمنُ يُصِيبُهُ البلاءُ. ومَثَلُ المُنافِقِ كمَثَلِ شجرةِ الأَرْزِ[٣]، لا تهتزُّ حتى تُستَحصَدَ»[٤].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ الخيرَ عجَّلَ لهُ العُقوبةَ في الدُّنيا وإذا أرادَ اللهُ بعبدِه الشَّرَّ أمسَك عنه بذنبِهِ حتَّى يُوافِيَهُ به يومَ القيامةِ»[٥].

٣١- أنَّهُ طريقٌ للإمامةِ في الدِّين:

ما عُوِّضَ الصَّبرَ امرءٌ إلا رأى ما فاتَهُ دُونَ الَّذي قَدْ عُوِّضا[٦]

---

(١) «المرجعُ السابقُ» (٧).

(٢) «ديوانُ الإلبيري» (٤٤).

(٣) شجرةُ الأَرْزِ: هي التي تُسمَّى بالعراقِ: الصُّنُوبَرَ وهي ثابتةٌ في الأرضِ لا تهتزُّ حتى تُستَحصَدَ.

(٤) رواهُ البخاريُّ (٥٦٤٤)، ومُسلِمٌ (٢٨٠٩).

(٥) (صحيحٌ) أخرجهُ الترمذيُّ (٢٣٩٦)، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٠٨).

(٦) «ديوانُ أبي تمَّام» (٥٦٨).

ومن فضائلِ الابتلاء بالضَّرَّاء:

أنَّ الابتلاءَ طريقُ العِزِّ والتَّمكينِ لا طريقَ غيرُها وتأمَّلْ إلى قول المولى ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأخبرَ تعالى أنَّهُ جَعَلَهُمْ أئمةً يأتمُّ بهم مَنْ بعدَهم لِصَبْرِهم ويقينِهم، إذ بالصَّبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدين»(١).

وسألَ سائلٌ الشافعيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: يا أبا عبدِ اللهِ أيُّما أفضلُ للرَّجُلِ: أنْ يُمكَّنَ أو أنْ يُبتلى؟

فقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يُمكَّنُ حتى يُبتلى، فإنَّ اللهَ ابتلى نوحًا، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى، ومحمدًا - صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم - فلمَّا صبروا مكَّنَهُمْ، فلا يَظُنُّ أحدٌ أنَّهُ يَخْلُصُ من الألمِ البتَّةَ»(٢).

وما أجملَ قولَ الشاعرِ:

كذا المعالي إذا ما رُمْتَ تُدْرِكُها ... فاعْبُرْ إليها على جِسْرٍ من التَّعَبِ

وقال المتنبي وأحْسَنَ:

تُريدين إدْراكَ المعالي رَخِيصَةً ... ولا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إبَرِ النَّحْلِ

٣٢ - أنَّهُ نعمةٌ من اللهِ على عبدِهِ:

وإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبارًا ... تَعِبَتْ في مُرادِها الأجْسامُ(٣)

---

(١) «أعلامُ الموقعين» (٤/ ١٠٣).

(٢) «الفوائد» لابن القيِّم (١٠٨).

(٣) شَرْحُ ديوانِ المتنبي للواحدي (١٩٣).

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ

الابتلاءُ نعمةٌ من اللهِ علىٰ عَبدِهِ ليُتِمَّ له الخَيرَ ويضاعِفَ له الأجرَ ويُظهِرَ صَبرَهُ ورضاه وعلىٰ قَدْرِ إيمانِ المَرْءِ يكونُ بلاؤه.

فعن سعيدِ بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ أيُّ الناسِ أشدُّ بَلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثُمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ، فيُبتَلَىٰ الرَّجُلُ علىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فإنْ كان دِينُهُ صُلْبًا اشتَدَّ بَلاؤُهُ، وإنْ كان في دِينِهِ رِقَّةٌ، ابتُلِيَ علىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فما يَبرَحُ البَلاءُ بالعَبدِ حتىٰ يتركَهُ يمشي علىٰ الأرضِ وما عليه خَطيئةٌ»[1].

قال المناويُّ رحمه الله: «لأنَّ البلاءَ في مقابلةِ النِّعمةِ، فمَنْ كانت نعمةُ اللهِ عليه أكثرَ، فبلاؤه أشدُّ، ولهذا ضُوعِفَ حَدُّ الحُرِّ علىٰ العَبدِ، فهم مُعَرَّضُونَ لِلْمِحَنِ والمصائبِ وطروقِ المُنَغِّصاتِ والمتاعِبِ»[2].

عَلَى قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تأتي خُطُوبُهُ ... ويُحْمَدُ مِنْهُ الصَّبْرُ مما يُصيبُهُ

فَمَنْ قَلَّ فيما يَتَّقِيهِ اضْطِبَارُهُ ... لَقَدْ قَلَّ فيما يَرْتَجِيهِ نَصِيبُهُ[3]

٣٣- أنَّهُ سَبَبٌ لدخولِ الجَنَّةِ:

وقَلَّ مَنْ جَدَّ في شَيءٍ يُطالِبُهُ ... فاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلا فازَ بالظَّفَرِ[4]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنَّ الصبرَ علىٰ بلايا الدنيا يُورِثُ الجَنَّةَ دَلَّ علىٰ

---

(١) (صحيحٌ) أخرجهُ الترمذيُّ (٢٣٩٨)، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٩٩٢).

(٢) فيض القدير (١/ ٥١٨).

(٣) «جواهر الأدب» (٧١١).

(٤) الأمِلُ والمأمولُ للجاحظِ (٦).

ضوئيا بـ CamScanner

ذلك حديثُ عَطَاءَ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي. قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ». فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا[1].

قال الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي الْحَدِيثِ فَضْلُ مَنْ يُصْرَعُ، وَأَنَّ الصَّبْرَ عَلَىٰ بَلَايَا الدُّنْيَا يُورِثُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ الْأَخْذَ بِالشِّدَّةِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَخْذِ بِالرُّخْصَةِ لِمَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ الطَّاقَةَ وَلَمْ يَضْعُفْ عَنِ الْتِزَامِ الشِّدَّةِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ تَرْكِ التَّدَاوِي، وَفِيهِ أَنَّ عِلَاجَ الْأَمْرَاضِ كُلِّهَا بِالدُّعَاءِ وَالِالْتِجَاءِ إِلَى اللهِ أَنْجَعُ وَأَنْفَعُ مِنَ الْعِلَاجِ بِالْعَقَاقِيرِ، وَأَنَّ تَأْثِيرَ ذَلِكَ وَانْفِعَالَ الْبَدَنِ عَنْهُ أَعْظَمُ مِنْ تَأْثِيرِ الْأَدْوِيَةِ الْبَدَنِيَّةِ، «وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْجَحُ بِأَمْرٍ بَيْنَ أَحَدُهُمَا مِنْ جِهَةِ الْعَلِيلِ وَهُوَ صَدْقُ الْقَصْدِ الْآخَرُ مِنْ جِهَةِ الْمُدَاوِي وَهُوَ قُوَّةُ تَوَجُّهِهِ وَقُوَّةُ قَلْبِهِ بِالتَّقْوَىٰ وَالتَّوَكُّلِ وَاللهُ أَعْلَمُ»[2].

---

(١) صحيحُ البخاري (٥٦٥٢) وَمُسْلِمٍ (٦٧٣٦).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ١١٥).

ة ضوئيا بـ CamScanner

آداب الابتلاء بالضراء

يُعْلِي التَّأَدُّبُ أقوامًا ويرفَعُهم ... حتى يُساووا ذوي العلياءِ في الرُّتَبِ(١)

للابتلاءِ بالضَّرَّاءِ آدابٌ الحديثُ عنها ذو شُعَبٍ فمن آدابِ الابتلاءِ ما يأتي:

١ - اليقينُ:

وقد كُنْتُ في ليلٍ من الشَّكِّ مظلمٍ ... إلى أنْ بدا صُبْحُ اليقينِ فأسفرا(٢)

المؤمنُ على يقينٍ بأنَّ هناكَ حياةً أُخرى خاليةً من الهَمِّ والأكدارِ لا يَفْنَى نعيمُها ولا يَبِيدُ أهلُها.

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧].

وأنَّ هذهِ المِحْنَةَ بَلِ المِحَنَ مهما طالَتْ فإلى انفراجٍ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وأنَّ الابتلاءَ لا بُدَّ منه فهو سُنَّةٌ ماضيةٌ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

فإذا ما ذاقَ المرءُ المسلمُ حلاوةَ اليقينِ كان البلاءُ أحبَّ إليه من العافيةِ لما يَجِدُهُ من حَمْدِ العاقبةِ.

فعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَيَوَدَّنَّ أهلُ العافيةِ يومَ

---

(١) «زهرةُ الأكمِ» (١/ ٢٣١).

(٢) «الصبحُ المنهيُّ عن حيثيَّةِ المتنبي» (١/ ٣٧٥).

القيامة أنَّ جلودهم قُرِضَتْ بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء»[١].

يـا همـوم الحيـاة إنَّ فـؤادي ... لا يبالـيك فالـعسري أو تمـام

إنَّـني في سكينةٍ من هدى الدِّيـ ... ـنِ ونورُ اليقين أعسري وزادي[٢]

٢ - الصَّبْرُ:

خليلَـيَّ إنَّ الـدَّهْرَ مـا تَرَيانِـهِ ... فصبرًا وإلَّا أيُّ شيءٍ سِوَى الصَّبْرِ[٣]

الصَّبْرُ وما أدراكَ ما الصبرُ هو كما عَرَّفَهُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَبْسُ النَّفْسِ عن التَّسَخُّطِ بالمقدورِ، وحَبْسُ اللسانِ عن الشَّكْوى، وحَبْسُ الجوارحِ عن المعصيةِ كاللَّطْمِ وشقِّ الثيابِ ونَتْفِ الشَّعْرِ ونحوِهِ، فمَدَارُ الصبرِ على هذه الأركانِ الثلاثةِ، فإذا قام بِهِ العبدُ كما ينبغي انقلبتِ المِحْنَةُ في حَقِّهِ مِنْحَةً، واستحالتِ البليَّةُ عطيَّةً، وصار المكروهُ محبوبًا، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَبْتَلِهِ ليُهْلِكَهُ، وإنما ابْتَلاهُ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وعُبُودِيَّتَهُ»[٤].

والصبرُ ليس من آدابِ الابْتِلاءِ فقط بَلْ واجبٌ في كُلِّ ما يصيبُ المُسْلِمَ.

قال ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصَّبْرُ واجبٌ بإجماعِ العُلَماءِ»[٥] والحديثُ عن الصبرِ ذو شجونٍ[٦] فمَنْزِلَتُهُ من الإيمانِ بمنزلةِ الرَّأسِ من الجَسَدِ»[٧].

---

(١) (حَسَنٌ) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٢٤٠٢)، وحَسَّنَه الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (٥٨٨٤).

(٢) «المذاهبُ الأدبيَّةُ» (١٢١).

(٣) «أشعارُ أولادِ الخُلَفاءِ» (١٨٥).

(٤) «الوابلُ الصَّيِّبُ» (١١).

(٥) «الفُرقانُ بينَ أولياءِ الرَّحمنِ وأولياءِ الشَّيطانِ» (٢٦٥).

(٦) انظرْ كتابَ «جُنَى اللُّبابِ فيما وَرَدَ في الصَّبْرِ والاحْتِسابِ» للزَّوجةِ الفاضلةِ أمةِ الرَّحمنِ الفقيهِ.

(٧) «الفوائدُ»: ٩٧.

ة ضوئيا بـ CamScanner

٣- الرضا:

هو الصَّبرُ والتسليمُ للَّهِ والرِّضا ... إذا نَزَلَتْ بي خِطَّةٌ لا أَشاؤها[١]

الرضا أدبٌ عظيمٌ من آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ، وهو أنْ ترضى عن اللهِ بكُلِّ ما قدَّرَ اللهُ وقضى وعَدَمُ التَّسَخُّطِ على مَرِّ القضاءِ عليك من الحوادثِ والأقدارِ كُلِّها خيرِها وشرِّها وأنَّ ما أصابَكَ لم يكنْ لِيُخطِئَكَ، وأنَّ ما أخطأكَ لم يكنْ لِيُصيبَكَ، وأن اللهَ هو الذي يُدَبِّرُ الأمرَ وبيدِهِ ملكوتُ كُلِّ شيءٍ، وأنَّهُ أرحَمُ بِكَ من نفسِكَ، وأعلَمُ بِكَ مِن نفسِكَ، وأنَّ ما أصابَكَ من مصيبةٍ فبما كَسَبَتْ يداكَ ويعفو عن كثيرٍ، وأنَّكَ عَبْدٌ مَملُوكٌ له تحتَ أمْرِهِ وقَهْرِهِ وقُدْرَتِهِ ومَشيئتِهِ وأنه لا يَحْدُثُ شيءٌ في الكونِ إلَّا بتَدبيرِهِ وتصريفِهِ[٢].

قال اللهُ ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

يعني: يَهْدي قلبَهُ لليقينِ، فيعلمُ أنَّ ما أصابَهُ لم يَكُنْ لِيُخطِئَهُ وما أخطأهُ لم يكنْ لِيُصيبَهُ[٣].

والرِّضا سببٌ لرِضا اللهِ عنَّا:

فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «... وإنَّ اللهَ - تعالى - إذا أحَبَّ قومًا ابتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[٤].

---

(١) «أحسنُ ما سمعتُ» (١).

(٢) انظُرْ كِتابي «جنَّةَ الرِّضا والتَّسليمِ لِمَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضى» ففيه ما يَمْلأُ الصَّدْرَ والنَّحرَ إنْ شاءَ اللهُ.

(٣) «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ» (٨/ ٨٨).

(٤) (حَسَنٌ) أخرَجَهُ التِّرمذيُّ (٢٣٩٦)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في صحيحِ الجامعِ (٢١١٠).

CamScanner ة ضوئيا بـ

ومَنْ فَتَحَ اللهُ عليه بابَ الرِّضا عنه في كُلِّ ما يُصِيبُهُ هانَتْ عليه المصائِبُ فلا يَحْفَلُ بها بَلْ يَسْتَرِيحُ إليها.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

«الرِّضا بابُ اللهِ الأعظمُ، وجَنَّةُ الدُّنْيا، ومُسْتَراحُ العارفين، وحياةُ المُحِبِّينَ، ونَعِيمُ العابدينَ، وقُرَّةُ عُيُونِ المُشْتاقِينَ»(١).

إذا اشْتَدَّتِ البَلْوَى تُخَفَّفُ بِالرِّضَا ... عن اللهِ قد فَازَ الرَّضِيُّ المُرَاقِبُ

وكم نِعْمَةٍ مَقْرُونَةٍ بِبَلِيَّةٍ ... على النَّاسِ تَخْفَى والبلايا مَوَاهِبُ(٢)

٤ - الشُّكْرُ:

الشُّكْرُ أَفْضَلُ ما حاوَلْتَ مُلْتَمِسًا ... بِهِ الزِّيادَةَ عندَ اللهِ والنَّاسِ(٣)

ومن آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ استحبابُ الشُّكْرِ على المُصيبةِ؛ لأنَّهُ فوقَ الرِّضا بها.

قال ابنُ القَيِّمِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ: «والمصائِبُ التي تَحُلُّ بالعَبْدِ، وليس لَهُ حيلةٌ في دَفْعِها، كَمَوْتِ مَنْ يَعُزُّ عليه، وسَرِقَةِ مالِهِ، ومَرَضِهِ، ونحوِ ذلك، فإنَّ للعبدِ فيها أَرْبَعَ مقاماتٍ:

أحدُها: مقامُ العَجْزِ، وهو مقامُ الجَزَعِ والشَّكوىٰ والسَّخَطِ، وهذا ما لا يفعلُهُ إلا أَقَلُّ الناسِ عَقلًا ودينًا ومروءةً.

المقامُ الثاني: مقامُ الصَّبْرِ، إمَّا لِلَّهِ، وإمَّا للمروءةِ الإنسانيَّةِ.

---

(١) «مدارجُ السالكينَ» (٢/ ١٧٢).

(٢) مجموعةُ القصائدِ الزُّهديَّةِ (١/ ٤٩١).

(٣) نهايةُ الأربِ (٣/ ٢٤٩).

ة ضوئيا بـ CamScanner

المقامُ الثالثُ: مقامُ الرِّضىٰ وهو أعلىٰ من مقامِ الصَّبْرِ، وفي وجوبِهِ نِزاعٌ، والصَّبْرُ مُتَّفَقٌ علىٰ وجوبِهِ.

المقامُ الرابعُ: مقامُ الشُّكْرِ، وهو أعلىٰ من مَقامِ الرِّضىٰ؛ فإنه يَشْهَدُ البليَّةَ نعمةً، فيشكُرُ المُبْتَلِي عليها»[1].

لِلَّـــهِ أَحْمَـــدُ شـــاكرًا ... فـــبلاؤهُ حَـــسَنٌ جميـــلُ
أصْـــبَحْتُ مـــسرورًا معًـــا ... في بـــينَ أنْعُمِـــهِ أجُـــولُ[2]

٥ - الحَمْدُ:

الحمـدُ لِلَّـهِ حَمْـدًا لـيس مُنْحَـصِرًا ... علـى أياديـهِ مـا يَخْفَـى ومـا ظَهَـرَا[3]

من آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنْ يَحْمَدَ اللهَ علىٰ مصيبتِهِ ويكونُ ذلك ساعةَ المصيبةِ لحديثِ أبي مُوسىٰ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ، قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ؟ نَعَمْ، فَيَقولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ، وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»[4].

ومع أنَّ هذا البابَ في آدابِ الابتلاءِ فهو في الفضائلِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ بشروطِهِ.

ومن دُرَرِ العلامةِ ابنِ القَيِّمِ رحمه الله قولُهُ: «مَا يُعْقِبُهُ الصَّبْرُ والِاحْتِسَابُ مِنَ اللَّذَّةِ

---

(١) «عُدَّةُ الصابرين» (٦٧).

(٢) «أَحْسَنُ ما سَمِعْتُ» (٨).

(٣) ديوانُ ابنِ مشرف (٢٩).

(٤) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ (١٠٢١) وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٧٩٥).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وَالْمَسَرَّةِ أَضْعَافُ مَا كَانَ يَحْصُلُ لَهُ بِبَقَاءِ مَا أُصِيبَ بِهِ لَوْ بَقِيَ عَلَيْهِ، وَيَكْفِيهِ مِنْ ذَلِكَ بَيْتُ الْحَمْدِ الذي بُنِيَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ عَلَىٰ حَمْدِهِ لِرَبِّهِ وَاسْتِرْجَاعِهِ، فَلْيَنْظُرْ: أَيُّ الْمُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ؟: مُصِيبَةُ الْعَاجِلَةِ أَوْ مُصِيبَةُ فَوَاتِ بَيْتِ الْحَمْدِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ»(١).

لَكَ الحمدُ يا اللهُ حَمْدًا مُخَلَّدًا ... على نعمٍ لم تُحْصَ عَدًّا فَتَنْفَدَا

فكَمْ نِعمةٍ أَوْلَيْتَنا بعدَ نعمةٍ ... وفتحٍ بِهِ قد صَحَّ مَنْ كان أَرْمَدَا

ونسألُهُ التوفيقَ للشُّكْرِ أَنَّهُ ... يكونُ لنَعْماءِ الإلهِ مُقَيِّدَا(٢)

٦ - محاسبةُ النَّفْسِ:

حَاسِبِ النَّفْسَ وعَلِّمْهَا الرِّضَا ... بالقضا واعْصِ هواها تَرْضَ لَكْ(٣)

المؤمنُ يحاسبُ نفسَهُ أولًا بأوَّلٍ، حتىٰ يتمكَّنَ من الوقوفِ علىٰ العيوبِ وهي لا تزالُ في بداياتِها فيسهُلُ علاجُها، والوقايةُ منها.

والأصلُ في محاسبةِ النفسِ قولُهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد دَلَّ علىٰ وجوبِ محاسبةِ النفسِ قولُه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ يقولُ تعالىٰ: لينظرْ أحدُكم ما قَدَّمَ ليومِ القيامةِ من الأعمالِ: أمِنَ الصالحاتِ تُنْجِيهِ أمْ من السَّيِّئاتِ التي تُوبِقُهُ؟ قال قتادةُ: ما زالَ ربُّكم يُقَرِّبُ الساعةَ حتىٰ جعلها كَغَدٍ. والمقصودُ أنَّ صلاحَ القلبِ

---

(١) زادُ المَعادِ (٤/ ١٨٩).

(٢) دِيوانُ ابنِ مُشْرِفٍ (١٢٠).

(٣) مَجْمُوعاتُ القَصائِدِ الزُّهْدِيَّاتِ (١/ ٥٢٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

بمحاسبةِ النفسِ وفسادِهِ بإهمالِها والاسترسالِ معها»[١].

صُنِ النَّفْسَ واحمِلْها على ما يزينُها ... تَعِشْ سالمًا والقولُ فيكَ جميلُ
ولا تُرِيَنَّ النَّاسَ إلا تجمُّلًا ... نأى بِكَ دهرٌ أو جفاكَ خليلُ[٢]

٧- الرجوع إلى الله:

اضرَعْ إلى الله لا تَضْرَعْ إلى النَّاسِ ... واقْنَعْ بِيَأسٍ فإنَّ العزَّ في اليَاسِ[٣]

من آدابِ الابْتِلاءِ بِالضَّرَّاءِ الرجوعُ إلىٰ الله واللجوء إِلَيْه قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

لَوْلَا هنا: للتنديم والتوبيخ علىٰ تركهم التضرع، مع وجود مقتضيه وانتفاءِ المانع منه.

والمعنىٰ: فَهلَّا - حين جاءَهم بأسُنا وَشِدَّتُنا - ابْتَهلُوا إِلَيْنَا خَاضِعِين مُسْتَغْفِرِين، ولَكِنَّهم استمرُّوا في قسوة قلوبهم، فلم يتزجروا بما بلوناهم به، ولم يتوجهوا إلينا بالدعاءِ والاستغفار. وزيَّن لهم الشَّيْطانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ مِن الشِّرْكِ وَالْمَعاصِي، وحَسَّنهُ إِلَيْهِم، فأقاموا عليه[٤].

٨- الاستقامة:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ لكِنْ ما ائْتَمَرْتُ بِهِ ... وما اسْتَقَمْتُ فما قولي لَكَ: اسْتَقِم[٥]

---

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ٨٤).
(٢) «الآدَابُ النَّافعةُ» (٢٧).
(٣) الأملُ والمأمُولُ (٩).
(٤) التَّفْسِيرُ الوسِيطُ (٣/ ١٤٤٠) لِمَجْمعِ البُحُوثِ.
(٥) «نِهَايَةُ الأربِ في فُنُونِ الأدَبِ» (٥/ ٢٣١).

ة صوتيا بـ CamScanner

الاستقامةُ كما عَرَّفها ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستقامةُ كلمةٌ جامعةٌ آخذةٌ بمجامعِ الدِّينِ وهي القيامُ بينَ يَدَيِ اللهِ علىٰ حقيقةِ الصِّدْقِ والوفاءِ بالعَهْدِ، والاستقامةُ تتعلَّقُ بالأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ والنِّيَّاتِ.

فالاستقامةُ فيها وقوعُها لِلَّهِ وباللهِ وعلىٰ أمرِ اللهِ»(١).

يريدُ بوقوعِها لِلَّهِ: الإخلاصَ، وباللهِ: الاستعانةَ، وعلىٰ أمرِ اللهِ لُزومَ الشريعةِ.

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعظَمُ الكرامةِ لزومُ الاستقامةِ»(٢).

فتأمَّلْ حُسْنَ التَّطَلُّعِ والتَّشَوُّقِ وكمالَ الإرادةِ، فالكرامةُ لزومُ الاستقامةِ حتىٰ الموتِ وهي أعظمُ مِنَّةٍ لِلَّهِ علىٰ عبدِهِ وأجلُّ نعمةٍ عليه.

قال اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠].

٩- الاستعانةُ:

إذا لـــم أســـتَعِنْ بِـــكَ يـــا إلهـــي ... فَمَـــنْ عَـــوني ســـواكَ ومَـــنْ مجيـــري(٣)

الاستعانةُ كما عَرَّفَها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستعانةُ طَلَبُ العَوْنِ من اللهِ، ويُطْلَبُ من المخلوقِ ما يَقْدِرُ عليه من الأمورِ»(٤).

قال اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (٢/ ١٠٦).

(٢) «المَرجعُ السَّابِقُ» (٢/ ١٠٦).

(٣) «دَواوينُ الشِّعرِ العَرَبِي» (٤٩/ ١٧).

(٤) «الفتاوىٰ» (١/ ١٠٣).

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال الله ﷻ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥].

قال ابنُ رجبٍ رحمه الله: العبدُ محتاجٌ إلى الاستعانةِ باللهِ في فِعْلِ المأموراتِ، وتَرْكِ المحظوراتِ والصَّبْرِ على المقدوراتِ كُلِّها في الدنيا وعند الموتِ وبعده من أهوالِ البَرْزَخِ ويومِ القيامةِ ولا يَقْدِرُ على الإعانةِ على ذلكَ إلا اللهُ ﷻ فمَنْ حقَّقَ الاستعانةَ عليه في ذلك كُلِّهِ أعانَهُ اللهُ»(١).

بـاللهِ ثِـقْ ولَـهُ أنِـبْ وَبِـهِ اسْـتَعِنْ ... فـإذا فَعَلْـتَ فَأَنْـتَ خَيْـرُ مُعَـانِ(٢)

١٠ - التَّوَكُّل:

توكَّـلْ علـى اللهِ في النَّائبـاتِ ... ولا تَبْـغِ فيهـا سِـواهُ بَـدِيلا(٣)

التوكُّلُ هو صِدْقُ الاعتمادِ على الله ﷻ في استجلابِ المصالحِ ودَفْعِ المَضَارِّ من أمورِ الدنيا والآخرةِ وكِلَةُ الأمورِ كُلِّها إليه، وتحقيقُ الإيمانِ بأنَّهُ لا يعطي ولا يمنعُ ولا يَضُرُّ ولا ينفعُ سِواهُ»(٤).

وهو أدبٌ عظيمٌ من آدابِ الابْتلاءِ فقد قيل: إذا وَصَلَتْ قوافِلُ القَضاءِ فاسْتَقْبِلْها بالتَّوَكُّلِ.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١].

---

(١) «جامعُ العلومِ والحِكَمِ» (١٨٢).

(٢) مجموعةُ القصائدِ الزُّهْدِيَّاتِ (١/ ١٦٢).

(٣) «أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ» (١٠).

(٤) «جامعُ العلومِ» (٤٠٩).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا نَصَبَتِ الأعداءُ حِبالاتِ المَكْرِ فادْخُلْ أنت في أرضِ التوكُّلِ:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

توكَّلْ على الرحمنِ في كلِّ حاجةٍ ... طَلَبْتَ فإنَّ اللهَ يقضي ويقدرُ

وقد يَهْلِكُ الإنسانُ من وَجْهِ أمْنِهِ ... ويَنْجُو بإذْنِ اللهِ من حيثُ يَحْذَرُ(١)

١١ - الصلاةُ:

تُصَلِّي كي تريحَ النَّفْسَ فيها ... وتنسى عندَها هَمَّ الحياةِ

من آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنْ يَفْزَعَ المسلمُ إلى الصلاةِ لقولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّهُ لمَّا نُعِيَ إليه ابنٌ لَهُ وهو في مَسيرٍ فنَزَلَ فصَلَّى ركْعَتَينِ ثم اسْتَرْجَعَ وقال: فعلْنا كما أمَرَنا اللهُ فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾(٢).

وعن حذيفةَ رضي الله عنه قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى»(٣).

وعن سالمِ بنِ أبي الجَعْدِ قال: قال رَجُلٌ: قال مسعرٌ أراهُ من خزاعةَ: ليتني صَلَّيتُ فاسْتَرَحْتُ فكأنَّهم عابوا عليه ذلك فقال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أَقِمِ الصلاةَ يا بلالُ أرِحْنا بها»(٤).

---

(١) «الأشباهُ والنظائرُ» (١٠).

(٢) الدُّرُّ المنثورُ في التفسيرِ بالمأثورِ للسيوطي (١/ ٣٥٨).

(٣) (حَسَنٌ) أخرجهُ أبو داودَ (١١٩٩) وَحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٧٠٣).

(٤) (صحيحٌ) أخرجَهُ أبو داودَ (٤٩٨٥)، وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (٧٨٩٢).

ة ضوئيا بـ CamScanner

١٢ - الصَّدَقَةُ:

يقولـــون مَعْـــنٌ لا زكـــاةَ لمالِـــهِ وكيفَ يُزَكِّي المالَ مَنْ هو باذِلُهْ؟!(١)

من آدابِ الابْتلاءِ بالضَّرَّاءِ أنْ يُكْثِرَ المرءُ فيه من الصَّدَقَةِ فإنها من أعظمِ الأمورِ التي تدفَعُ البلاءَ بإذْنِ اللهِ.

فعنِ الحارثِ الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: إنَّ اللهَ أوْحَىٰ إلىٰ يحيىٰ بنِ زكريَّا - عليهما السلام - بِخَمْسِ كلماتٍ أنْ يعملَ بِهِنَّ ويَأْمُرَ بني إسرائيلَ أنْ يعملوا بِهِنَّ فذكَرَ الحديثَ إلىٰ أنْ قال فيه: «... وآمُرُكم بالصَّدقَةِ ومَثَلُ ذلك كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العدوُّ فأوثقوا يَدَهُ إلىٰ عُنُقِهِ وقرَّبوهُ لِيَضْرِبوهُ فَجَعَلَ يقولُ: هَلْ لكم أنْ أفْدي نفسي منكم وجعل يُعطي القليلَ والكثيرَ حتىٰ فدىٰ نَفْسَهُ»(٢).

ويُعجبني قولُ حاتمٍ الطائيِّ:

وقائلـــةٍ أهلكـــتَ بـــالجُودِ مالَنـــا ونَفْسَكَ حتـــى ضَـــرَّ نَفْسَـــكَ جُودُهـــا
فقلـــتَ دعينـــي إنَّمـــا تِلْـــكَ عـــادتي لِكُـــلِّ كـــريمٍ عـــادةٌ يَسْـــتعيدُها(٣)

١٣ - الاستغفارُ:

أَســـتغفرُ اللهَ مـــن تَركـــي وإخْلالِـــي وَهَفْـــوَةٍ خطـــرتْ منـــي علـــى بـــالي(٤)

---

(١) «سَمْطُ اللآلي في شرحِ أمالي القالي» (١/ ٩٥١).

(٢) (صحيحٌ) أخرجهُ الطبراني في الكبيرِ (٣/ ٢٨٧) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الترغيبِ والترهيبِ» (٨٧٧).

(٣) «أشعارُ الشعراءِ الجاهليين» (١١٤).

(٤) ديوانُ الخفاجي (٢٤٩).

ة ضوئيا بـ CamScanner

من آدابِ الأبتلاءِ بالضَّرَّاءِ لزومُ الاستغفار؛ لأنَّ الاستغفارَ أمانٌ من العقوبةِ والعذابِ، ورَفْعُ الفِتَنِ والمِحَنِ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

قال ابنُ المباركِ رَحِمَهُ اللهُ:

فنحنُ في فِتْنةٍ عشواءَ مظلمةٍ ... نستغفرُ اللهَ من أهوالِ ما فيها(١)

١٤ - قِراءةُ القرآنِ:

أيَّ مَجْدٍ قد أضاعَتْ أُمَّةٌ ... بسوى القرآنِ لم تَبْلُغْ مُناها(٢)

من آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ قراءةُ القرآنِ وتَدَبُّرُهُ ففيهِ السَّكينةُ والهُدَى والرَّحمةُ والشِّفاءُ لما في الصدورِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونُس: ٥٧].

قال الطبريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «جَعَلَهُ اللهُ للمؤمنين شفاءً يَستَشْفونَ بمواعِظِهِ من الأدواءِ العارضَةِ لصُدورِهِمْ مِن وساوسِ الشَّيطانِ وخَطَراتِهِ فيكْفِيهم ويُغْنِيهم عن كُلِّ ما عداهُ من المواعِظِ ببيانِ آياتِهِ»(٣).

يا مُنزِلَ الآياتِ والفُرْقانِ ... بيني وبينَكَ حُرْمَةُ القُرْآنِ

اشرَحْ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الهُدَى ... واعْصِمْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ(٤)

---

(١) «الجليسُ الصالحُ الكافي» (٣٣٤).

(٢) ديوانُ أحمدَ سحنون (٢١٧).

(٣) تفسيرُ الطبري (١/ ٦٧).

(٤) مقدمةُ نونيةِ القحطاني (٥).

ة ضوئيا بـ CamScanner

١٥ - السَّكينةُ(١):

فَمِنَ السَّكينةِ والوقارِ سُكُوتُهُ ولَهُ المقالُ الفَصْلُ ساعةَ يَنْطِقُ(٢)

إذا تابَ المسلمُ واستغفرَ رَبَّهُ، وأقْلَعَ عن معصيتِهِ، ودعا اللهَ بصالِحِ أعمالِهِ، وتوكَّلَ علىٰ اللهِ وأخَذَ بالأسبابِ ولم ينكشِفْ ما بِهِ، فعليه أنْ يعلمَ يقينًا أنَّ ذلكَ الابْتِلاءَ لحكمةٍ لا يعرفُها ومن أظهرِ الأدلَّةِ علىٰ ذلكَ قِصَّةُ الغُلامِ الذي قَتَلَهُ الخَضِرُ عليه السلام بأمْرٍ من رَبِّهِ ﷻ كي يَقِيَ والدَيْهِ من الكُفْرِ، والابْتلاءُ بفَقْدِ الولَدِ أخَفُّ من الابتلاءِ بالكُفْرِ ولله في كُلِّ شيءٍ حكمةٌ.

قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في تفسير قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

أيْ يَحْمِلَهُما حُبُّهُ علىٰ مُتابَعَتِهِ في الكُفْرِ، وقال قتادةُ: لو بَقِيَ لكان فيه هلاكُهما، فَلْيَرْضَ المرءُ بقضاءِ اللهِ، فإنَّ قضاءَ اللهِ للمؤمنِ فيما يكْرَهُ خَيْرٌ له من قضائِهِ فيما يُحِبُّ»(٣).

ونتيجةُ هذا الرِّضا أنْ يَقْذِفَ اللهُ ﷻ السَّكِينَةَ والطمأنينةَ في قَلْبِهِ.

ومن أظهرِ ما يتسلَّىٰ بِهِ المؤمنُ في هذا المقامِ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

١٦ - بَذْلُ الأسبابِ لِدَفْعِ البلاءِ:

ولَقَدْ بَلَوْتُ الناسَ ثُمَّ سَبَرْتُهُمْ ووَصَلْتُ ما قَطَعُوا من الأسبابِ(٤)

((١)انظر: غير مأمور كتابي «السَّكِينة الْخُلُق الْمَفْقُود» ففيه ما يشفي قرم المتأدب إن شاء الله.

(٢) «العِقْدُ المُفَصَّلُ» (١٨١).

(٣) «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ» (٣/ ١٣٤).

(٤) التُّحَفُ والهدايا (٣٤).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ومن آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ بَذْلُ الأسبابِ الشَّرْعيَّةِ والماديَّةِ لِرَفْعِ البلاءِ فإذا ابْتُلِيَ المسلمُ في جسدِهِ بَحَثَ عن العلاج وإذا ابْتُلِيَ في رِزْقِهِ مشىٰ في مناكِبِ الأرضِ يَبْحَثُ عن عملٍ، وإذا ابْتُلِيَ بِتَسَلُّطِ ظالمٍ دَفَعَهُ بِكُلِّ الوسائِلِ الممكنةِ ولا يَسْتَسْلِمْ لذلك بِحُجَّةِ أَنَّهُ ابْتلاءٌ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورىٰ: ٤١]. وإذا كان البلاءُ عامًّا فليبذُلْ كُلُّ واحدٍ ما يستطيعُ لِدَفْعِ البلاءِ.

ما أَنْتَ بالسَّبَبِ الضَّعيفِ وإنَّما ... يُرْجَى النجاحُ بقُوَّةِ الأسبابِ

إني دعوتُكَ للخطوبِ وإنَّما ... يُدْعَى الطبيبُ ساعَةَ الأوصابِ[1]

١٧ - سُؤالُ اللهِ العافيةَ:

ما يَنْظُرُ النَّاسُ إلى المُبْتَلى ... وإنَّما النَّاسُ مَعَ العافِيَهْ[2]

ومن آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ أَنْ نَسْأَلَ اللهَ العافيةَ، فإنَّ ذلك حِصْنٌ حصينٌ يُحَصِّنُ بِهِ المسلمُ نَفْسَهُ من البلاءِ.

فعن العباسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه أَنَّهُ قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْني شيئًا أسألُهُ اللهَ قال: «**سَلِ اللهَ العافيةَ**»، فمَكَثْتُ أيامًا، ثم جِئْتُ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، علِّمْني شيئًا أسألُهُ اللهَ، فقال لي: «**يا عباسُ، يا عمَّ رسولِ اللهِ، سلِ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ**»[3].

وعن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ

---

(١) «البصائرُ والذخائرُ» (٥/ ٢٠٧).

(٢) ديوانُ عليةَ بنت المهدي (٩٧).

(٣) أخرجهُ أبو داودَ (٥٠٧٤) في «صحيح الجامع» (٧٩٣٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي وَقَالَ عُثْمَانُ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ الْبَلاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ وَسُوءِ الْقَضَاءِ وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ»(٢).

مـــا أنعـــمَ اللهُ علـــى عبـــدِهِ ... بنعمـــةٍ أوفى مـــن العافيـــةْ

وكـــلُّ مَـــنْ عُـــوفِيَ فِي جِـــسْمِهِ ... فإنَّـــهُ فِي عيـــشةٍ راضـــيةْ(٣)

١٨ - الاسترجاع ودعاءُ المُصيبَةِ:

إلـــى اللهِ إنَّـــا راجعـــون وكُلُّنـــا ... سيذهَبُ لا فَـرْدٌ سيبقى ولا جَمْعُ(٤)

ومن آدابِ الابتلاء بالضَّرَّاءِ الاسْترجاعُ ودعاءُ المصيبةِ فيقولُ المَرْءُ عند نُزُولِ المصيبةِ: إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إليهِ راجعون، اللهمَّ ائجرني في مصيبتي، وأَخْلِفْ لي خيرًا منها. فقد قال اللهُ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]. وعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قالت: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**ما من مسلمٍ تصيبُهُ مصيبةٌ فيقولُ ما**

---

(١) (صحيحٌ) أخرجهُ البخاريُّ في الأدبِ المُفْرَدِ، (١٢٠٠) وأبو داودَ في سُنَنِهِ (٥٠٧٤). وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٤٢٣٩).

(٢) أخرجهُ البخاريُّ في صحيحِهِ (٦٣٤٧).

(٣) المستطرفُ (٥١٣).

(٤) المذاهبُ الأدبيةُ (١٢٤).

ة ضوئيا بـ CamScanner

أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا للهِ وإِنَّا إليهِ راجعون. اللهم اجُرْنِي في مُصيبتي وأَخْلِفْ لي خيرًا منها إلا أَخْلَفَ اللهُ له خيرًا منها» قالت أُمُّ سلمةَ: فلمَّا ماتَ أبو سَلَمَةَ قُلْتُ: أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمةَ؟ أوَّلُ بيتٍ هاجَرَ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ. ثُمَّ إني قُلْتُها، فأَخْلَفَ اللهُ لي رسولَ اللهِ(١).

ويقولُ كذلك: اللهُ رَبِّي لَا شَرِيكَ له لحديثِ أسماءَ رضي الله عنها قالتْ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ أَوْ سُقْمٌ أَوْ شِدَّةٌ فَقَالَ: اللهُ رَبِّي لَا شَرِيكَ لَهُ كَشَفَ ذلكَ عَنْهُ»(٢).

ويَدْعُو كذلكَ بدُعاءِ المَكْروبِ الذي ذَكَرَهُ النبيُّ ﷺ حَيْثُ قال: «دعواتُ المكروبِ: اللهمَّ رَحْمَتَكَ أرجو فلا تَكِلْنِي إلىٰ نفسي طَرْفَةَ عينٍ، وأَصْلِحْ لي شأنِي كُلَّهُ لا إلهَ إلَّا أنتَ»(٣).

ويقولُ كذلك كما كان النبيُّ ﷺ يقولُ، «فإنَّهُ ﷺ كان إذا كَرَبَهُ أمرٌ قال: يا حَيُّ يا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتغيثُ»(٤).

١٩ - اجْتنابُ ما يُغْضِبُ اللهَ:

أَجِدُ الحُزْنَ فيكَ حِفْظًا وعَقْلًا ... وأراهُ في الخَلْقِ وَغْرًا وجَهْلًا(٥)

من آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ اجتنابُ كُلِّ ما يُغْضِبُ اللهَ.

كالجَهْرِ بالسُّوءِ من القَوْلِ، واللَّطْمِ، وشَقِّ الجُيوبِ، وحَلْقِ الشُّعورِ، والنياحةِ

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٩١٨).

(٢) (حَسَنٌ) أخرجهُ الطبرانيُّ (٣٩٦) وَحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (٦٠٤٠).

(٣) (حَسَنٌ) أخرجهُ أبو داودَ (٥٠٩٠) وَحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (٣٣٨٨).

(٤) رواهُ الترمذيُّ في السُّنَنِ (٣٥٢٤) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (٤٧٩١).

(٥) محاضراتُ الأدباءِ (٢/ ٥٤٠).

ة ضوئيا بـ CamScanner

والشكوى إلى الناسِ والدُّعاءِ بالموتِ، والويلِ والثُّبورِ، وغيرِ ذلك، فهذا كُلُّهُ يُغْضِبُ اللهَ تعالى، ويُنافي الصَّبرَ على المصائبِ والرِّضا بها. فعَنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «ليسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدودَ. وشَقَّ الْجيوبَ، ودعا بدعوى الجاهليَّةِ»(١).

فليسَ المؤمنُ الذي يَنْخَلِعُ قَلْبُهُ للمُصيبةِ ولا يَعْرِفُ الثَّباتَ والشجاعةَ في ملاقاةِ المِحَنِ، ويَلْطِمُ الخُدودَ، ويُسْخِمُ(٢) الوجوهَ، ويَدُقُّ الصدورَ، ويَشُقُّ الجيوبَ، ويُمَزِّقُ الثيابَ ويَقْطَعُ الهِنْدامَ، ويَسْمَحُ لِنسائِهِ وبناتِهِ بالنِّياحَةِ والتَّعْديدِ(٣)، ويدعو بدعوى الجاهليةِ فيقولُ: واأَبتاهُ، واأُمَّاهُ، وا ولداهُ، وا زوجاهُ، وا قرياهُ، وا مُصيباهُ، وا داهياهُ، وا مالاهُ، وا بيتاهُ، إلى غيرِ ذلكَ من الجَزَعِ والهَلَعِ والسَّخَطِ على ما قَضَى اللهُ وقَدَّرَ، بل المؤمنُ هو الذي يَصْبِرُ عند نزولِ المَصائِبِ، ويُقابِلُها بالرِّضا والتسليمِ ويقولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ اللهم اجرني في مُصيبتي وأَخْلِفْ لي خيرًا منها(٤). ويقولُ كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: حالَ وفاةِ إبراهيمَ وَلَدِهِ، جعلتْ عيناهُ - تَذْرِفانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّها رَحْمَةٌ». ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»(٥).

ويعجبني قولُ عمرِو بنِ كُلْثُومٍ:

مَعــاذَ الإلــهِ أَنْ تَنــوحَ نِــساؤُنا ... على هالِكٍ أو أَنْ نَضِجَّ من القَتلِ (٦)

---

(١) رواهُ البخاريُّ (١٢٩٤).

(٢) يُسْخِمُ: يُسَوِّدُ.

(٣) التعديدُ: ذِكْرُ المَناقبِ الحَميدةِ.

(٤) رواهُ مُسْلِمٌ (٩١٨).

(٥) رواهُ البخاريُّ: (١٣٠٣).

(٦) أشعارُ الشعراءِ الستةِ الجاهليِّينَ لأبي الْحَجَّاجِ الأندلسي المعروفِ بالأعلمِ (٨٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٢٠ - تَذَكُّرُ القَضاءِ السابِقِ:

وَإِنْ جَـاءَ أَمْـرٌ لا تُطيقـانِ دَفْعَـهُ فَـلا تَجْزَعـا مِمَّـا قـضى اللهُ واصْـبِرا(١)

ومن آدابِ الابْتلاءِ بالضَّرَّاءِ تَذَكُّرَ القضاءِ السابِقِ؛ فإنَّ المسلمَ متىٰ ما أيْقَنَ أنَّ هذهِ المصائِبَ مكتوبةٌ، ومُقَدَّرةٌ، ومتىٰ ما اسْتَحْضَرَ في ذهنِهِ أنَّ كُلَّ ما قَدَّرَهُ اللهُ فهو لا بُدَّ كائِنٌ واقعٌ لا مَحِيدَ عنه، وأنَّ للهِ تعالىٰ حكمةً في تقديرِ هذه المصائِبِ، كُلَّمَا تذكرَ هذه الأمورَ هانتْ عليه المصائِبُ، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

أَوَلَـيْسَ الـذي يُـدارُ علينـا مِـن أُمُـورٍ يُوافِـقُ المقـدورا؟

قـد قـضى اللهُ مـا لنـا وعلينـا قبـل أَنْ يُبْـرِمَ العَـدُوُّ الأُمـورا(٢)

٢١ - معرفةُ طبيعةِ الدنيا:

طُبِعَـتْ عَلَـى كَـدَرٍ وأَنْـتَ تُرِيـدُهَا صَـفْوًا مِـن الأَقْـذَارِ والأَكْـدَارِ(٣)

ومن آداب الابْتلاءِ بالضَّرَّاءِ:

معرفةُ طبيعةِ الدنيا وأنَّها دارُ عَناءٍ وقنطرةٌ تَعْبُرُ منها إلىٰ الآخرةِ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

---

(١) الحماسةُ البَصْرِيَّةُ (١/ ٧).

(٢) «الحُلَّةُ السيراءُ» (١/ ١٨٧).

(٣) «ديوانُ عَلِيِّ بنِ محمدٍ التهامي» (٢٧٦).

بَلْ هِيَ لِلمُؤمِنِ سِجْنٌ وللكافِرِ جَنَّةٌ كما جاءَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجَنَّةُ الكافِرِ»(١).

قولُهُ: «سِجْنُ المؤمنِ» بالنسبةِ لما أُعِدَّ لَهُ في الآخرةِ من النعيمِ المُقيمِ (وجَنَّةُ الكافِرِ) بالنسبة لما أمامَهُ من عذابِ الجحيمِ وقيلَ: المؤمنُ صَرَفَ نَفْسَهُ عن لَذَّاتِها فكأنَّهُ في السِّجْنِ لِمَنْعِ الملاذِّ عنه والكافِرُ سَرَّحَها في الشهواتِ فهي له كالجَنَّةِ.

وذكروا أنَّ الحافِظَ ابنَ حَجَرٍ رحمه الله لما كان قاضيَ قُضاةِ الديارِ المِصْرِيَّةِ مَرَّ يومًا في السُّوقِ في موكبٍ عظيمٍ وهَيْئَةٍ جميلةٍ فَهَجَمَ عليهِ يهوديٌّ يبيعُ الزيتَ الحارَّ وأثوابُهُ مُلطَّخَةٌ بالزَّيْتِ وهو في غايةِ الرَّثاثَةِ والشَّناعَةِ فَقَبَضَ على لِجامِ بَغْلَتِهِ وقال: تزعُمُ أنَّ نبيَّكم قال: الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجَنَّةُ الكافِرِ فأيُّ سِجْنٍ أنت فيه وأيُّ جنةٍ أنا فيها فقال: أنا بالنسبةِ لما أعَدَّ اللهُ لي في الآخرةِ من النعيمِ كأنِّي الآنَ في السِّجْنِ وأنت بالنسبةِ لما أعَدَّ اللهُ لَكَ في الآخرةِ من العذابِ الأليمِ كأنك في الجَنَّةِ» فأسلم اليهوديُّ(٢).

ومِنْ دُرَرِ ابنِ الجوزيِّ رحمه الله قولُهُ: «أمَّا بَعْدُ؛ فإنِّ رأيتُ عُمُومَ الناسِ يَتَزَعجُونَ لنُزُولِ البلاءِ انْزِعاجًا يَزِيدُ عن الحَدِّ، كأنَّهم ما علموا أنَّ الدنيا على ذا وُضِعَتْ! وهل يَنْتَظِرُ الصَّحيحُ إلا السَّقَمَ؟ والكبيرُ إلا الهَرَمَ؟ والموجودُ سوى العَدَمِ؟!»(٣)

على ذا مضى الناسُ اجتماعٌ وفُرْقَةٌ ... ومَيِّتٌ ومولودٌ وبِشْرٌ وأَحْزانُ(٤)

---

(١) «رواهُ مسلمٌ» (٢٩٥٦).

(٢) «فيضُ القديرِ» (٣/ ٥٤٦).

(٣) «تَسْلِيَةُ أهلِ المصائبِ» (٧١).

(٤) «أبو الطيب ما لهُ وما عليهِ» (١١٦).

وقال الأعشى:

شَبابٌ وشَيْبٌ وافتقارٌ وثروةٌ ... فللَّهِ هذا الدهرُ كيفَ تردَّدا(١)

وقال غيرُهُ:

وما الدَّهرُ والأيامُ إلا كما ترى ... رَزِيَّةُ مالٍ أو فراقُ حبيبِ(٢)

٢٢ - معرفةُ أنَّ الابتلاءَ سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِهِ:

إنِّي مُعَزِّيكَ لا أنِّي على ثقةٍ ... من البلاءِ ولكنْ سُنَّةُ الدِّينِ(٣)

ومن آدابِ الابتِلاءِ بالضَّرَّاءِ أنْ يعلمَ العبدُ أنَّ تلك سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِهِ فقد تواردَتِ الأدِلَّةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ والوقائعِ والتجارُبِ في حياةِ الأنبياءِ - عليهم السلامُ - وأتباعِهِم على أنَّ الابتلاءَ سُنَّةٌ ماضيةٌ وباقيةٌ وقضيةٌ مفروغٌ منها.

قال اللهُ ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

ويَدْخُلُ تحتَ تلك السُّنَّةِ سُنَّةُ المداولةِ بين الناسِ من الشِّدَّةِ إلى الرَّخاءِ ومن الرخاءِ إلى الشِّدَّةِ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

---

(١) «المُصَنَّفُ للسارقِ والمسروقِ منه» (٧٧١).

(٢) المرجعُ السابقُ (٧٧١).

(٣) «الديوانُ المنسوبُ للشافعي» (١١٥).

﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠ - ١٤١].

٢٣ - انْظُرْ إلى مَنْ فوقَكَ في البلاءِ:

فما أَشْرُفُ الأعلامَ إلَّا صَبابَةً ... ولا أَضْرِبُ الأمثالَ إلَّا تداويا[١]

ومن آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ النَّظَرُ إلىٰ من فوقَكَ في البلاءِ؛ لأنَّ ذلكَ يُهَوِّنُ عليك ما أنتَ فيه، ورأيتَ لُطْفَ اللهِ بِكَ وممَّا يَدُلُّ علىٰ أن يَنْظُرَ العبدُ إلىٰ مَنْ فوقَهُ في البلاءِ حديثُ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رضي الله عنه، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ، فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا، فَقَالَ: قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ، لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ[٢].

فأنت ترىٰ حينما اشْتَدَّ البلاءُ والعذابُ علىٰ خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ لأنَّ مولاتَهُ كانت تُعَذِّبُهُ بالنارِ ذَهَبَ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وقال ما قال فَذَكَّرَهُ بِبَلاءٍ أَشَدَّ مِمَّا هو فيه فَسَكَنَ قَلْبُهُ ورَضِيَ فَتَسَلَّ عَمَّا أنتَ فيهِ ببلاءِ مَنْ قَبْلَكَ وبِمَنْ هم حولَكَ مِمَّنْ أُصِيبَ بِمِثْلِكَ أو أَشَدَّ.

وهاهو ابنُ القَيِّمِ رحمه الله يُوَجِّهُ نصيحَتَهُ لِمَنْ ابْتُلِيَ بمُصِيبةٍ: «أَنْ يُطْفِئَ نَارَ مُصِيبَتِهِ بِبَرْدِ التَّأَسِّي بِأَهْلِ الْمَصَائِبِ، وَلْيَعْلَمَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ، وَلْيَنْظُرْ يَمْنَةً فَهَلْ يَرَىٰ إِلَّا مِحْنَةً؟ ثُمَّ لِيَعْطِفْ يَسْرَةً فَهَلْ يَرَىٰ إِلَّا حَسْرَةً؟ وَأَنَّهُ لَوْ فَتَّشَ الْعَالَمَ لَمْ يَرَ فِيهِمْ إِلَّا

---

(١) الْبَصَائِرُ وَالذَّخَائِرُ (١/ ٥٢) لأبي حَيَّانَ التَّوحِيديِّ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ «٣٦١٢».

مُبْتَلًى، إِمَّا بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ، وَأَنَّ سُرُورَ الدُّنْيَا أَحْلَامُ نَوْمٍ، أَوْ كَظِلِّ زَائِلٍ، إِنْ أَضْحَكَتْ قَلِيلًا أَبْكَتْ كَثِيرًا، وَإِنْ سَرَّتْ يَوْمًا سَاءَتْ دَهْرًا وَإِنْ مَتَّعَتْ قَلِيلًا، مَنَعَتْ طَوِيلًا، وَمَا مَلَأَتْ دَارًا خِيرَةً إِلَّا مَلَأَتْهَا عَبْرَةً، وَلَا سَرَّتْهُ بِيَوْمِ سُرُورٍ إِلَّا خَبَّأَتْ لَهُ يَوْمَ شُرُورٍ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «لِكُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةٌ، وَمَا مُلِئَ بَيْتٌ فَرَحًا إِلَّا مُلِئَ تَرَحًا» وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: «مَا كَانَ ضَحِكٌ قَطُّ إِلَّا كَانَ مِنْ بَعْدِهِ بُكَاءٌ».

وَقَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ النعمانِ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَنَحْنُ مِنْ أَعَزِّ النَّاسِ وَأَشَدِّهِمْ مُلْكًا، ثُمَّ لَمْ تَغِبِ الشَّمْسُ حَتَّى رَأَيْتُنَا، وَنَحْنُ أَقَلُّ النَّاسِ وَأَنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَلَّا يَمْلَأَ دَارًا خِيرَةً إِلَّا مَلَأَهَا عَبْرَةً[1].

ويُعجبني قولُ الخَنْساءِ:

ولولا كثرةُ الباكينَ حَولي ... على إخوانِهم لقَتَلْتُ نفسي

وما يَبْكُونَ مثلَ أخي ولكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عنهُ بالتأسِّي[2]

٢٤ - الدُّعاءُ:

أُهدي إلى مَلِكِ الملوكِ دُعائي ... وأَخُصُّهُ بمدائِحِي وثَنائي[3]

الدعاءُ له أَثَرٌ عظيمٌ سواءً قبلَ نُزُولِ البلاءِ أو بَعدَ نُزُولِهِ.

فعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الدُّعاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ ومِمَّا لم يَنْزِلْ، فعليكم عبادَ اللهِ بالدُّعاءِ»[4].

---

(١) زَادُ الْمَعَادِ (٤/ ١٧٥).

(٢) الذَّخَائِرُ وَالْعَبْقَرِيَّاتُ لِلْبَرْقُونِيِّ (٢٣٥).

(٣) دَوَاوِينُ الشِّعْرِ الْعَرَبِي (٩/ ٢٣٠).

(٤) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (١/ ٦٧٠)، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣٤٠٩).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وعن سلمانَ الفارسيِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يَرُدُّ القضاءَ إلا الدُّعاءُ، ولا يزيدُ في العُمُرِ إلا البِرُّ»(١).

ومن دُرَرِ العلامةِ ابنِ القَيِّمِ رحمه الله قولُهُ: والدعاءُ من أنفَعِ الأدويةِ، وهو عدوُّ البلاءِ، يُعالِجُهُ ويَمْنَعُ نُزولَهُ ويرفَعُهُ أو يُخَفِّفُهُ إذا نَزَلَ وهو سلاحُ المؤمنِ»(٢).

وقال: «وَلَهُ - أي: الدُّعاءُ - مع البَلاءِ ثلاثةُ مَقاماتٍ أحَدُهما: أنْ يكونَ أقوىٰ من البلاءِ؛ فيَدْفَعُهُ.

الثاني: أنْ يكونَ أضْعَفَ من البلاءِ؛ فيَقْوىٰ عليه البلاءُ، فيُصابُ بِهِ العَبْدُ، ولكنْ قد يخفِّفُهُ، وإنْ كانَ ضَعيفًا.

والثالثُ: أنْ يتقَاوَما، ويَمْنَعَ كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ»(٣).

ولِلَّهِ دَرُّ القائِلِ:

وإذا الشَّدائِدُ أقْبَلَتْ بجُنودِها ... والدَّهْرُ من بَعْدِ المَسَرَّةِ أوْجَعَكْ

ارْفَعْ يَدَيْكَ إلى السَّماءِ ففوقَها ... رَبٌّ إذا ناديْتَهُ ما ضَيَّعَكْ

٢٥ - انتظارُ الفَرَجِ:

إذا تَضايقَ أمْرٌ فانْتَظِرْ فَرَجًا ... فأصْعَبُ الأمْرِ أدناهُ إلى الفَرَجِ(٤)

---

(١) (حَسَنٌ) رَوَاهُ التِّرمِذيُّ (٢١٣٩)، وحَسَّنَهُ الألْبَانيُّ في «صَحِيحِ الجَامِعِ» (٧٦٨٧).

(٢) «الجَوابُ الكَافِي» (١٠).

(٣) «الجَوابُ الكَافِي» (١٠).

(٤) «رَبِيعُ الأبْرَارِ» (٤/ ٢٤٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ومن آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ انتظارُ الفَرَجِ؛ لأنَّ انتظارَ الفَرَجِ انتِصارٌ على اليأسِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

وتَهْرٌ للقُنوطِ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦].

وفيه تَصْديقٌ للوَعْدِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦].

واطْمِئْنانٌ لِسُنَّةِ اللهِ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧].

وتَطَلُّعٌ إلىٰ لُطْفِهِ ورحمتِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

هَوِّنْ عليكَ فكُلُّ الأمْرِ مُنْقَطِعٌ ... وخَلِّ عَنْكَ عَنَانَ الْهَمِّ يَنْدَفِعُ

فكُلُّ هَمٍّ لَه مِن بَعْدِهِ فَرَجٌ ... وَكُلُّ أَمْرٍ إذا ما ضَاقَ يَتَّسِعُ(١)

٢٦ - تَهْوِينُ المصيبةِ بِذِكْرِ أَعْظَمِها:

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... ولا مِثْلَهُ حَتَّى القِيَامَةِ يُفْقَدُ(٢)

من آدابِ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ تهوينُ المُصِيبةِ علىٰ النَّفْسِ بِتَذَكُّرِ وَفاةِ النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ وفاتَهُ وانْقِطاعَ وَحْيِ السَّماءِ من أعظمِ المصائِبِ التي نزلتْ بالأُمَّةِ، وبكُلِّ مسلمٍ، وإذا تذكَّرَ المُصابُ بمُصيبةِ المصيبةُ العظيمةَ بوفاةِ النبيِّ ﷺ، هَوَّنَ ذلك عليهِ مُصِيبتَهُ التي نزلتْ به، فإنَّ المصيبةَ العظيمةَ لا تُهَوَّنُ إلَّا بالنَّظَرِ إلىٰ ما هو أَعْظَمُ منها، وقد قال ﷺ: «إذا أصابَ أحدَكُم مُصيبةٌ، فليذكُرْ مُصيبتَهُ بي، فإنَّها من أَعْظَمِ المصائِبِ»(٣).

---

(١) ديوانُ مُحَمَّد بْنِ حَازِمٍ الْبَاهِلِي (٥٣).

(٢) مَجْمُوعَةُ الْقَصَائِدِ الزُّهْدِيَّةِ (٢/ ٥٦).

(٣) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ (١/ ٤٠) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣٤٧).

ة ضوئيا بـ CamScanner

قال أنسٌ: «لَمَّا كانَ اليومُ الذي دَخَلَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ أضاءَ منها كُلُّ شيءٍ، فلَمَّا كانَ اليومُ الذي ماتَ فيهِ أظلمَ منها كُلُّ شيءٍ، وما نَفَضنا عن النبيِّ ﷺ الأيديَ حتىٰ أنكَرْنا قُلُوبَنا»(١).

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصيبةٍ وتَجَلَّدِ ... واعْلَمْ بِأَنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

وإذا ذكرتَ مُصيبةً تَشْجَى بها ... فاذْكُرْ مُصابَكَ بالنبيِّ مُحَمَّدِ(٢)

٢٧ - نِسيانُ المُصيبةِ:

بُورِكْتَ يا أيُّها النسيانُ من آسٍ ... لقد قَضَيْتَ على هَمِّي ووِسْواسي(٣)

ومن آدابِ الابْتلاءِ بالضَّرَّاءِ عند وقوعِهِ: عَدَمُ كَثْرَةِ الحديثِ حَوْلَهُ، ويُمْكِنُ أَنْ يُستفادَ ذلك إشارةً مِمَّا حكاهُ اللهُ سبحانه في قِصَّةِ مَرْيَمَ: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦].

لولا مُعالَجَةُ النسيانِ حَطَّمَنا ... ما لا يفارقُنا في الدهرِ من باسِ

وفي الحياةِ مآسٍ طالما شَقِيَتْ ... بها النفوسُ وقاستْ ضِيْقَ أنفاسِ

لولا اللُّجوءُ إلى النسيانِ أسْلَمَنا ... طولُ المُعاناةِ والإرهاقِ لِلْياسِ(٤)

٢٨ - الصَّبْرُ على المُبْتَلَى:

أَرَى أُمَّ عمرٍو لَمْ تَمِلَّ ولم تَضِقْ ... ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعي ومكاني(٥)

---

(١) (صَحِيحٌ) رواهُ ابنُ ماجه (١٦٣١) وَصَحَّحَهُ الألْبَانِيُّ في صحيحِ سننِ ابنِ ماجه (١٦٣١).

(٢) «أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ» (١٠٢).

(٣) ديوانُ أحمدَ سَحْنونٍ (٢/ ٣٤).

(٤) المرجعُ السابقُ (٢/ ٣٤).

(٥) «الأصمعيات» (١٤٦).

CamScanner ضوئيا بـ

ومن آداب الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ صَبْرُ أهلِ المريضِ وذَوِيهِ على تمريضِهِ ومساعدتِهِ بَلْ ذلك أعظمُ الأدَبِ؛ لأنَّ صَبْرَهم صَبْرُ اختيارٍ، وهو أشقُّ من صَبْرِ الاضطِرارِ، فيجِبُ على أهلِ المُبْتَلَى بمرضٍ أو غيرِهِ أنْ يَصْبِروا عليه، ولا يَضِيقُوا بِهِ، أو يَمَلُّوا منه سِيَّما إذا طالَ بلاؤُهُ.

فما مِن شَكٍّ أنَّ المُبْتَلَى قَوِيُّ الملاحَظَةِ شديدُ الفِراسَةِ ويُوحِشُهُ بل يُؤْلِمُهُ أنْ يَشْعُرَ أنَّهُ قد أصْبَحَ عِبْئًا ثقيلًا على أهْلِهِ، وأنَّهم يتَمَنَّون أنْ يُرِيحَهُمُ اللهُ منه، يرى ذلك على صَفَحاتِ وُجُوهِهِم، وفي نظراتِ أعْيُنِهِمْ، وفَلَتاتِ أَلْسِنَتِهِم وقديمًا شكا الشاعِرُ العربيُّ زوجَتَهُ (سُلَيْمَى) حين لم تَصْبِرْ على مَرَضِهِ وقالتْ لجارةٍ لها وقد سألَتْها عن حالِهِ وهو يَسْمَعُ: «لا حَيٌّ فيُرجَى ولا مَيْتٌ فيُنسى» في حينِ صَبَرَتْ عليهِ أُمُّهُ فأصْدَرَ هذا الحُكْمَ المعَمَّمَ:

أرى أمَّ عمرٍو لَمْ تَمَلَّ ولَمْ تَضِقْ ... ومَلَّتْ سُلَيمى مَضْجَعي ومكاني

فأيُّ امْرِئٍ ساوى بأُمِّ حليلَةً ... فلا عاشَ إلا في أشًى وهَوانِ

لَعَمْرِي لقدْ نبَّهْتِ مَنْ كان نائمًا ... وأسْمَعْتِ مَنْ كانتْ له أُذُنانِ[1]

فإذا كان صَبْرُ المريضِ على ما ابْتُلِيَ به من المَرَضِ من أعظمِ ما يُثِيبُ اللهُ عليه، فإنَّ صَبْرَ آلِهِ وذَوِيهِ على تمريضِهِ ومساعدتِهِ على الشفاءِ لا يَقِلُّ مَثوبةً عنه، بل قد يزيدُ عليه؛ لأنَّ صَبْرَ المريضِ أشْبَهُ بصَبْرِ الاضطرارِ وصَبْرُ أهلِهِ وذويهِ صَبْرُ اختيارٍ، ذلك صَبَرَ على البلاءِ وهذا صَبَرَ على فعلِ الخَيْرِ.

---

(١) «الأنوارُ ومحاسِنُ الأشعارِ» لِلشَّنْقِيطِيِّ (١٧).

فضائلُ الابتلاءِ بالذنوبِ والمعاصي

خَفِّفُوا ثِقَلَ المَعاصِي ... أَفْلَحَ القَومُ المُخِفُّونْ[١]

إن كان للمعاصي مَحاسِنُ وفضائِلُ فهي قطرةٌ في بحرِ فضائِلِ تَرْكِ الذنوبِ والمعاصي والشَّاذُّ لا حُكْمَ لَهُ ولكنْ ذَكَرتُ هنا بعضَ الفضائِلِ في حَقِّ مَنْ وَصَفَهُمُ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

أَتَى بإذا الفُجائيَّةِ ليقْتَضِي سُرْعَةَ تَيَقُّظِهِمْ وعودَتِهم إلىٰ اللهِ فهُمْ ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وكاد يَسْتولي علىٰ حالِهم التي هم فيها مَعَ اللهِ، تذكَّروا العداوةَ التي بينَهم وبينَ الشيطان، وذكَروا ما بينَهم وبينَ اللهِ، وعندئذٍ تنجلي هذه الغُمَّةُ عنهم، وينصرفُ هذا السحابُ المُتَراكِمُ الذي كفَّهم الشيطانُ به، وإذا نورُ الهدىٰ يُطِلُّ عليهم مِن بين هذا السَّحابِ، وإذا حرارةُ الإيمانِ تتحرَّكُ في صُدُورهم، فتبدِّدُ غواشِيَ هذه السُّحُبِ، وإذا سماؤهم مشرقةٌ بنورِ اللهِ، وإذا هم مُبْصِرون طريقَهم إلىٰ الحَقِّ والخيرِ»[٢].

فمِنْ تِلْكَ الفضائِلِ ما يَأْتِي:

١ - تَحَقُّقُ صِفَةِ الإنسانيَّةِ في العَبْدِ:

رأيْتُكَ أَمْسِ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ ... وأنتَ اليومَ خَيرٌ مِنْكَ أَمْسِ[٣]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالذنوبِ أو المعاصي أنَّ الإنسانَ يَتركَّبُ من الشَّهْوَةِ

---

(١) أخبارُ وتراجِمُ أندلسيَّة (٢٤).

(٢) «التفسيرُ القرآني للقرآن» للخطيب (٥/ ٥٥٠).

(٣) الرَّسائِلُ الأدبيةُ (٨٨) للجاحِظِ.

والغَضَبِ، وهاتانِ القُوَّتانِ هما بمنزلةِ صفاتِهِ الذاتيَّةِ وبهما وَقَعَتِ المِحْنَةُ والابتلاءُ لا يَدَعان العَبْدَ حتىٰ يُنْزِلانِهِ منازِلَ الأبرارِ أو يَضَعانِهِ مع الأشرارِ، وكُلُّ واحدةٍ من القُوَّتين تَقْتَضِي أثَرَها في وقوعِ الذَّنْبِ، وسائِرِ المخالفاتِ والمعاصِي، ولو لم يَكُنْ الأمْرُ كذلكَ لم يكُنْ الإنسانُ إنسانًا بَلْ كان مَلَكًا، ومِنْ هنا نعلمُ الفائدةَ العظيمةَ من قولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «كُلُّ ابنِ آدمَ خَطَّاءٌ وخَيْرُ الخَطَّائِين التَّوَّابُونَ»(١).

فَحَرِيٌّ بالمَرْءِ أنْ يَعْذِرَ الناسَ من أنْفُسِهِم، وأنْ يَسْلُكَ بِهِمْ طريقَ الرِّفْقِ والرحمةِ والأسلوبِ الحَسَنِ.

سامِحْ أخاكَ إذا أتاكَ بِزَلَّةٍ ... فَخُلُوصُ شيءٍ قلَّما يَتَمَكَّنُ

في كُلِّ شيءٍ آفَةٌ موجودةٌ ... إنَّ السِّراجَ على سَناهُ يُدَخِّنُ(٢)

وقال الحريريُّ وأحسنَ:

سامِحْ أخاكَ إذا خَلَطْ ... مِنْهُ الإصابَةَ بالغلطْ

وتجافَ عنْ تَعْنِيفِهِ ... إنْ زاغَ يومًا أو قَسَطْ

واحفَظْ صَنِيعَكَ عِنْدَهُ ... شُكْرَ الصَّنِيعةِ أو غَمِطْ

وأطِعْهُ إنْ عاصَى وَهُنْ ... إنْ عَزَّ وادْنُ إذا شَحَطْ

واقْنَ الوَفَاءَ ولو أخَلْـ ... ـلَ بما اشْتَرَطْتَ وما شَرَطْ

واعْلَمْ بأنَّكَ إن طَلَبْـ ... ـتَ مهذَّبًا رُمْتَ الشَّطَطْ

---

(١) (حَسَنٌ) أخرجَهُ التِّرمِذِيُّ (٢٤٩٩)، وابنُ ماجه (٤٢٥١) واللَّفظُ لَه، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صَحِيحِ الجَامِعِ» (٤٣٩١).

(٢) «المُحَاضَرَاتُ والمُحَاوَرَاتُ» (٣٩٧).

مَنْ ذا الذي ما ساءَ قط ومَنْ لَهُ الحُسْنَى فقطْ(١)

٢ - التواضُعُ والخَشْيَةُ:

والذي يَعْرِفُ الإلهَ تراهُ دامَ فيه تواضُعٌ وانْحِناءُ(٢)

من فضائِلِ الابتلاءِ بالذُّنوبِ أو المعاصي مُشاهَدَةُ العبدِ ذُنُوبَهُ أو معاصِيَهُ وتفريطَهُ في حَقِّ رَبِّهِ فيرىٰ القليلَ من النِّعَمِ كثيرًا والكثيرَ من عملِهِ قليلًا، فيُورِثُهُ ذلك تواضعًا وخَشْيَةً وإنابةً وطُمأنينةً ورِضًا، وأينَ هذا مِنْ حَالِ مَنْ لا يرىٰ للهِ عليه نِعمةً إلَّا يرىٰ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أكثرَ مِنها؟!!!

مَلأَى السنابِلِ تَنْحني بتواضُعِ والفارغاتُ رُؤُسُهُنَّ شَوامِخُ(٣)

٣ - الندمُ والبُكاءُ:

إذا اشْتَبَهَتْ دموعٌ في خُدودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تباكَى(٤)

من فضائِلِ الابْتلاءِ بالذنوبِ أو المَعَاصي أَنَّ الإنسانَ يَجْعَلُ الذَّنْبَ نُصْبَ عينيْهِ ويجعلُ طاعَتَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ وهذا عَيْنُ الرَّحْمَةِ في حَقِّهِ.

وفي هذا المعنىٰ يقولُ بَعْضُ السَّلَفِ: «إنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ، ويَعْمَلُ الحَسَنَةَ فيدخُلُ بها النارَ». قالوا: وكيفَ ذلك؟

قال: «يَعْمَلُ الخطيئةَ فلا تزالُ نُصْبَ عينِهِ كُلَّما ذكَرَها بَكَىٰ ونَدِمَ وتابَ واسْتَغْفَرَ

---

(١) «مقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ» (٢٣٠).

(٢) ديوانُ النابلسيِّ (١٨٩١).

(٣) «صيدُ الأفكارِ» (١/ ٤١٢).

(٤) «أبو الطَّيبِ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ» (١٤٣).

وتَضَرَّعَ وأناب إلىٰ الله ﷻ وذَلَّ لَهُ وانكَسَرَ، وعَمِلَ لها أعمالًا فتكونُ سَبَبَ الرحمةِ في حَقِّهِ، ويعملُ الحَسَنَةَ فلا تزالُ نُصْبَ عينيْهِ يَمُنُّ بها ويراها ويَعْتَدُّ بها علىٰ رَبِّهِ ﷻ وعلىٰ الخَلْقِ، ويتكبَّرُ بها، ويَتَعَجَّبُ من الناسِ كيفَ لا يُعَظِّمونَهُ ويُكَرِّمونَهُ ويُجِلُّونَهُ عليها، فلا تزالُ هذه الأمورُ بِهِ حتىٰ تقوىٰ عليه آثارُها فَتُدْخِلُهُ النارَ، وعلامةُ السَّعادةِ أنْ تكونَ حَسَنَاتُ العبدِ خَلْفَ ظَهْرِهِ وسيِّئاتُهُ نُصْبَ عينيْهِ، وعلامَةُ الشَّقاوَةِ أنْ يَجْعَلَ حَسَناتِهِ نُصْبَ عينيْهِ وسيئاتِهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ»(١).

نَـزَفَ البكـاءُ دُمـوعَ عينِـكَ فاسْـتَعِرْ ... عينًـا لغَيْـرِكَ دمْعُهـا مِـدرارُ

مَـن ذا يُعِيـرُكَ عَيْنَـهُ تبكـي بهـا ... أرأَيْـتَ عينًـا للبُكـاءِ تُعَـارُ؟(٢)

٤ - العَفْوُ عن الناسِ:

تَـسامَحْ ولا تَـسْتَوْفِ حَقَّـكَ كُلَّـهُ ... وأَبْـقِ فَلَـمْ يَـسْتَقْصِ قـطُّ كَـرِيمُ(٣)

من فضائِلِ الابْتلاءِ بالذنوبِ أو المعاصِي أنَّ العَبْدَ يُعامِلُ الناسَ بما يُحِبُّ أنْ يعامِلَهُ اللهُ بِهِ؛ لأنَّ الجزاءَ من جِنْسِ العملِ فمَنْ عَفَا عَفَا اللهُ عنه، ومَن سامَحَ أخاهُ في إساءَتِه إليه سامَحَهُ اللهُ، ومَن عفا وتجاوَزَ تجاوَزَ اللهُ عنه.

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، واغْفِرُوا يُغْفَرْ لكم»(٤).

---

(١) «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ» (١/ ٢٩٧).

(٢) «أَمَالِي الْقَالِي» (١/ ٢٠٩).

(٣) «مُعْجَمُ الأُدباء» (٢/ ٤٩٠).

(٤) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٦٥٤١)، وَصَحَّحَهُ الأَلبانيُّ فِي «صَحِيح الْجَامِعِ» (٨٩٧).

ة ضوئيا بـ CamScanner

فاغفِرْ ذُنوبًا لِتُجْزَى بَعْدُ مَغْفِرَةً واعْذُرْ لتُصبحَ بين الناسِ معذورا[١]

وغير خاف على كل ذي لبٍّ أن للعفو لذةً أعظم من لذة الانتقامِ[٢] وَحَسْبُكَ بلذة تفضي إلى حمد العاقبةِ.

قال الخليفة العباسي المنتصر بالله رَحِمَهُ اللَّهُ: «لذَّةُ العفوِ أطيبُ من لذَّةِ التشفِّي؛ وذلك لأنَّ لذَّةَ العفوِ يلحِقُها حَمْدُ العاقبةِ، ولذَّةَ التشفِّي يَلْحَقُها ذَمُّ النَّدمِ»[٣].

ويعجبني الذي يقول:

لذَّةُ العفو إنْ نظرتَ بعين الـ ـعَدْلِ أشفى من لذة الانتقامِ
هذه تكْسِبُ المحامِدَ والأجـ ـرَ وهذه تجيءُ بالآثامِ[٤]

٥ - تعريفُ العبدِ حقيقةَ نفسِهِ:

ونَفْسَكَ ذُمَّ لا تَذُمْمْ سواها بِعَيْبٍ فهي أجْدَرُ من ذَمَمْتَا[٥]

من فضائلِ الابتلاءِ بالذنوبِ أو المعاصي أنَّ العبدَ يعرِفُ حقيقةَ نفسِهِ، وأنها ظالمةٌ، وأنَّ ما صَدَرَ عنها من الشَّرِّ صَدَرَ من أهلِهِ، إذِ الجَهْلُ والظلمُ مَنْبَعُ الشرِّ كُلِّهِ،

---

(١) دَواوينُ الشِّعْرِ العَربيِّ (٤١/ ٢).

(٢) انظرْ غيرَ مأمورٍ كتابي «الاعتذارُ فَنٌّ وذوقٌ» ففيهِ الرخاءُ والمنى ولولا أن يقال: «لا يَمْدَحُ العروسَ إلا أهلُها» لقلتُ عنه «ألذُّ مِنَ الغنيمةِ الباردةِ» وهي التي حَصَلْتَ من غيرِ أنْ يُصْطَلَى فيها بنارِ الحربِ فهي باردةٌ لذلك. و«من المُنَى»؛ لأنه أطْوَلُ إمتاعًا قال أبو تمَّامٍ:

غرَّاءُ أحلى في الفؤادِ من المُنَى وألذُّ مِنْ ريقِ الأحبةِ في الفمِ

(٣) «البصائرُ والذخائرُ» (٨/ ١٥٣).

(٤) «الذخائرُ والعبقرياتُ» (٢/ ١١١).

(٥) ديوانُ أبي إسحاقَ الإلبيري (٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وأنَّ كُلَّ ما فيها من خيرٍ وعِلْمٍ وهدىً وإنابةٍ وتقوىً من الله ﷻ هو الذي زَكَّاها، وإذا لم يَشَأْ تزكيةَ العبدِ تركَهُ مع دواعي ظُلمِهِ وجَهْلِهِ؛ لأنَّ الله ﷻ هو الذي يُزَكِّي مَنْ يشاءُ من النفوسِ فتزكُو وتأتي بأنواعِ الخَيْرِ والبِرِّ وقد كان من دعائِهِ ﷺ: «اللهمَّ آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنت خَيْرُ مَنْ زكَّاها أنتَ وَلِيُّها ومولاها»(١).

فإذا ابْتَلَى اللهُ العَبْدَ بالذنبِ عَرَفَ نَفْسَهُ ونَقْصَها فَيَجْتَهِدُ مِنْ ثَمَّ في كمالِها.

فَنَفْسَكَ أَكْرِمْ عن أمورٍ كثيرةٍ ... فما لَكَ نفسٌ بَعْدَها تَسْتَعِيرُها(٢)

٦ - خَلْعُ رِداءِ الكِبْرِ:

حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ لا يَعْلَقْكَ مِيسَمُهُ ... فإنَّهُ مَلْبَسٌ نازَعْتَهُ اللهُ(٣)

من فضائِلِ الابْتلاءِ بالذنوبِ أو المعاصي أَنْ يَخْلَعَ العَبْدُ صولَةَ الطاعةِ من قلبِهِ ويَنْتَزِعَ عنه رِداءَ الكِبْرِ والعَظَمَةِ الذي لُبِّسَ له ويَلْبِسَ رِداءَ الذُّلِّ والانكِسارِ، إذْ لو دامَتْ هذه الصَّوْلَةُ والعِزَّةُ في قلبِهِ لَخِيفَ عليه ما هو أعْظَمُ الآفاتِ وأشدُّها فَتْكًا، ألا وهو العُجْبُ. فهو البلاءُ الذي لا يَرْحَمُ صاحِبَهُ.

فعن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لو لَمْ تكونوا تُذْنِبُون لَخِفْتُ عليكم ما هو أَكْبَرُ من ذلك العُجْبَ العُجْبَ»(٤).

دَعِ الكِبْرَ واجْنَحْ للتواضُعِ تَشْتَمِلْ ... ودادَ مبيعِ الوُدِّ صَعْبٌ مرامُهُ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٢٢).

(٢) «دِيوَانُ الْمَعَانِي» لأَبِي هِلَالٍ الْعَسْكَرِي (٢/ ٢٤٨).

(٣) «ديوانُ أبي نُواس» (١٦٦).

(٤) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ الْقُضَاعِيُّ (١٤٤٧)، والْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ (٥/ ٤٥٣) وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (٥٣٠٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ودواءِ بِلسينِ ما جَرَحَتْ بِمِلْطَةٍ فطيبُ كلامِ المَرْءِ طِبُّ كلامِهِ(١)

٧ - نفيُ العُجْبِ:

إنَّ التَّمَدُّحَ من عُجْبٍ ومِنْ أَشَرٍ والمرءُ في العُجْبِ ممقوتٌ وفي الأشرِ(٢)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالمعاصي نَفْيُ العُجْبِ فإنَّ العَبْدَ لو اسْتقامَتْ حالُهُ على الطاعةِ دائمًا لرُبَّما أعجبَتْهُ نَفْسُهُ واغترَّ بعملِهِ، وشَمَخَ بأنفِهِ وظنَّ أنَّهُ وأنَّهُ فإذا ابتلاهُ اللهُ بالذنوبِ أو المعاصي تصاغَرَتْ عنده نَفْسُهُ وعَلِمَ حقيقةَ نفسِهِ وأنها الخطَّاءةُ الجاهلةُ وأنَّ كُلَّ ما فيها من خيرٍ فمِنَ اللهِ وَحْدَهُ لا من نفسِهِ وزالَ عنه رداءُ العُجْبِ الذي خَشِيَ منه رسولُ اللهِ ﷺ على أمَّتِهِ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عليكم ما هو أكبرُ منه العُجْبَ»(٣).

عَجِبْتُ من مُعْجَبٍ بصورتِهِ وكانَ بالأمسِ نطفةً مَذِرَةْ

وفي غَدٍ بعدَ حُسْنِ هيئتِهِ يصيرُ في الأرضِ جيفةً قَذِرَةْ(٤)

٨ - زَوالُ الحَصْرِ والضِّيقِ:

وما مِنْ شِدَّةٍ إلا سيأتي لها مِن بَعْدِ شِدَّتِها رَخاءُ(٥)

من فضائلِ الابتلاءِ بالذنوبِ أو المعاصي أنَّ العَبْدَ يُقيمُ معاذيرَ الخلائقِ وتَتَّسِعُ

---

(١) «الآدابُ النَّافِعَةُ» لابنِ شَمْسِ الْخَلافَةِ (٣٣).

(٢) «ديوانُ معروفِ الرُّصافي» (١٣٩).

(٣) (حَسَنٌ لِغَيْرِهِ) أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ في «زَوَائِدِ مُسْنَدِ الْبَزَّارِ» (٢٣٠٣) وقال الهيثميُّ في المجمع (١٠/ ٢٧٢): إسنادُهُ جَيِّدٌ. وقالَ الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيبِ» (٢٩٢٦): حَسَنٌ لِغَيْرِهِ.

(٤) «الأمالي الشَّجَرِيَّةُ» (١/ ٢٢٩).

(٥) مِنْ رَحيقِ الشِّعْرِ (١٩٨).

رحمتُهُ لهم ويزولُ عنه الحَصَرُ والضِّيقُ والانحرافُ، ويستريحُ العُصاةُ من دعائِهِ عليهم وقنوطِهِ منهم وسؤالِ الله - سبحانه - أنْ يَخْسِفَ بهم الأرضَ ويُرسِلَ عليهم البلاءَ ولا يَنْظُرُ إليهم بعينٍ.

وكَظْمِي الغَيْظَ أولى من محاولتي ... غَيْظَ العَدُوِّ بإضراري بإيماني

لا خَيْرَ في الأمرِ تُرْدِيني مَغَبَّتُهُ ... يومَ الحسابِ إذا أنقضتُ ميزاني[1]

٩- لؤمُ النفسِ:

لا تَقْعُدَنَّ تَلُومُ نَفْسَكَ دائبًا ... فيها وأنتَ بِحُبِّها مشغوفُ[2]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالذنوبِ أو المعاصي مشاهَدَةُ العبدِ نفسَهُ سيئًا مع ربِّهِ مع فَرْطِ إحسانِهِ إليه، فإنَّ ذلكَ يقتضي منه أنْ يَغْفِرَ للمُسِيئِينَ إليه من حولِهِ ويَعْفُوَ عنهم ويسامِحَهُمْ.

هذه الثمراتُ ونحوها متى اجْتناها العبدُ من الذنبِ فهي علامةُ كَوْنِ الابتلاءِ رحمةً في حَقِّهِ، ومن اجْتَنَى منه أضدادَها وأوْجَبَتْ له خِلافَ ذلكَ، فهي علامةُ الشَّقاوةِ، وأنه من هَوَانِهِ على اللهِ وسُقُوطِهِ من عينِهِ خَلَّى بينَهُ وبينَ معاصِيهِ ليُقِيمَ عليه حُجَّةَ عَدْلِهِ، فيعاقِبَهُ باستحقاقٍ، وتتداعى السَّيِّئاتُ في حَقِّهِ فيتولَّدُ من الذنبِ ما شاءَ اللهُ من المهالِكِ والمتالِفِ التي يهوي بها في دَرَكاتِ الجحيمِ، والمعصيةُ كُلُّ المعصيةِ أنْ يَتَوَلَّدَ من الذنبِ ذنبٌ، ثم يتولَّدُ من الاثنين ثالثٌ ثم تقوى الثلاثةُ فيتولَّدُ منها رابعٌ وهَلُمَّ جَرًّا، ذلك أنَّ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ آخِذٌ بَعْضُها بِرِقابِ بَعْضٍ، ويتلو بَعْضُها بَعْضًا، قال بعضُ السَّلَفِ: «إنَّ من ثوابِ الحَسَنَةِ الحَسَنَةَ بعدها وإنَّ من عقابِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بعدها»[3].

---

(١) «رَوْضَةُ العُقَلاءِ» (١١).

(٢) «الأغاني» (١٧/ ٢٦).

(٣) انظرْ «مفتاحَ دارِ السَّعادةِ» (١/ ٢٩٦) بتصرُّفٍ.

آدابُ الابتلاءِ بالذنوب والمعاصي

أَيَّامُـهُ مِثْـلُ شَـهْرِ الـصَّوْمِ طـاهرةٌ من المعاصي وفيه الجُوعُ والعَطَشُ (١)

إذا ابْتُلِيَ المَرْءُ المسلمُ بارْتكابِ الذنوب والمعاصي أيًّا كانَ نوعُها، فإنَّ عليهِ التَّحَلِّي بالآدابِ الآتيةِ:

١ - الحياءُ مِن اللهِ:

وَرُبَّ قبيحـةٍ مـا حـالَ بينـي وبـين رُكُوبِهـا إلَّا الحَيَـاءُ (٢)

الحياءُ من اللهِ هو أَنْ تَنْفَتِحَ في قلبِكَ عَيْنٌ تُرِيكَ أَنَّكَ قائِمٌ بين يَدَي اللهِ.

قال أبو حاتمٍ رَحِمَهُ اللهُ: «الحياءُ حَياآنِ: أَحَدُهما: اسْتِحياءُ العَبْدِ من اللهِ - جَلَّ وعلا - عند الاهتمامِ بمُباشَرَةِ ما خَطَرَ عليهِ.

والثاني: اسْتحياءٌ من المَخْلُوقِين عند الدخولِ فيما يَكْرَهون من القولِ أو الفِعْلِ معًا.

والحيَاآنِ جميعًا محمودان إلا أَنَّ أَحَدَهما فَرْضٌ والآخَرُ فَضْلٌ فلُزُومُ الحياءِ عند مُجانَبَةِ ما نهىٰ اللهُ عنه فَرْضٌ، ولزومُ الحياءِ عند مقارفَةِ ما كَرِهَ النَّاسُ فَضْلٌ» (٣).

وعن سعيدِ بنِ يزيدِ الأَزْديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال للنبيِّ ﷺ: أَوْصِني، قال: **أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما تستحي من الرَّجُلِ الصالحِ من قومِك**» (٤).

---

(١) الآدابُ النافعةُ (٣٣).

(٢) خريدةُ العَصرِ (٢/ ٣٤٦).

(٣) «روضةُ العقلاءِ» (٥٠٧).

(٤) (صَحِيحٌ) رواهُ أحمدُ في «الزُّهدِ» (٤٦)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٦/ ١٤٥) والطبرانيُّ في «الكبيرِ» (٧٧٣٨)، وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «الصحيحةِ» (٧٤١).

ة ضوئيا بـ CamScanner

قال المناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أُوصِيكَ أن تستحي من الله كما تستحي من الرجلِ الصالحِ من قومِكَ» قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذهِ أبْلَغُ موعِظَةٍ وأبيَنُ دلالةٍ بأوجزِ إيجازٍ، وأوْضَحِ بيانٍ، إذْ لا أحَدَ من الفَسَقَةِ إلا وهو يَسْتَحِي من عَمَلِ القبيحِ عن أعينِ أهلِ الصلاحِ، وذوي الهيئاتِ والفَضْلِ؛ أن يراهُ وهو فاعِلُهُ، واللهُ مُطَّلِعٌ على جميعِ أفعالِ خَلْقِهِ، فالعَبْدُ إذا اسْتَحْيَا من رَبِّهِ اسْتِحْياءَهُ من رَجُلٍ صالحٍ من قومِهِ تجنَّبَ جميعَ المعاصي الظاهرةِ، والباطنةِ، فيا لَها من وصيَّةٍ، ما أبْلَغَها، وموعظةٍ ما أجْمَعَها»[1].

وقال الراغِبُ الأصفهانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«حَقٌّ على الإنسانِ إذا هَمَّ بقبيحٍ أنْ يَتَصَوَّرَ أجَلَّ مَنْ في نَفْسِهِ حتى كأنَّهُ يراهُ، فالإنسانُ يستحي مِمَّنْ يَكْبُرُ في نفسِهِ، ولذلك لا يستحي من الحيوانِ، ولا من الأطفالِ، ولا من الذين لا يُمَيِّزون، ويَسْتحي من العالِمِ أكثرَ ممَّا يستحي من الجاهِلِ، ومن الجماعةِ أكثرَ ممَّا يستحي من الواحِدِ.

والذين يستحي منهم الإنسانُ ثلاثةٌ:

البَشَرُ: وهو أكْثَرُ من يستحي منه، ثُمَّ نَفْسُهُ، ثم اللهُ تَعَالَى ومنِ اسْتحيا من الناسِ ولم يَسْتَحْي من نفسِهِ، فنَفْسُهُ عنده أخَسُّ من غيرِهِ، ومن اسْتحيا منها ولم يستحْي من اللهِ: فلِعَدَمِ معرفَتِهِ باللهِ، فالإنسانُ يستحي ممَّنْ يُعَظِّمُهُ ويَعْلَمُ أنَّهُ يراهُ أو يسمَعُ نَجْواهُ، فَيُبَكِّتُهُ، ومن لا يعرفُ اللهَ فكيفَ يعظمُهُ، وكيفَ يعلمُ أنه مُطَّلِعٌ عليه»[2].

إذا لـــم تَخْـــشَ عاقبـــةَ اللَّيـــالي ولـــم تَـــسْتَحْي فاصْـــنَعْ مـــا تَـــشَاءُ

---

(١) «فَيْضُ القديرِ» (٣/ ٧٤).

(٢) الذريعةُ إلى مكارمِ الشريعةِ (٢٨٩).

فـــلا واللهِ مـــا في العَـــيْشِ خيـــرٌ ولا الـــدنيا إذا ذَهَـــبَ الحيـــاءُ(١)

٢ - الخَوْفُ من اللهِ:

إذا المَـرْءُ خـافَ اللهَ خافَـتْ مـن اسْـمِهِ أُسُـودُ الفَـلا والعاديـاتُ الرَّوائِـعُ(٢)

الخوفُ المحمودُ هو الذي يَحُولُ بينَ المَرْءِ وبينَ المعَاصي وهو كما عَرَّفَهُ العلماءُ: تَوَقُّعُ مكروهٍ عن إمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ.

وقيلَ: تَأَلُّمُ القَلْبِ واحتراقُهُ بسَبَبِ تَوَقُّعِ مكروهٍ في المستقبلِ وأخوَفُ الناسِ أعرَفُهم بنفسِهِ وبربِّهِ ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «أنا أعرَفُكم باللهِ وأشَدُّكم له خَشْيَةً»(٣).

وقال اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والخوفُ من اللهِ شَرْطُ الإيمانِ بِهِ ﷻ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ويُعجبُني قَوْلُ ابنِ عُثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «اللهُ يبتلي المَرْءَ بتَيْسِيرِ أسبابِ المعصيةِ حتى يَعْلَمَ مَنْ يَخافُهُ بالغَيْبِ»(٤).

وأعْظَمُ ما يُقَوِّي جانِبَ الخَوْفِ من اللهِ ﷻ تَدَبُّرُ آياتِ الوعيدِ في كتابِ اللهِ. يقولُ اللهُ ﷻ في الغايةِ من ذكرِهِ أحوالَ أهلِ النارِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦].

---

(١) أحسَنُ ما سَمِعْتُ (٨٨).

(٢) «دواوينُ الشعرِ العربي» (٨٣/ ٦).

(٣) رواهُ البُخَارِيُّ (٥٧٦٣)، ومسلمٌ (٢٣٥٦).

(٤) «القولُ المفيدُ على كتابِ التوحيد» (١/ ٣٠).

ويزدادُ هذا الخَوْفُ كُلَّما فَقِهَ المسلمُ عِظَمَ الجنايةِ في مُخَالَفَةِ الرَّبِّ ﷻ وأنَّهُ لا يدري بما يَخْتِمُ له.

على قَدْرِ عِلْمِ المَرْءِ يَعْظُمُ خَوْفُهُ ... فما عالمٌ إلَّا من اللهِ خائفُ

فآمِنُ مَكْرِ اللهِ باللهِ جاهِلٌ ... وخائِفُ مَكْرِ اللهِ باللهِ عارفُ(١)

٣ - الرَّجاءُ:

وإني لأرْجُو اللهَ حتى كأنني ... أرى بِجَميلِ الظَّنِّ ما اللهُ صانِعُ(٢)

الرجاءُ المحمودُ هو الثِّقَةُ بجُودِ الرَّبِّ وفَضْلِهِ وكرمِهِ للعاملين بطاعتِهِ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ قَبْلَ موتِهِ: «لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُمْ إلا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ»(٣).

وعن واثلةَ بنِ الأسْقَعِ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «يقولُ اللهُ ﷻ: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، إنْ ظَنَّ بي خيرًا لَهُ، وإنْ ظَنَّ شرًّا لَهُ»(٤).

---

(١) «مرزبانُ نامه» رُسْتُم بنُ شهريارِ ترجمةُ شهابِ الدينِ شاه (١٥٧).

(٢) «البصائرُ والذخائرُ» (٨/ ٢٧).

(٣) رواه مُسْلِمٌ (٢٨٧٧).

(٤) (صحيحٌ) أخرجهُ ابنُ حبَّانَ (٧١٦)، وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في الصحيحةِ (٦٣٢).

ضوئيا بـ CamScanner

والرجاءُ عند أهلِ العِلْمِ على ثلاثةِ أنواعٍ:

١ - رجاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بطاعةِ اللهِ على نورٍ من اللهِ فهذا رجاءٌ صادقٌ لثوابِ اللهِ الكريمِ.

٢ - رجاءُ رَجُلٍ أذنَبَ ذنبًا ثم تابَ منه فهذا رجاءٌ صادقٌ في مغفرةِ الغفورِ الرحيمِ.

٣ - رجاء رجُلٍ متمادٍ في التَّفْريطِ والخطايا يرجو رحمةَ اللهِ بلا عَمَلٍ. فهذا غرورٌ ورجاءٌ كاذِبٌ.

ومن دُرَرِ ابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ قولُهُ: «والقَلْبُ في سيرِهِ إلى اللهِ بمنزلَةِ الطائرِ، فَالمَحَبَّةُ رَأْسُهُ والخَوْفُ والرَّجاءُ جناحاهُ فمتى سَلِمَ الرأسُ والجناحانِ فالطائرُ جَيِّدُ الطيرانِ، ومتى قُطِعَ الرأسُ ماتَ الطائرُ ومتى فُقِدَ الجناحانِ فهو عُرْضَةٌ لِكُلِّ صائدٍ وكاسرٍ، وأكْمَلُ الأحوالِ اعْتدالُ الخوفِ والرجاءِ وغَلَبَةُ المَحَبَّةِ، فالمحبَّةُ هي المَرْكَبُ والرَّجاءُ حادٍ والخَوْفُ سائقٌ واللهُ الموصِلُ بِمَنِّهِ وكرمِهِ»[1].

خَـــفِ اللهَ وارْجُـــوهُ لِكُـــلِّ عظيمـــةٍ ... ولا تُطِـــعِ الـــنَّفْسَ اللجـــوجَ فَتَنْـــدَما

وكُـنْ بـينَ هـاتينِ مـن الخـوفِ والرَّجـا ... وأَبْـشِرْ بعفـوِ اللهِ إنْ كُنْـتَ مُـسْلِما[2]

٤ - استحضارُ عُقُوبَةِ المعاصي:

إنَّ المعاصـــي لا تُقـــيمُ بمنـــزلٍ ... إلَّا لتجعـــلَ منـــه قَاعًـــا صَفْـــصَفا[3]

ومن آدابِ الابتلاءِ بالمعاصي استحضارُ غِبِّها.

---

(١) «مدارجُ السالكينَ» (١/ ٥١٣).

(٢) موسوعةُ الشعرِ (١/ ٢٢).

(٣) مجموعاتُ القصائدِ الزُّهديَّاتِ (١/ ٤٦٣).

وما من شكٍّ أنَّ عواقِبَ المعاصي سيئةٌ؛ لأنها تُهوِّنُ على العبدِ معصيةَ الله ﷻ فلا يزالُ بِهِ الشَّيطانُ حتىٰ يُوصِلَهُ إلىٰ الشِّركِ ولهذا قال بعضُ أهلِ العلمِ:

المعاصي بريدُ الكُفرِ أي أنَّ الإنسانَ يَرتَحِلُ منها مرحلةً مرحلةً حتىٰ يَصِلَ إلىٰ غايتِهِ، دَلَّ علىٰ ذلك قولُهُ تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

فإذا تأمَّلَ الإنسانُ المسلمُ عواقِبَ المعصيةِ فإنَّ هذهِ من أسبابِ تَرْكِها.

ومن عواقبِ المعصيةِ ما يَجِدُهُ المرءُ في صدرِهِ من ضِيقٍ وضَنكٍ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

وكذلك ما يَجِدُهُ من نَكَدٍ دائمٍ وحُزنٍ مستمرٍّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ومتىٰ أفلَتَ العاصي من عقابِ الدنيا فإنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٤].

وهذا يَشْمَلُ الدُّورَ الثلاثةَ الدنيا والبَرْزَخَ والآخِرَةَ(١).

٥ - الابتعادُ عن الرُّفقةِ السَّيِّئةِ:

عن المرءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قرينِهِ ... فكُلُّ قرينٍ بالمقارَنِ يَقْتَدِي(٢)

ومن آدابِ مَن ابْتُلِيَ بالمعاصي الابتعادُ عن الرُّفقةِ السَّيِّئةِ والبحثُ عن رُفقةٍ صالحةٍ.

---

(١) «الداءُ والدواءُ» (٢٦٨).

(٢) الآدابُ النافعةُ لابنِ شَمْسِ الخلافةِ (٤٠).

ة صوتيا بـ CamScanner

فعن أبي موسىٰ الأشعريِّ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الجَليسِ الصالِحِ وجَليسِ السُّوءِ؛ كحامِلِ المِسْكِ ونافخِ الكيرِ، فحامِلُ المِسْكِ: إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإمَّا أنْ تبتاعَ منه وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رِيحًا طيبة، ونافخُ الكيرِ: إما أنْ يُحرِقَ ثيابَكَ وإمَّا أنْ تَجِدَ منه ريحًا خبيثةً»(١).

فدلَّ الحديثُ علىٰ أنَّ الجليسَ الصالحَ جميعُ أحوالِ جَليسِهِ مَعَهُ خَيرٌ وبَرَكَةٌ ونَفْعٌ ومَغْنَمٌ مِثْلُ حامِلِ المِسْكِ الذي تَنتَفِعُ بما معه إما بِهِبَةٍ، أو بيعٍ، أو أقلِّ شيءٍ: مُدَّةَ الجلوسِ مَعَهُ وأنتَ قَريرُ النَّفْسِ، مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ برائحةِ المِسْكِ وهذا تقريبٌ وتشبيهٌ له بذلك، وإلَّا فما يَحْصُلُ من الخير الذي يصيبُهُ العَبْدُ من جليسِهِ الصالحِ أبْلَغُ وأفضلُ من المسك الأذْفَرِ: فإنَّهُ إمَّا أن يُعَلِّمَك أمورًا تنفعُكَ في دينِكَ، وإمَّا أنْ يُعَلِّمَكَ أمورًا تنفَعُك في دُنياكَ، أو فيهما جميعًا، أو يُهدي لَكَ نصيحةً تَنْفَعُكَ مُدَّةَ حياتِكَ، وبعدَ وفاتِكَ، أو ينهاكَ عمَّا فيه مَضَرَّةٌ لك؛ فأنْتَ معه دائمًا في مَنْفَعَةٍ وربحُكَ مضمونٌ - بإذْنِ اللهِ - فَتَجِدُهُ إنْ رأىٰ أنك مقصِّرٌ في طاعةِ اللهِ؛ أرشدَكَ فتزدادُ هِمَّتُكَ في الطاعةِ، وتَجْتَهِدُ في الزيادةِ منها، وتراهُ يُبَصِّرُكَ بعيوبِك، ويدعوكَ إلىٰ مكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِها بقولِهِ وفعلِهِ وحالِهِ.

وأهوى من الشُّبَّانِ كُلَّ مُجَنَّبٍ ... عن اللَّهْوِ مِقْدامًا إلى كُلِّ طاعَةِ
أخو عِفَّةٍ عَنْ كُلِّ شيءٍ مُحَرَّمٍ ... وذُو رَغْبَةٍ فيما يَقُودُ لجَنَّةِ

وأما جليسُ السُّوءِ فهو السُّمُّ الناقِعُ، والبلاءُ الواقعُ فَتَجِدُهُ يُشَجِّعُ علىٰ فعلِ المعاصي ويرغَبُ فيها، ويفتحُ لِمَنْ خالَطَهُ وجالَسَهُ أبوابَ الشُّرورِ، ويُزَيِّنُ لجليسِهِ أنواعَ المعاصي، ويَحُثُّهُ علىٰ أذِيَّةِ الخَلْقِ ويذكُرُهُ بأمورِ الفَسادِ التي لم تَدُرْ في خَلَدِهِ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٥١٤)، ومسلمٌ (٢٦٢٨).

وأنْ هَمَّ مَنْ يجالِسُهُ بتوبةٍ عن المعاصي، حَسُنَ عنده تأجيلَ ذلك، وطَوَّلَ الأمَلَ، وأنَّ ما أنتَ فيهِ أضوأُ من غيرِكَ وفي إمكانِك التوبةُ والإنابةُ إذا كَبُرَتْ في السِّنِّ، وما يَخصُلُ من مخالطتِهِ ومعاشرتِهِ أعظمُ من هذا بكثير.

تأمَّلْ إلى حالِ أبي طالبٍ ومَنْ كان يجالِسُ وكيفَ سَرَى أثرُ جُلَسائِهِ عليه في خاتمةِ أمْرِهِ.

فعن سعيدِ بنِ المسيَّبِ عن أبيهِ قال: «لمَّا حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ فوَجَدَ عندَه أبا جَهْلٍ وعبدَ اللهِ بنَ أبي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرةِ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: يا عَمِّ، قُلْ لا إلهَ إلا اللهُ كلمةً أشْهَدُ لكَ بها عند اللهِ. فقال أبو جَهْلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ؟ فلَمْ يَزَلْ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عليه ويُعيدُ له تلك المَقَالَةَ حتى قال أبو طالبٍ آخِرَ ما كلَّمَهُمْ هو على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ وأبى أنْ يقولَ: لا إلهَ إلا اللهُ»(١).

فوازِنْ بين هذا وبينَ ما يَجْنِيهِ الجليسُ الصالحُ من جليسِهِ.

إذا لـم أَجِـدْ خِـلًّا تَقِيًّـا فَوَحْـدَتي ... أَلَـذُّ وأَشْـهَى مـن غَـوِيٍّ أُعَاشِـرُهْ

وأَجْلِـسُ وَحْـدي للعبـادةِ آمنًـا ... أَقَـرُّ لِعَينـي مـن جَليسٍ أُحـاذِرُهْ(٢)

٦ - التَّحَوُّلُ عن المكانِ الذي عصى اللهَ فيه:

وأَصْـرِفُ وَجهـي عـن بـلادٍ غَـدا بِهـا ... لِـسانيَ مَـشْكولًا وقَلبـي مُقَفَّـلا(٣)

(١) رواهُ البخاريُّ (١٣٦٠)، ومُسْلِمٌ (٤١).

(٢) الديوانُ المنسوبُ للشَّافِعيِّ (١٠).

(٣) ديوانُ أبي تَمَّامٍ (١٢٧).

من آدابِ الابتلاءِ بالمعاصي التَّحَوُّلُ عن المكانِ الذي عصىٰ اللهَ فيه، سِيَّما إذا كانت في بلادِ شِرْكٍ وأرْضِ فُسُوقٍ ومدينةٌ لا تعرِفُ معروفًا ولا تُنكِرُ منكرًا، ويتأكَّدُ من بلادِ الكُفْرِ إلىٰ ديارِ الإسلامِ فعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه أن نبيَّ الله ﷺ قال: كان فيمَنْ كان قبلكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تسعةً وتسعينَ نَفْسًا، فسَأَلَ عن أعلمِ أهْلِ الأرضِ فَدُلَّ علىٰ راهبٍ، فأتاهُ فقال: إنَّهُ قَتَلَ تسعةً وتسعين نفسًا، فهَلْ له من توبةٍ؟ فقال: لا، فقتَلَهُ، فكَمَّلَ به المائةَ.

ثم سألَ عن أعْلَمِ أهلِ الأرضِ، فَدُلَّ علىٰ عالمٍ، فقال: إنَّهُ قَتَلَ مائةَ نفسٍ فهل له من توبةٍ؟ فقال: نعم، ومَنْ يحولُ بينَكَ وبينَ التوبةِ؟

انطلِقْ إلىٰ أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُناسًا يعبدون اللهَ، فاعْبُدِ اللهَ معهم، ولا تَرْجِعْ إلىٰ أَرْضِكَ، فإنَّها أَرْضُ سُوءٍ. فانْطلقَ حتىٰ إذا نَصِفَ الطريقَ أتاه الموتُ، فاخْتصمَتْ فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ، فقالت ملائكةُ الرحمةِ: جاءَ تائبًا مُقْبِلًا بقلبِهِ إلىٰ اللهِ، وقالتْ ملائكةُ العذابِ: إنَّهُ لم يعملْ خيرًا قطُّ.

فآتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدميٍّ، فقال: «قِيسُوا ما بين الأَرْضَين فإلىٰ أَيَّتهما كان أدنىٰ فهو له، فقاسوا، فوجدوه أدنىٰ إلىٰ الأرضِ التي أرادَ فَقَبَضَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ»(١).

قال العلماءُ: «في هذا استحبابُ مفارقةِ التائِبِ المواضِعَ التي أصابَ بها الذنوبَ، والأَخْدانَ المساعدين له علىٰ ذلك ومُقَاطَعَتُهُمْ ما داموا علىٰ حالِهم، وأَنْ يَسْتبدِلَ بهم صُحْبَةَ أهلِ الخَيْرِ والصَّلاحِ والعلماءِ والمتعبِّدين الوَرِعين ومَنْ يَقتدِي بهم ويَنْتَفِعُ بصُحْبَتِهم، وتتأكَّدُ بذلك توبتُهُ»(٢).

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ (٢٧٦٦).

(٢) الفتحُ الربانيُّ (١٩/ ٣٤٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ويُعجبني قولُ مُهَذَّب الدِّين:

وإذا الكريمُ رأى الخُمولَ نَزِيلَهُ ... في منزلٍ فالرأيُ أنْ يَتَحَوَّلا

كالبدرِ لمَّا أنْ تضاءَلَ جَدَّ في ... طَلَبِ الكمالِ فحازَهُ مُتَنَقِّلا(١)

٧ - تَرْكُ المعاصي:

لا تَحْقِرَنَّ من الذُّنوبِ صِغارَها ... فالقَطْرُ منه تَدَفَّقُ الخِلْجانُ(٢)

على المرءِ الذي ابْتلاهُ اللهُ بالمعاصي أنْ يُبادِرَ إلى الإقلاعِ عنها والنَّدَمِ والعَزْمِ على أنْ لا يعودَ، ورَدُّ المظالمِ إلى أهلِها أو التَّحَلُّلِ منهم.

وأوَّلُ ذلك تَرْكُ الكبائرِ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

أيَضْمَنُ لي فَتًى تَرْكَ المَعاصي ... وأرْهَنُهُ الكفالةَ بالخلاصِ

أطاعَ اللهَ قومٌ فاستراحُوا ... ولم يتجرَّعُوا غُصَصَ المعاصي(٣)

٨ - الاسْتغفارُ والتَّوْبةُ:

بادِرْ مَتابًا عَسَى ما كان من زَلَلٍ ... وما اقْتَرَفْتَ من الآثامِ يَغْتَفِرُ(٤)

بعد الإقلاعِ عن المعاصي ورَدِّ المظالمِ يأتي دَوْرُ الاسْتغفارِ والتَّوبةِ.

---

(١) «الفلاكةُ والمفلوكونَ» لشهابِ الدينِ المِصْرِيِّ (١١٢).

(٢) «الفضائلُ الزُّهْدِيَّاتُ» (١/ ١٦١).

(٣) «ديوانُ ابنِ المباركِ» (١١).

(٤) «مجموعةُ القصائدِ الزُّهْدِيَّاتِ» (١/ ٥٥٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وقد أمَرَ اللهُ ﷻ عبادَهُ بالتَّوبةِ من جميعِ المعاصي سواءً أكانتْ صغيرةً أو كبيرةً فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ولا خِلافَ بين الأُمَّةِ في وجوبِ التَّوبةِ، والمعنى وتوبوا إلى اللهِ؛ فإنكم لا تَخْلُون من سهْوٍ وتقصيرٍ في أداءِ حقوقِ اللهِ - تعالى - فلا تَتْرُكوا التوبةَ في كُلِّ حالٍ»(١).

والاستغفارُ هو طَلَبُ وِقايةِ شَرِّ ما مضى كما التوبةُ طَلَبُ وقايةِ شَرٍّ يخافُهُ في المستقبلِ فهما كجناحي طائرٍ قَرَنَ اللهُ بينهما في أكثرِ من آيةٍ من كتابِهِ.

سُئِلَ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللهُ عن الفَرْقِ بين التوبةِ والاستغفارِ وهَلْ للاستغفارِ أثرٌ في تخفيفِ الذَّنْبِ مع الإصرارِ؟

فأجابَ: الاستغفارُ يكونُ عن ذنبٍ مَضَى، والتوبةُ لما يُستَقْبَلُ، فالاستغفارُ مُقَدِّمَةٌ للتوبةِ، كالتَّخْليةِ قبلَ التَّحْليةِ؛ ولذلك قَرَنَ اللهُ بينهما، كما في قولِهِ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣](٢).

ألا لِلَّهِ أنتَ متى تَتُوبُ ... وقد صَبَغَتْ ذوائِبَكَ الخُطوبُ

كأنَّكَ لستَ تَعْلَمُ أيَّ حَثٍّ ... يَحُثُّ بِكَ الشُّروقُ، كما الغُروبُ

أراكَ تَغِيبُ ثُمَّ تؤوبُ يَوْمًا ... ويوشِكُ أنْ تغيبَ ولا تؤوبُ(٣)

---

(١) «الجامعُ لأحكامِ القرآنِ» (١٢/ ١٥٨).

(٢) ثمراتُ التدوينِ من مسائلِ ابنِ عثيمين (١٤١).

(٣) ديوانُ أبي العتاهيةِ (١٢).

٩- جِهادُ النَّفْسِ:

والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ(١)

ومن آدابِ الابتلاءِ بالمعاصي جهادُ النفسِ.

وما من شكٍّ أنَّ جهادَ النَّفْسِ من أعظمِ أنواعِ الجهادِ فَمَنْ جاهَدَها وزَمَّها بزمامِ الإيمانِ، وألْجَمَها بلجامِ التقوىٰ أفْلَحَ كُلَّ الفَلاحِ فعَنْ فُضالَةَ بنِ عُبيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «... **المُجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نفسَهُ في طاعةِ اللهِ والمهاجرُ من هَجَرَ الخطايا والذنوبَ**»(٢).

قال ابنُ بَطَّالٍ رحمه الله: «جهادُ المرءِ نَفْسَهُ هو الجهادُ الأكملُ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠]. ويَقَعُ بتمنُّعِ النفسِ عن المعاصي، وبِمَنْعِها من الإكثارِ من الشَّهَواتِ المباحةِ لِتَتَوَفَّرَ لها في الآخرةِ»(٣).

مراتِبُ مجاهدةِ النَّفْسِ:

مراتِبُ مجاهدةِ النفسِ أربعُ مراتِبَ كما جاءَ عن بَعْضِ السَّلَفِ:

١- حَمْلُها علىٰ تعلُّمِ أمورِ الدِّينِ.

٢- حَمْلُها علىٰ العملِ بذلك.

٣- حَمْلُها علىٰ تعلُّمِ ما لا تَعْلَمُ.

٤- الدعاءُ إلىٰ التوحيدِ، وقتالُ مَنْ خالَفَ دِينَهُ وجَحَدَ نِعَمَهُ.

---

(١) «موسوعةُ الشعرِ الإسلامي» (٣٣٩/ ١١٩).

(٢) (صحيحٌ) أخرجهُ الترمذيُّ (١٦٢١) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٦٧٩).

(٣) فتحُ الباري (١١/ ٣٣٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

عُدَّةُ المجاهِدِ:

لا بُدَّ لِمَنْ يُجاهِدُ نَفْسَهُ من حَمْلِ العُدَّةِ يتسلَّحُ بها ولا سلاحَ أعظمُ وأوسعُ من الصَّبْرِ فمَنْ صَبرَ على جِهادِ نفسِهِ وهَواهُ وشيطانِهِ غَلَبَهم وجَعَلَ له النَّصْرَ والغَلَبَةَ، وملَكَ نَفْسَهُ وصارَ مَلِكًا عزيزًا، ومَنْ جَزِعَ ولم يَصْبِرْ على مُجاهدةِ ذلك غُلِبَ وقُهِرَ، وأُسِرَ وصار عبدًا ذليلًا أسيرًا في يَدِ شيطانِهِ وهواهُ كما قيل:

إذا المرءُ لم يَغْلِبْ هواهُ أقامَهُ ... بمَنْزِلةٍ فيها العزيزُ ذليلُ[1]

ولله دَرُّ القائِلِ:

ونَفْسَكَ فازْجُرْهَا عنِ الغَيِّ والخَنَا ... ولا تَتَّبِعْهَا فَهْيَ أُسُّ المَفَاسِدِ

وحاذِرْ هواها ما استطعتَ فإنَّهُ ... لَيَصُدُّ عن الطاعاتِ غَيْرَ المُجاهِدِ[2]

١٠ - جِهادُ الشيطانِ:

جاهِدِ النَّفْسَ والشَّيطانَ واعْصِهِمَا ... وإنْ هُما مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ[3]

ومن آداب الابتلاء بالمعاصي جهادُ الشيطان، فالشيطانُ عدوٌّ لنا حَذَّرَنا اللهُ منه، فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

وأَمَرَنا اللهُ بالاستعاذةِ منه، ومعناها أنْ نستجيرَ باللهِ من شَرِّهِ لأنَّه يَقِفُ للمسلم

---

(١) «مِنْ رحيقِ الشعرِ» (٢٧٠).

(٢) «القصائدُ الزُّهْدِيَّاتُ» (٢/ ٢٥٨).

(٣) «دواوينُ الشِّعرِ العربيِّ» (٨٧/ ٤٧٢).

ة ضوئيا بـ CamScanner

بكُلِّ طريقٍ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦]، ويَحضُرُهُ في كُلِّ شيءٍ.

ففي «صحيحِ مسلمٍ» من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إن الشَّيطانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عند كُلِّ شيءٍ من شأنِهِ، حتىٰ يَحْضُرَهُ عند طعامِهِ، فإذا سقَطَتْ من أَحَدِكم اللُّقمةُ فليُمِطْ ما كان بها من أذىً ثم ليأكُلْها ولا يَدَعْها للشَّيطانِ، فإذا فَرَغَ فَليلْعَقْ أصابِعَهُ؛ فإنَّهُ لا يدري في أيِّ طعامِهِ تكونُ البَرَكَةُ»(١).

ولا بُدَّ من جهادِ الشَّيطانِ جهادًا لا يَنتَهي إلا مع انتهاءِ الحياةِ.

وجهادُ الشَّيطانِ كما قال ابنُ القَيِّمِ رحمه الله مَرْتَبَتانِ:

أحدُهما: جهادُهُ علىٰ دَفْعِ ما يُلْقي إلىٰ العَبْدِ من الشُّبُهاتِ، والشُّكوكِ القادحةِ في الإيمانِ.

الثانيةُ: جِهادُهُ علىٰ دَفْعِ ما يُلقي إليه مِن الإراداتِ الفاسِدَةِ والشَّهَواتِ، فالجهادُ الأوَّلُ بَعْدَهُ اليَقينُ والثاني بعده الصَّبرُ.

قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجْدَة: ٢٤].

فأَخْبَرَ أنَّ إمامةَ الدِّينِ، إنَّما تُنَالُ بالصَّبْرِ واليَقينِ، فالصَّبْرُ يَدْفَعُ الشَّهَواتِ والإراداتِ الفاسِدَةَ، واليقينُ يدفَعُ الشُّكوكَ والشُّبُهاتِ»(٢).

وخالِفِ النَّفْسَ والشَّيطانَ واعْصِهِما ... وإنْ هُما محَّضاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

ولا تُطِعْ منهما خَصْمًا ولا حَكَمًا ... فأنتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ(٣)

---

(١) «رواهُ مسلمٌ» (٢٠٣٣).

(٢) «زادُ المعادِ» (٣/ ١٠).

(٣) «دواوينُ الشِّعرِ العربيِّ» (٩/ ٧٠).

١١ - عدم المجاهرة:

عبدُ سوءٍ مُجاهرٌ بالمعاصي ... لا بعثمي الفحشاءَ فيمَنْ يُعثمي[١]

من آداب الابتلاءِ بالذُّنوبِ أو المعاصي عَدَمُ المُجَاهَرَةِ بها فعَنْ أبي هُرَيرةَ ﷺ قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: كُلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرون، وإنَّ من المُجاهَرةِ أنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ باللَّيلِ عَمَلًا فيُصْبِحُ وقد سَتَرَهُ اللهُ فيقولُ: يا فلانُ عَمِلْتُ البارحةَ كذا وكذا وقد باتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عليه»[٢].

فقولُهُ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المُجاهرون» أي لكنِ المجاهرون بالمعاصي لا يعافون ومنه قولُهُ تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لكنْ قليلًا منهم لم يَشربوا»[٣].

وهذه المجاهرةُ التي هي التَّحَدُّثُ بالمعاصي، يَجْلِسُ الرَّجُلُ في المجلسِ كما أخبرَ النبيُّ ﷺ ويقولُ عَمِلْتُ البارحةَ[٤] كذا وكذا فيَتَحَدَّثُ بما فَعَلَ ويَكْشِفُ ما سَتَرَ اللهُ لأنَّ الجَهْرَ بالذنوبِ أو المعاصي اسْتِخْفافٌ بمَنْ عُصِيَ وهو اللهُ ﷻ وإظهارُ العنادِ لأهلِ الطاعةِ وقد أصبحتِ المجاهرةُ سِمَةً من سماتِ بعضِ الناسِ في هذا الزمانِ واللهُ المُسْتعانُ.

ويجوزُ لِمَنِ ابْتُلِيَ بمعصيةٍ أنْ يُخْبِرَ شيخَهُ أو معلِّمَهُ أو عالمًا أو طالبَ عِلْمٍ يرجو بإخبارِهِ أنْ يُعَلِّمَهُ مخرجًا منها ويكونُ ذلك على وَجْهِ السُّؤالِ والاسْتفتاءِ لا على

---

(١) ديوانُ ابنِ الرومي (٤٣٣٩).

(٢) رواهُ البُخاريُّ (٦٠٦٩)، ومُسْلِمٌ (٢٩٩٠).

(٣) شرحُ المشكاةِ للطِّيبي (٦/ ٢٠٣٤).

(٤) البارحةُ: أقربُ ليلةٍ مَضَتْ.

ة ضوئيا بـ CamScanner

وَجْهِ المُجَاهَرَةِ والاستهزاءِ بدليل حديثِ مَنْ واقَعَ امْرَأَتَهُ في رمضانَ فجاءَ فأخبرَ النبيَّ ﷺ لِكي يُعَلِّمَهُ المَخْرَجَ ولم يُنكِرْ عليه ﷺ في إخبارِهِ(١).

١٢ - عَدَمُ الرِّضا بالذُّنوبِ:

تَصِلُ الذُّنُوبَ إلى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجي دَرَكَ الجِنَانِ بها وَفَوْزَ العابِدِ(٢)

من آدابِ الابْتلاءِ بالذُّنوبِ والمعاصي عَدَمُ الرِّضا بها؛ لأنها من فعل العبد واختياره فلا يجب الرضا بها، بل عليه الندم والاستغفار وإن كان كل شيءٍ بقدر الله ﷻ بما في ذلك الذنوب والمعاصي.

قال شَيْخُ الإسلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للإنسانِ أنْ يرضىٰ بما يقدر الله عليه من المصائبِ التي ليست ذنوبًا»(٣).

---

(١) رواهُ البُخَارِيُّ (١٩٣٦)، وَمُسْلِمٌ (١١١١).

(٢) العقدُ الفريدُ (٣/ ١٢٨).

(٣) «مجموعُ الْفَتَاوَىٰ» (٨/ ١٩١).

فضائل الابتلاء بالسَّرَّاء

أَلْطَافُ رَبِّكَ فِي الضَّرَّاءِ كَامِنَةٌ ... فَكُنْ لِغَايَةِ السَّرَّاءِ مُنْتَظِرَا(١)

فضائِلُ الابْتِلاءِ بالسَّرَّاءِ لا تَقِلُّ عن الابْتِلاءِ بالضَّرَّاءِ وإنْ كان الصَّبْرُ على السَّراءِ عزيزًا وأهْلُهُ أقَلَّ من القليلِ كما قال الصحابيُّ الجليلُ وأحَدُ العَشَرةِ المُبَشَّرين بالجَنَّةِ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: «ابْتُلينا مع النبيِّ ﷺ بالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنا، ثُمَّ ابْتُلينا بَعْدَهُ بالسَّرَّاءِ فَلَمْ نَصْبِرْ»(٢).

ومن فضائِلِ الابتلاء بالسَّرَّاء ما يأتي:

١ - استخراجُ عُبُودِيَّةِ السَّرَّاءِ:

لا تُبْطِرُ السَّرَّاءُ لي خُلُقًا ولا ... أَغْدو على ضَرَّائِها مُتَخَشِّعَا(٣)

من فضائِلِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ استخراجُ عبوديَّةِ السَّرَّاءِ وهي الشُّكْرُ وعبوديَّةِ الضَّرَّاءِ وهي الصَّبْرُ وهذا لا يَتِمُّ إلا بأنْ يُقَلِّبَ اللهُ الأحوالَ على العَبْدِ حتى يَتَبَيَّنَ صِدْقُ عُبودِيَّتِهِ لِلَّهِ ﷻ فإنْ كان مُؤْمِنًا حقًّا وكان في أمْرِهِ خَيْرًا؛ فإنَّهُ إنْ كان في سَرَّاءَ شَكَرَ فكان خَيْرًا له، وإن كان في ضَرَّاءَ صَبَرَ فكان خيرًا له.

فعن صُهَيْبِ بنِ سِنَانٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «عجبًا لأمْرِ المؤمنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأحَدٍ إلا للمؤمنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له، وإنْ

---

(١) خريدةُ العَصرِ (٢/ ٧٧٠).

(٢) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

(٣) الحليةُ السيراءُ (١/ ٢٩٨).

ة صوتيا بـ CamScanner

أصابته ضراءُ صبرَ فكان خيرًا له»(١).

ولا شكَّ أنَّ المسلمَ يتقلَّبُ بين هذين السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ كما قيل:

أخي عُدَّ ما قاسيتَهُ وتقلَّبتْ ... عليكَ بهِ الدنيا من الخيرِ والشرِّ

فهلْ لكَ في الدنيا سوى الساعةِ التي ... تكونُ بها السَّرَّاءُ أو حاضرُ الضُّرِّ(٢)

وقال آخر:

لكَ الحمدُ يا مولايَ كمْ لكَ مِنَّةٌ ... عليَّ، وفضلًا لا يقومُ بهِ شُكْرِي(٣)

ويكونُ شُكْرُ النعمة بثلاثةِ أمورٍ:

١ - التَّحدُّثُ بها ظاهرًا ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

٢ - الاعترافُ بها باطنًا أنها من الله.

٣ - صَرْفُها في طاعةِ الله فإذا صَرَفْتها في معصيةِ الله؛ فإنَّكَ لا تكون شاكرًا لها.

فإذا أنعمَ الله عليك بالعلم فَشُكْرُهُ أنْ تَبْذُلَهُ في نَفْعِ الْخَلْقِ، وإذا أنْعَمَ اللهُ عليك بالمالِ فَشُكْرُهُ أن تُوَسِّعَ علىٰ المحتاجين والفقراءِ والمُصابين.

وإذا أنْعَمَ اللهُ عليك بالجاهِ فَشُكْرُهُ أن تَبْذُلَهُ في الشفاعة للمحتاجين عند مَنْ عندَهم أُمُورُ النَّاسِ، وهكذا.

سأشكرُ نُعماكَ التي مِنْ أقلِّها ... قَطَائِفُ مِنْ قَطْرِ النَّباتِ لها بَحْرُ

---

(١) «رواهُ مُسْلِمٌ» (٢٩٩٩).

(٢) «العقدُ الفريدُ» (٦/ ١٩٩).

(٣) ديوانُ أُسَامَةَ بنِ مُنْقِذٍ (٦١٩).

ة ضوئيا بـ CamScanner

أمُدُّ لها كفِّي فيهتزُّ فرحةً كما انتفضَ العصفورُ بللهُ القطرُ(١)

٢ - الاستغناءُ عن الناسِ:

صُنْ بالتعفُّفِ عزَّ النفسِ مجتهدًا فالنفسُ أعلى من الدنيا لذي الهممِ(٢)

من فضائلِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ الاستغناءُ عَنِ النَّاسِ فعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَغْنُوا عن الناسِ ولَوْ بشَوْصِ السِّواكِ»(٣) فأنتَ تَجدُ الأمْرَ بالاستغناءِ عن الناسِ حتىٰ بِغُسالِ السِّواكِ وهي كنايةٌ عن الاستغناءِ ولو بأحْقَرِ حَقِيرٍ وأقَلِّ قليلٍ وفي حُصُولِ السَّرَّاءِ يَحْصُلُ الاسْتِغْناءُ.

فعن عمرِو بنِ العاص رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجُلِ الصَّالِحِ»(٤) فإذا عَرَفْتَ هذا عَرَفْتَ أنَّ الخَيْرَ والشَّرَّ لا يَحْصُلُ للرَّجُلِ من المالِ بل نَفْسُ الرجُلِ هي التي تُصَرِّفُ المالَ فيما فيه خَيْرٌ له أو شَرٌّ له.

قال سفيانُ الثَّوريُّ رحمه الله: «لأَنْ أُحَلَّفَ عَشَرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ أُحاسَبُ عليها أَحَبُّ إليَّ من أنْ أحْتاجَ إلىٰ الناسِ... ولولا هذهِ الدَّرَاهِمُ لَتَمَنْدَلَ بِنا هؤلاءِ المُلُوكُ»(٥).

وكان داودُ بنُ عليٍّ رحمه الله يقولُ: «لأَنْ يَتْرُكَ الرَّجُلُ مالَهُ بعدَهُ لأعْدائِهِ خَيْرٌ مِن أنْ يَحتاجَ في حياتِهِ لأوليائِهِ»(٦).

---

(١) ديوانُ ابنِ نَباتَةَ المصريِّ (١٣٤).

(٢) «الكشكولُ» (١/ ١٥٩).

(٣) (صَحِيحٌ) أخرجهُ الطبرانيُّ في «الكبيرِ» (١٢٢٥٧)، وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (٩٤٧).

(٤) (صَحِيحٌ) أخرجَهُ أحْمَدُ (١٧٨٣٥)، وَصَحَّحَهُ الألْبَانِيُّ في «المِشْكَاةِ» (٣٧٥٦).

(٥) «روضةُ الأخْيَارِ» لابنِ الخَطِيبِ (١٢٢).

(٦) «غُرَرُ الخَصَائِصِ» للوطوط (٣٩٠).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ في الدنيا أَنْفَعُ للعُلَماءِ مِنْ جَمْعِ المالِ للاستغناءِ عن الناسِ، فإنَّهُ إذا ضُمَّ إلى العِلْمِ حِيزَ الكَمالُ، وإنَّ جمهورَ العلماءِ شَغَلَهُم العِلمُ عن الكَسْبِ فاحتاجوا إلى ما لا بُدَّ منه، وقَلَّ الصَّبْرُ فَدَخَلوا مداخِلَ شَانَتْهُمْ، وإنْ تَأَوَّلُوا فيها»(١).

والمالُ في الأَصْلِ فِتْنَةٌ، لحديثِ كَعْبِ بنِ عياضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وإنَّ فِتْنَةَ أُمَّتي المالُ»(٢).

والذي ينبغي للمسلمِ هو التوسُّطُ وأنْ يَطْلُبَ لِنَفْسِهِ الكَفَافَ التي سألَها رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «اللهمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ محمَّدٍ قوتًا» وفي روايةٍ «كَفَافًا»(٣).

وقال ﷺ: «قد أَفْلَحَ مَنْ رُزِقَ كَفافًا وقَنَّعَهُ اللهُ بما آتاهُ»(٤).

ويُعجبني قولُ الجُرجانيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولَوْ أنَّ أهْلَ العِلْمِ صانُوهُ صانَهُمْ ... ولو عَظَّمُوهُ في النفوسِ لَعُظِّمَا

ولكِنْ أهانُوه فهانَ ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطْماعِ حتَّى تَجَهَّمَا(٥)

٣ - الإنفاقُ على النَّفْسِ:

صُنْتُ نفسي عَمَّا يُدَنِّسُ نفسي ... وتَرَفَّعْتُ عَنْ نَدى كُلِّ جِبْسِ(٦)

---

(١) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» (١٧٥).

(٢) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ التِّرمِذِي (٢٣٣٦)، وصَحَّحَهُ الألْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢١٤٨).

(٣) رواهُ البُخَارِيُّ (٦٤٦٠) وَمُسْلِمٌ (١٠٥٥) واللَّفْظُ لَهُ.

(٤) رواهُ مُسْلِمٌ (١٠٥٤).

(٥) «الأَمالِي الشَّجَرِيَّة» (١/ ٣٦).

(٦) «ديوانُ البُحْتُرِي» (٧٢).

ة ضوئيا بـ CamScanner

من فضائلِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ الإنفاقُ على النَّفسِ في عبادةٍ كالحَجِّ والجهادِ، وفي الاستعانةِ على العبادةِ كالمطعَمِ والملبسِ والمسكنِ وغيرِها من ضروريَّاتِ الحياةِ فإنَّ هذهِ الحاجاتِ إذا لم تيسَّرْ لم يتفرَّغِ القلبُ للعبادةِ وما لا يُتَوَصَّلُ إلى العبادةِ إلَّا بهِ فهو عبادةٌ.

إذا المَرْءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فكلُّ رِداءٍ يرتديهِ جَمِيلُ

وإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها ... فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبِيلُ (١)

ويعجبني قولُ الجرجانيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إذا شِئْتَ أنْ تَسْتَقْرِضَ المالَ مُنْفِقًا ... على شَهَواتِ النَّفْسِ في زَمَنِ العُسْرِ

فَسَلْ نفسَكَ الإنْفاقَ من كَنْزِ صَبْرِها ... عليكَ وإنظارًا إلى زَمَنِ اليُسْرِ (٢)

٤ - الإنفاقُ على العِيالِ:

ومَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عيالٍ ومُقْتِرًا ... يُغَرِّرْ ويَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ (٣)

من فضائلِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ النَّفَقَةُ على الأهلِ والعيالِ فعن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا أنفقَ المُسْلِمُ نفقةً على أهْلِهِ وهو يَحْتَسِبُها كانت لَهُ صَدَقَةً»(٤).

وتأمَّلْ - أخي - إلى قولِهِ ﷺ: «يَحْتَسِبُها» تَجِدْ أنَّ عَدَمَ وجودِ لَذَّةِ الإنفاقِ على الأهْلِ والعيالِ إنَّما هو بسببِ عَدَمِ الاحْتسابِ واللهُ المستعانُ.

---

(١) «التَّذْكِرَةُ السَّعْدِيَّةُ» (٢).

(٢) مُعْجَمُ الأُدَباءِ (٤/ ١٧٩٩).

(٣) «أَمَالِيُ القَالِي» (٢/ ٢٣٤).

(٤) رواهُ البُخَارِيُّ (٥٣٥١)، ومُسْلِمٌ (٣٣٢٢).

٦- مواساةُ الفقراءِ والمساكينِ:

لا زال غَيْثُ نَداكَ يمطرُ فضةً ... أو عَسْجدًا تَغْنَى بِهِ الفقراءُ[١]

من فضائلِ الابْتلاءِ بالسَّرَّاءِ مواساةُ الفقراءِ والمساكينِ فعن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاةٍ من الأرضِ، فسَمِعَ صوتًا في سحابةٍ: اسْقِ حديقةَ فلانٍ، فتنحَّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه في حَرَّةٍ فإذا شَرْجَةٌ من تلكَ الشِّراجِ قد استوعَبَتْ ذلكَ الماءَ كُلَّهُ، فتتبَّعَ الماءَ فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقَتِهِ يُحَوِّلُ الماءَ بِمِسْحَاتِهِ، فقال له: يا عبدَ اللهِ ما اسمُكَ؟ قال: فُلانٌ، للاسمِ الذي سَمِعَ في السَّحابَةِ، فقال له: يا عبدَ اللهِ لِمَ تسألُني؟

قال: إنِّي سمِعْتُ صوتًا في السحابِ الذي هذا ماؤهُ يَقُولُ اسْقِ حديقةَ فلانٍ لاسْمِكَ، فما تَصْنَعُ فيها؟

قال: أما إذا قُلْتَ هذا، فإني أَنظُرُ إلىٰ ما يَخْرُجُ منها، فأتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وآكُلُ أنا وعيالي ثُلُثًا وأَرُدُّ فيها ثُلُثَهُ».

وفي روايةٍ: «فثُلُثُهُ في المساكين والسائلين وابنِ السَّبيلِ»[٢].

وقد يَبْتَلي اللهُ عبدًا من عبادِهِ بالسَّرَّاءِ ثم يَبْتَلِيهِ ببَعْضِ المساكينِ أو الفقراءِ أو ذي الرَّحِمِ فتشِحُّ نَفْسُهُ كما هو حالُ الأقْرَعِ والأبْرَصِ أو تجودُ كما في قِصَّةِ الأعْمَىٰ[٣] والمُوَفَّقُ من وَفَّقَهُ اللهُ ولا يَنْتَظِرِ أحَدُنا أنْ يُرْسِلَ اللهُ إليه مَلَكًا من الملائِكةِ، وأفْلَحَ كُلَّ

---

(١) ديوانُ صَفِي الدين الحِلِّي (٤٦٤).

(٢) رواهُ مسلمٌ (٢٩٨٤) والروايةُ الثانيةُ لَهُ.

(٣) رواهُ البخاريُّ (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

ة صوتيا بـ CamScanner

٦ - مواساةُ الفقراءِ والمساكينِ:

لا زال غَيثُ نَداكَ يمطرُ فضةً أو عَسجدًا تَغنَى بِهِ الفقراءُ[١]

من فضائلِ الابْتلاءِ بالسَّرَّاءِ مواساةُ الفقراءِ والمساكينِ فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاةٍ من الأرضِ، فسَمِعَ صوتًا في سحابةٍ: اسْقِ حديقةَ فلانٍ، فتنحَّىٰ ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه في حَرَّةٍ فإذا شَرْجَةٌ من تلكَ الشِّراجِ قد استوعَبَتْ ذلكَ الماءَ كُلَّهُ، فتتبَّعَ الماءَ فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقَتِهِ يُحَوِّلُ الماءَ بِمِسْحَاتِهِ، فقال له: يا عَبْدَ اللهِ ما اسمُكَ؟ قال: فُلانٌ، للاسمِ الذي سَمِعَ في السَّحابَةِ، فقال له: يا عبدَ اللهِ لِمَ تسألُني؟

قال: إنِّي سمِعْتُ صوتًا في السحابِ الذي هذا ماؤهُ يَقُولُ اسْقِ حديقةَ فلانٍ لاسْمِكَ، فما تَصْنَعُ فيها؟

قال: أما إذا قُلْتَ هذا، فإني أَنْظُرُ إلىٰ ما يَخْرُجُ منها، فأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وآكُلُ أنا وعيالي ثُلُثًا وأَرُدُّ فيها ثُلُثَهُ».

وفي روايةٍ: «فثُلُثُهُ في المساكين والسائلين وابنِ السَّبيلِ»[٢].

وقد يَبْتَلي اللهُ عبدًا من عبادِهِ بالسَّرَّاءِ ثم يَبْتَلِيهِ ببَعْضِ المساكينِ أو الفقراءِ أو ذي الرَّحِمِ فتشِحُّ نَفْسُهُ كما هو حالُ الأقْرَعِ والأبْرَصِ أو تجودُ كما في قِصَّةِ الأعْمَىٰ[٣] والمُوَفَّقُ من وَفَّقَهُ اللهُ ولا يَنْتَظِرِ أحَدُنا أنْ يُرْسِلَ اللهُ إليه مَلَكًا من الملائِكةِ، وأَفْلَحَ كُلَّ

---

(١) ديوانُ صَفِي الدين الحِلِّي (٤٦٤).

(٢) رواهُ مسلمٌ (٢٩٨٤) والروايةُ الثانيةُ لَهُ.

(٣) رواهُ البخاريُّ (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

ة ضوئيا بـ CamScanner

الفلاح من تخلّص من شُحّ نفسه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

فَمَنْ يوق شُحّ نفسه فقد وُقِيَ نفسهُ الظلمَ والقطيعةَ والحَسَدَ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إياكم والشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَنْ كان قبلكُمْ؛ أمَرَهُم بالبُخْلِ فبَخِلُوا، وأمَرَهُم بالظُّلْمِ فظَلَمُوا، وأمَرَهم بالقطيعةِ فقَطَعُوا»(١).

وكان عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه يُكْثِر من الدعاءِ في طوافِهِ: اللهمَّ قِني شُحَّ نَفْسِي، فقال لَهُ رَجُلٌ: ما أكثرَ ما تدعو بهذا.

فقال: إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسي وُقِيتُ الشُّحَّ والظُّلْمَ والقَطيعةَ»(٢).

ويُعجبني قول عمرو بنُ الأهتمِ:

فَرِيني فإنَّ الشُّحَّ يا أُمَّ هَيْثَمٍ ... لِصالحِ أعلاقِ الرِّجالِ سَرُوقُ(٣)

٧- عمارةُ المساجدِ:

رأيتُكَ تَبْني مَسْجِدًا عن دِيانةٍ ... فأنتَ بِحَمْدِ اللهِ رَجْلٌ مُوَفَّقُ(٤)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ عمارةُ المساجدِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

---

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود (١٦٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٨٩).

(٢) مفهومُ الصَّبْرِ عندَ ابنِ تيميةَ (٢/ ٥).

(٣) «شرحُ ديوانِ الحماسةِ» للأصفهاني (١١٥٦).

(٤) «حماسةُ الظُّرفاءِ» (٣٠) للوزيري.

ة صوبا بـ CamScanner

وتكونُ عمارةُ المساجدِ ببنائِها، وتَنْظِيفِها وفَرْشِها وإنارتِها، كما تكونُ عمارَتُها بالصلاةِ فيها وكَثْرةِ التَّرَدُّدِ عليها لحضُورِ الجماعاتِ وتعلُّمِ وتعليمِ العلومِ النافِعةِ وأعظَمُ العلومِ النافعةِ تعَلُّمُ القرآنِ وتعليمُهُ، وغيرُ ذلك من أنواعِ الطاعاتِ(١).

وقال اللهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

فاللهُ ﷻ يُشِيدُ بنبيِّهِ وخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام ببنائِهِ للبيتِ الحرامِ وفي آخرِ الآيةِ ما يُرْشِدُ إلى أنَّ بناءَ البيتِ من الأعمالِ الصالحةِ التي عَمِلَها.

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ بنى للهِ مسجدًا ولو كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ لبَيْضِها بنى اللهُ لَهُ بيتًا في الجَنَّةِ»(٢). ويُعجبني الذي يقولُ:

أَلَمْ تَرَنا نُهْدِي إلى اللهِ مالَهُ ... وإنْ كانَ عَنْهُ ذا غِنًى فهو قابِلُهْ(٣)

٨ - الإنفاقُ على طُلَّابِ العِلْمِ:

أَنْفِقْ ولا تَخْشَ إقْلالًا فَقَدْ قُسِمَتْ ... بينَ العبادِ مع الآجالِ أَرْزَاقُ(٤)

من فضائلِ الابتلاءِ بالسراءِ الإنفاقُ على العُلَماءِ وطُلَّابِ العلمِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ ففي ذلك سَبَبٌ عظيمٌ من أسبابِ البَرَكةِ في الرِّزْقِ(٥).

---

(١) انظرْ «جامعُ البيانِ» للطبري (٤/ ١٦٥) وتفسيرُ البغوي (٢/ ١٧٤)، وتفسير السعدي (ص٤٩١).

(٢) (صحيحٌ) أخرجهُ أحمدُ (٢١٥٧) وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦١٤٩).

(٣) «أَحْسَنُ ما سَمِعْتُ» (٩٩).

(٤) التذكرةُ الحمدونيةُ (٢/ ٢٦٨).

(٥) الشيءُ بالشيءِ يُذْكَرُ: كُنَّا في حلقةِ شَيْخِنا الوادعيِّ رَحِمَهُ اللهُ فرأى أحدُ الزُّمَلاءِ طعامَنا الرُّزَّ الناشِفَ فقَرَّبَ

فعن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ قال: كانَ أخوانِ على عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ فكان أحدُهُما يأتي النَّبيَّ ﷺ، والآخرُ يحترِفُ، فشكى المُحترِفُ أخاهُ إلى النبيِّ ﷺ، فقالَ: لَعلَّكَ تُرزَقُ بِهِ»[1].

يا طالبَ العِلْمِ لا تَبْغِ بِهِ بَدَلا ... فقد ظَفِرْتَ ورَبِّ اللَّوحِ والقَلَمِ

وقدِّسِ العلمَ واعرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ ... في القولِ والفِعْلِ والآدابِ فالتَزِمِ[2]

٩- اليدُ المُنفِقةُ هي العُليا:

إفرَحْ بما تأتيهِ مِن طَيِّبٍ ... إنَّ يَدَ المُعطِي هِيَ العُليا[3]

من فضائلِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ أنَّ المُوسِرَ متى وَسَّعَ على الفقراءِ والمساكينِ ابتغاءَ وجهِ اللهِ كانت يداهُ هي العُليا وهي خيرٌ عند اللهِ من اليدِ السُّفلى.

فعن ابنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «اليدُ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفلى، واليدُ العُليا المُنفِقةُ، والسُّفلى السَّائلةُ»[4].

- أن يذهبَ للعملِ من أجلِ أنْ يُنفِقَ على طلابِ العلمِ فحاولتُ أنْ أُثنِيَهُ عن عزمِهِ، وأنَّ الدنيا فتنةٌ لكنَّ الرجلَ قد عَزَمَ فبعد فترةٍ من الزمانِ لم يَعُدْ كما كان عليه فقد انْغَمَسَ في الدنيا إلى مُستَوَى عيشِهِ وحَلَقَ ذَقْنَهُ وتَفَرْنَجَ لباسُهُ وأصبحَ كُلَّما سلكتُ فجًّا إليه سَلَكَ فجًّا آخرَ فلا يَغْتَرَّ الواحدُ مِنَّا بالدنيا فالثَّباتُ عزيزٌ وما أخذَ أحدُنا من الدنيا زيادةً عن الكَفَافِ إلا أخذَتْ من دينِهِ مِثْلَهُ والمعصومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ.

(١) (صَحِيحٌ) أخرجه النسائيُّ (٦/ ٤٥)، وصححهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٠٨٤). وصححه شيخنا الوادعي رحمه الله في «الصحيح المسند» (٢٦).

(٢) مجموعةُ القصائدِ الزُّهديَّةِ (٢/ ٤٨٢).

(٣) حِلْيةُ المحاضرةِ (١٧٧).

(٤) رواهُ مسلمٌ (١٠٣٣).

ة صوتيا بـ CamScanner

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعلى الأيدي: المنفقةُ ثم المُتَعَفِّفَةُ عن الأخذِ، ثم الآخذُ بغيرِ سُؤالٍ، وأسفلُ الأيدي السَّائلةُ والمانِعَةُ»(١).

ويُعجبني قول علي بنِ هارونَ المنَجِّمُ:

كَريمٌ نَهَتْهُ النَّفْسُ عَنْ شَهَواتِها ... وَوَفَّتْهُ أَقْساطَ المعالي بلا بَخْسِ

إذا لم تكُنْ نَفْسُ ابنِ آدمَ حُرَّةً ... تَحِنُّ إلى العُلْيا فلا خَيْرَ في النَّفْسِ(٢)

١٠ - سَدادُ الدَّيْنِ:

دُيُونٌ أَخافَتْني وبَتَّتْ عَلائِقي ... من النَّاسِ حتى كِدْتُ أَفْزَعُ من ظِلِّي!(٣)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ التَّمَكُّنُ من سَدادِ الدَّيْنِ والدَّيْنُ وما أدراكَ ما الدَّيْنُ هو «الزومُ حَقٌّ في الذِّمَّةِ»(٤).

ومعناهُ اللُّغَوِيُّ يدورُ حَوْلَ الانْقيادِ والذُّلِّ ومعناه الشَّرْعيُّ هو أَنَّ المَدِينَ أسيرٌ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ صاحِبَكُم مَأْسُورٌ بِدَيْنِهِ»(٥).

وكان رسولُ اللهِ ﷺ كثيرًا ما يستعيذُ باللهِ من الدَّيْنِ فعن عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو في الصلاةِ: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ من المأثَمِ والمَغْرَمِ». فقال لَهُ قائِلٌ: ما أكثر ما تستعيذُ من المَغْرَمِ؟

---

(١) «فَتْحُ الباري» (٣/ ٢٩٧).

(٢) الإبانةُ عن سرقاتِ المتنبي لفظًا ومعنًى (٦٣).

(٣) دواوينُ الشعرِ العربي (٨٥/ ٤٨٨).

(٤) الموسوعةُ الفِقْهيةُ (٤١/ ٧٢).

(٥) (حَسَنٌ) أخرجهُ أبو داودَ (٣٣٤١)، وَحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٠١٧).

فقال: «إنَّ الرَّجُلَ إذا غَرِمَ [أي: استدانَ] حَدَّثَ فكَذَبَ، ووَعَدَ فأخْلَفَ»(١).

وعن ثوبانَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من ماتَ وهو بَرِيءٌ من ثلاثٍ: الكِبْرِ والغُلولِ والدَّيْنِ، دَخَلَ الجَنَّةَ»(٢).

وقد تركَ النبيُّ ﷺ الصلاةَ على من ماتَ وعليه ديناران، حتى تَكَفَّلَ بسَدادِهما أبو قَتادَةَ رضي الله عنه، فلمَّا رآهُ من الغَدِ وقال: قد قَضَيْتُها. قال ﷺ: «الآن بَرَدَتْ عليه جِلْدَتُهُ»(٣).

قال الحافظُ رحمه الله: «وفي هذا الحديثِ إشعارٌ بصُعُوبَةِ أمْرِ الدَّيْنِ وأنَّهُ لا يَنْبَغِي تَحَمُّلُهُ إلا من ضرورةٍ»(٤).

ويا لَلَّهِ كَمْ للدَّيْنِ من همٍّ وأيِّ همٍّ لما فيه من ذِلَّةٍ وشَيْنٍ.

قال القرطبيُّ رحمه الله: «قال علماؤنا: وإنما كان شيئًا ومَذَلَّةً لما فيه من شُغْلِ القَلْبِ والبالِ، والهَمِّ اللازمِ في قضائِهِ، والتَّذَلُّلِ للغَريمِ عند لقائِهِ، وتحمُّلِ مِنَّتِهِ بالتأخيرِ إلى حين أوانِهِ، وربَّما يَعِدُ نَفْسَهُ القضاءَ فيُخْلِفُ، أو يُحَدِّثُ الغريمَ بسببِهِ فيكْذِبُ، أو يَحْلِفُ له فيَحْنَثُ، إلى غيرِ ذلكَ - وأيضًا - فربَّما قد ماتَ ولم يَقْضِ الدَّيْنَ فيَرْتَهِنُ به... وكُلُّ هذهِ الأسبابِ مشائِنُ في الدِّينِ تُذْهِبُ جمالَهُ وتُنْقِصُ كمالَهُ»(٥).

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٨٣٢)، ومسلمٌ (٥٨٩).

(٢) (صحيحٌ) أخرجهُ الترمذيُّ (١٥٧٢)، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٧٨٥).

(٣) (حَسَنٌ) أخرجهُ أحمدُ (٣/ ٦٢٩)، وحَسَّنَهُ محققو المُسْنَدِ.

(٤) «فتحُ الباري» (٤/ ٥٤٧).

(٥) «الجامعُ لأحكامِ القرآنِ» (٣/ ٤١٧).

ويُعجبني قولُ المقنَّعِ الكِنْديِّ:

يُعاتِبُني في الدَّينِ قومي وإنَّما ... ديوني في أشياءَ تُكسِبُهُمْ حَمْدَا

أَسُدُّ بِهِ ما قد أَخَلُّوا وضَيَّعُوا ... ثُغورَ حُقوقٍ ما أطاقوا لها سَدَّا[1]

(١) الحماسةُ البَصْرِيَّةُ (٢/ ٣٠).

ة ضوئيا بـ CamScanner

آدابُ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ

ومَنْ كان في السَّرَّاءِ في حالِ مُعْجَبٍ ... فَمَحْصُولُهُ منها على حَالِ نادِمِ(١)

إذا ابْتَلَى اللهُ المسلمَ بالسَّرَّاءِ وأنْعَمَ عليه بالصِّحَّةِ في بَدَنِهِ، والسَّعَةِ في رِزْقِهِ، ومكَّنَ لَهُ في الأرضِ، وأعطاهُ من الجاهِ أو العلمِ أو السُّلْطانِ ما يَسُرُّ بِهِ خاطِرَهُ، فعليهِ أنْ يتحلَّى بالآدابِ الآتِيَةِ.

١ - اليقينُ بأنَّ كُلَّ شيءٍ إلى زوالٍ.

بـاللهِ يـا أهْـلَ وِدادي قِفُـوا ... كـي تُبْـصِروا كيـفَ زوالُ النِّعَمْ(٢)

علىٰ المسلم أنْ يكونَ علىٰ يقينٍ جازمٍ بأنَّ هذهِ الدنيا إلىٰ زوالٍ فلا يُنْسيهِ ما هو فيه من نعمةِ الصِّحَّةِ والعافيةِ والسَّعَةِ أو الجاهِ ذِكْرَ اللهِ وافتقارَهُ إليهِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

ومَنْ وُفِّقَ لليقينِ لَنْ يَسْتَذِلَّهُ الحِرْصُ بل يُعطي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ ويَجْعَلُ الدنيا في يديْهِ لا في قَلْبِهِ والمُوَفَّقُ من وَفَّقَهُ اللهُ.

قال أبو العتاهيةِ يُخاطِبُ سَلَمًا:

تعـالى اللهُ يـا سَـلَمَ بـنَ عمـرٍو ... أذَلَّ الحِـرْصُ أعْنـاقَ الرجـالِ

هَـبِ الـدنيا تـصيرُ إليـكَ عفـوًا ... ألـيسَ مـصيرُ ذاكَ إلـى زوالِ(٣)

---

(١) «محاضرةُ الأدباءِ» (٢/ ٣٩٧).

(٢) «أحْسَنُ ما سَمِعْتُ» (٧٩).

(٣) «التذكرةُ الحمدونيةُ» (٢/ ٣٢٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٢ - شُكْرُ النِّعَمِ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا[١]

من آدابِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ لزومُ الشُّكْرِ فإنَّ الشُّكورَ مَعَهُ المَزِيدُ أبدًا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وعَنْ صُهيبٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ خيرٌ وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ؛ إنْ أصابتْهُ سرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له، وإنْ أصابتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا له»[٢] ولِلَّهِ دَرُّ القائلِ:

إذا أَنْتَ لَمْ تَزْدَدْ على كُلِّ نعمةٍ ... خُصِصْتَ بها شُكرًا فلَسْتَ بشاكِرِ[٣]

قال ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: «واللهِ أسألُ أنْ يَجْعَلَكُم مِمَّنْ إذا أُنْعِمَ عليه شَكَرَ، وإذا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وإذا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فإنَّ هذه الأمورَ الثلاثةَ عنوانُ سعادةِ العَبْدِ، وعلامَةُ فلاحِهِ في دنياهُ وأُخراهُ، ولا يَنْفَكُّ عنها أبدًا، فإنَّ العَبْدَ دائِمُ التَّقَلُّبِ بينَ هذهِ الأَطْباقِ الثلاثةِ»[٤].

ولقد أحْسَنَ الذي يقولُ:

لا يَغُلُّوَنَّ عليكَ الشُّكْرُ في ثَمَنٍ ... فليسَ شُكْرٌ وإنْ قَصَّرْتَ بالغالي

الشكرُ يبقى على الأيامِ ما بَقِيَتْ ... ويذهَبُ الدَّهْرُ والأيامُ بالمالِ[٥]

---

(١) «مِنْ رحيقِ الشِّعْرِ» (٢٢٤).

(٢) رواهُ مسلمٌ (٦٤).

(٣) مجموعاتُ القصائدِ الزُّهْدِيَّةِ (٢/ ٢٤٥).

(٤) «الوابلُ الصَّيِّبُ من الكَلِمِ الطَّيِّبِ» (٣).

(٥) صيدُ الأفكارِ (٣٩٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٣ - أداءُ حَقِّ اللهِ في المالِ:

فـابْقِ جميـلًا مـن حـديثٍ تَفُـزْ بِـهِ ... ولا تَدَعِ الإحْسَانَ والأخْذَ بالفَضْلِ(١)

ومن آدابِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ أداءُ حَقِّ الله تعالىٰ في هذا المالِ من إخراجِ الزَّكاةِ، والصَّدَقَةِ والبِرِّ وبِرِّ الوالدينَ والإنفاقِ في وجوهِ البِرِّ والإحسانِ.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

وفائدةُ الإحسانِ إنما تعودُ للمُحْسِنِ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧].

وما أجملَ حِلْيَةَ الإحسانِ في جِيدِ مَن ابْتلاهُ اللهُ بالسَّرَّاءِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل: ٨٩].

ومـا المـالُ والأهْلُـونَ إلا ودائِـعُ ... ولا بُـدَّ يَوْمًـا أَنْ تُـرَدَّ الودائـعُ(٢)

٤ - عَدَمُ الأَمْنِ من مَكْرِ اللهِ:

فـأَزْهَقَ مَكْـرُ اللهِ ذي الحَـوْلِ مَكْـرَهُ ... عِقابًـا، ومَكْـرُ اللهِ للمكْـرِ قَتَّـالُ(٣)

---

(١) «دواوينُ الشِّعرِ العربيِّ» (١٣/ ٤٩٧).

(٢) «مِنْ رحيقِ الشِّعْرِ» (٢٥٥).

(٣) «ديوانُ ابنِ الرومي» (٣٥٧٥).

ة ضوئيا بـ CamScanner

من آدابِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ عَدَمُ الأمنِ من مَكْرِ اللهِ ومَكْرُ اللهِ هو إيصالُ العقوبةِ إلىٰ مَنْ يستحِقُّها من حيثُ لا يَشْعُرُ وهو عَدْلٌ منه ﷻ ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠].

فالمكْرُ في حَقِّ اللهِ ﷻ عَدْلٌ وجَزاءٌ يُحْمَدُ عليه.

أما المكرُ من المخلوقين فهو مذمومٌ لأنَّهُ بغَيْرِ حَقٍّ.

والمؤمِنُ خائِفٌ وَجِلٌ لا يأْمَنُ مَكْرَ اللهِ.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

ومعنىٰ الآية:

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ هذا استنكارٌ مِن اللهِ ﷻ علىٰ مَن يَغْتَرُّ بالنِّعَمِ ويَنْسىٰ العُقُوبَةَ أَنْ يأْخُذَهم علىٰ غِرَّةٍ وهم آمنون منعَّمون، ثم يَنقُلُهم من النعمةِ إلىٰ النِّقْمَةِ، ومن الصِّحَّةِ إلىٰ الأَلَمِ والمَرَضِ ومن الوجودِ إلىٰ العَدَمِ.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يَأْمَنُ عقوبةَ اللهِ التي تَنْزِلُ علىٰ خُفْيَةٍ ومن غَيْرِ تأَهُّبٍ ومن غَيْرِ توقُّعٍ لها.

﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الذين حَقَّتْ عليهم الخَسَارَةُ التي لا رِبْحَ معها أبدًا ولا نَجَاةَ منها أبدًا[1].

---

(١) «إعانةُ المستفيدِ بشرحِ كتابِ التوحيدِ» صالحُ الفوزان (٢/ ١٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٥ - الابتعادُ عن الذنوبِ المَلَكِيَّةِ أو الرُّبُوبِيَّةِ:

يـــا رُبَّ جبـــارٍ ضَـــرَبْنا رأسَـــهُ إنَّـــا لنَـــضرِبُ رَأسَ مَـــنْ يَتَجَبَّـــرُ(١)

من آدابِ الابْتلاءِ بالسَّرَّاءِ الابتعادُ عن الذنوبِ المَلَكِيَّةِ أو الربوبيَّةِ: وهي أنْ يَتعاطىٰ الإنسانُ ما لا يَصْلُحُ له من صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ، كالعَظَمَةِ، والكبرياءِ، والفَخْرِ، والجَبَروتِ، والعُلُوِّ في الأرضِ، ومَحَبَّةِ استعبادِ الخَلْقِ، ونحوِ ذلك(٢).

ويَتْبَعُ ذلك البُعْدُ عن الغرورِ وحُبِّ الثَّناءِ واحتقارُ الفقراءِ وظُلْمُهُمْ.

وعليه أنْ يتذكَّرَ قُدْرَةَ اللهِ في تَغْييرِ الأحوالِ في لَمْحِ البَصَرِ وأنَّ فقيرَ اليومِ قد يُصْبِحُ غَنِيَّ الغَدِ.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ومتىٰ أَحَسَّ المَرْءُ بطُغْيانِ المالِ ولم تَقْبَلْ نَفْسُهُ التَّأْديباتِ فعليه أنْ يتذكَّرَ ضَعْفَهُ وأنَّهُ يومًا راجعٌ إلىٰ رَبِّهِ.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ٦ - ٨].

ولْيَعْلَمْ أنَّ هذا الرِّزْقَ بمشيئةِ اللهِ وهو أَعْلَمُ بأحوالِ عبادِهِ ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾ [الشورىٰ: ٢٧].

ولْيَجْتَنِبِ الفَرَحَ؛ لأنَّهُ يؤدِّي إلىٰ البَطَرِ والتَّرَفِ ولْيَتَحَلَّ بأضدادِ ما ذكرنا كالخُشُوعِ والخَشْيَةِ والخَوفِ من اللهِ والتواضُعِ والرحمةِ ونحوِ ذلكَ.

---

(١) «التذكرةُ السعديةُ» (١٣).

(٢) التوبةُ وظيفةُ العُمْرِ لمحمدٍ الحَمَد (٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

لعمرُكَ ما الأشرافُ في كُلِّ بلدةٍ وإن عَظُمُوا للفَضْلِ إلا صنائعُ
أرى عُظَمَاءَ الناسِ للفَضْلِ خُشَّعًا إذا ما بدا والفَضْلُ لِلَّهِ خاشِعُ[1]

٦- الابتعادُ عن الذُّنوبِ الشَّيطانيَّة:

أرى الشَّيطانَ يُوعِدُني شُرورًا ووعدُ اللهِ بالخيراتِ أوفى[2]

من آدابِ الابتلاءِ بالسراءِ الابتعادُ عنِ الذنوبِ الشَّيطانيةِ. والذنوبُ الشيطانيَّةُ هي ما كان في صاحِبِها شَبَهٌ من الشيطانِ، ويدخُلُ في ذلك الحَسَدُ، والبَغْيُ، والغِشُّ، والغِلُّ، والخِداعُ، والمكْرُ، والأمرُ بالفسادِ، وتحسينُ المعاصي، والنهيُ عن الطاعاتِ وتهجينُها، والابتداعُ في الدينِ، والدعوةُ إلى البِدَعِ والضَّلالِ[3] والافتتانُ بالمالِ والجاهِ أو السلطانِ.

ولْيَعْلَمْ أنَّ ذلك يُلْهِي عن اليومِ الآخِرِ ولْيَتَذَكَّرْ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وعليه أنْ يَتَحَلَّىٰ بِضِدِّ الذنوبِ الشيطانيَّةِ كالحُبِّ، والأمانةِ وسلامةِ الصدرِ وأتباعِ السُّنَّةِ ولزومِ الطاعاتِ والأمْرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ.

ومن جَميلِ ما قاله جريرٌ في عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ بَعْدَ أنْ عايَنَ عَدْلَهُ وبُعْدَهُ عن الذنوبِ الشَّيطانيةِ:

تركْتُ لكم بالشَّامِ حَبْلَ جماعةٍ أمِينَ القُوى مُسْتَحْصِدَ العَقْدِ باقيَا

---

(١) «أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ» (٨٦).

(٢) «ديوانُ ابنِ الرومي» (٢٩٠١).

(٣) «التوبةُ وظيفةُ العُمُرِ» (٦).

وجدتُ رُقى الشيطانِ لا تستفزُّه ... وقد كان شيطانٌ من الجنِّ راقيا(١)

٧- أنْ يتذكَّرَ أنَّ التوسعةَ ابتلاءٌ واختبارٌ:

فمِنَ الغِنى ما قد يضرُّ بأهلِهِ ... والفقرُ عند اللهِ ليسَ بضائرِ(٢)

من آدابِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ أنْ يتذكَّرَ المرءُ دائمًا أنَّ التوسعةَ في الرِّزقِ أو البسطةَ في العلمِ والجسمِ ودوامَ الصحَّةِ والعافيةِ ما هي إلا ابتلاءٌ واختبارٌ، وليستْ دليلًا على إكرامِ اللهِ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقد يكونُ ذلك فتنةً ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ومتى حلَّ الترفُ في قومٍ ارتحلَ عنهم التواضعُ والخشوعُ والرحمةُ وقبولُ الحقِّ ووقعَ فيهم التنافسُ الذي يكونُ منه الهلاكُ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤].

وعن عمرِو بنِ عَوْفٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أبْشِروا، وأمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ فواللهِ ما الفقرَ أخْشَى عليكم، ولكنِّي أخشَى عليكم أنْ تُبْسَطَ الدنيا عليكم كما بُسِطَتْ على من كان قبلَكُم؛ فتَنافَسُوها كما تَنافَسُوها؛ فتُهْلِكَكُمْ كما أهْلَكَتْهُمْ»(٣).

النفسُ تجزعُ أنْ تكونَ فقيرةً ... والفقرُ خيرٌ من غِنًى يُطغِيها

وغِنى النفوسِ هو الكفافُ وإنْ أبَتْ ... فجميعُ ما في الأرضِ لا يكفِيها(٤)

---

(١) «التذكرةُ الحمدونيةُ» (٩/ ٢٣٧).

(٢) «ديوانُ الإلبيري» (٧٧).

(٣) رواهُ البخاريُّ (١٤٦٥)، ومسلمٌ (١٠٥٢).

(٤) صيدُ الأفكارِ (٣٢٧).

٨ - تقوية الصلة بالله:

وإنْ كانَتِ الدُّنيا إليَّ حبيبةً ... فإنِّي إلى حَظِّي مِنَ الدِّينِ أحوَجُ[١]

ومن آدابِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ تَقْوِيَةُ الصِّلَةِ باللهِ بالمحافظةِ علىٰ الفُروضِ والنوافِلِ سيَّما الصلاةُ في المساجِدِ وقراءةُ القرآنِ بتدبُّرٍ والمداومةُ علىٰ الأذكارِ وسؤالُ اللهِ الثَّباتَ في كُلِّ حِينٍ وتجديدُ النيَّةِ في كُلِّ لَحظَةٍ؛ لأنَّ الأقرَعَ والأبرَصَ لمَّا جاءَهما الامتحانُ سَقَطا في الاختبارِ والسَّببُ أنَّ اتصالَهما باللهِ لم يَكُنْ كاملًا بخِلافِ الأعمىٰ، فإنَّ حالَهُ يَدُلُّ أنَّه كان قَوِيَّ الاتصالِ باللهِ يَظْهَرُ ذلك من خِلالِ جوابِهِ للمَلَكِ، وقِصَّةُ الأقرَعِ والأبرَصِ والأعمىٰ الحديثُ عنها ذو شُجُونٍ، وفيها فوائِدُ عِظامٌ تُشَدُّ لها الرِّحالُ.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ ثلاثةً في بَني إسرائيلَ، أبرَصَ وأقرَعَ وأعمىٰ، بَدَا لِلَّهِ[٢] عزوجل أنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فبَعَثَ إليهِمْ مَلَكًا، فأتىٰ الأبرَصَ فقالَ: أيُّ شيْءٍ أحَبُّ إليْكَ؟ قالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وجِلْدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ فأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وجِلْدًا حَسَنًا، فقالَ: أيُّ المالِ أحَبُّ إليْكَ؟

قالَ: الإبِلُ، فأُعْطِيَ ناقَةً عُشَراءَ[٣] فقالَ: يُبارَكُ لَكَ فيها.

وأتىٰ الأقرَعَ: فقالَ: أيُّ شيْءٍ أحَبُّ إليْكَ؟

---

(١) ديوانُ أبي العتاهية (٣٦).

(٢) بَدَأَ في صحيح مسلم: «فأرادَ اللهُ». قولُهُ: بَدَأَ اللهُ بالهَمْزِ ورَفْع كلمةِ اللهِ أي حَكَمَ اللهُ قال الخطابيُّ: معناهُ قَضَىٰ اللهُ أنْ يبتَلِيَهُمْ وقد روىٰ بَعْضُهم «بَدَأَ اللهُ» وهو غَلَطٌ لما فيه مِن معنىٰ البُدُوِّ وهو ظهورُ شيءٍ بعد أنْ لم يَكُنْ وهو علىٰ اللهِ ممتَنِعٌ وقال الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ رحمه الله: بدا: بتخفيفِ الدالِ المهملةِ بغَيْرِ هَمْزٍ أيْ سَبَقَ في علمِ اللهِ.

(٣) عُشَراء: أي: حامل قريبة الولادة.

ة ضوئيا بـ CamScanner

قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا.

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا.

وَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ يَرُدُّ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاس، قَالَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا[1] فَأَنتَجَ هَذَانِ[2] وَوَلَّدَ هذا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، ولِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ.

ثُمَّ إِنَّه أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ[3] فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ[4] تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي[5]، فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ والْجِلْدَ الْحَسَنَ والْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحقُوقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلم تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ؟

فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ، فقال: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

---

(١) والِدًا: أي ذات ولد.

(٢) أنتج: أي تولى نِتاجها.

(٣) في صورتِهِ: أي في الصورةِ التي كان عليها لما اجْتَمَعَ بِهِ وهو أبرصٌ ليكونَ ذلك أَبْلَغَ في إقامةِ الحُجَّةِ عليه. قالَهُ الحافِظُ.

(٤) مسكين: قِيلَ إِنَّ المَلَكَ لم يَكْذِبْ وإنما مسكينٌ نكِرَةٌ تعودُ على المسئولِ.

(٥) الحبالُ: أي الأسبابُ التي يقطَعُها في طَلَبِ الرِّزْقِ.

ة ضوئيا بـ CamScanner

وَأَتَىٰ الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ما قَالَ لِهَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ.

وَأَتَىٰ الأَعْمَىٰ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابْنُ سَبِيلٍ، وتَقَطَّعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثم بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَىٰ فَرَدَّ اللهُ بَصَرِي وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ لَا أَجْهِدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ،(١) فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ»(٢).

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فأَظْهَرَ الابتلاءُ حقائِقَهُمْ التي كانت في علمِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُم فأَمَّا الأعمىٰ فاعْتَرَفَ بإنعامِ اللهِ عليه، وإنَّه كان أعمىٰ فقيرًا فأعطاهُ اللهُ البَصَرَ والغِنَىٰ وبَذَلَ للسائِلِ ما طَلَبَهُ شُكْرًا للهِ، وأمَّا الأقْرَعُ والأَبْرَصُ فكِلاهما جَحَدا ما كانا عليه قبلَ ذلكَ من سُوءِ الحالِ والفَقْرِ وقالَ في الغِنَىٰ إنَّما أُوتِيتُهُ كابرًا عن كابِرٍ وهذا حالُ أكْثَرِ الناسِ لا يَعْتَرِفُ بما كانَ عليه أولًا من نَقْصٍ أو جَهْلٍ وفَقْرٍ وذنوبٍ وأنَّ اللهَ ﷻ نَقَلَهُ من ذلك إلىٰ ضِدِّ ما كانَ عليه وأنعمَ بذلك عليه ولهذا يُنَبِّهُ ﷻ الإنسانَ علىٰ مَبْدَأِ خَلْقِهِ الضعيفِ من الماءِ المَهِينِ ثُمَّ نَقْلِهِ في أطباقِ خَلْقِهِ وأَطْوارِهِ من حالٍ إلىٰ حالٍ حتىٰ جَعَلَهُ بَشَرًا سَوِيًّا يَسْمَعُ ويُبْصِرُ ويقولُ ويَنْطِقُ ويَبْطِشُ ويَعْلَمُ، فَنَسِيَ مبدأَهُ وكيفَ كانَ ولم يَعْتَرِفْ بِنِعَمِ رَبِّهِ عليه كما قال ﷻ: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [المعارج: ٣٨، ٣٩]»(٣).

---

(١) لا أَجْهِدُكَ: أي: لا أَشُقُّ عليك في رَدِّكَ في شيءٍ تأْخُذُهُ أو تَطْلُبُهُ من مالي.

(٢) رواهُ البُخاريُّ (٣٤٧٧)، ومسلمٌ (٢٩٤٦).

(٣) «شفاءُ العليلِ» (١/ ٣٦).

ة صونيا بـ CamScanner

٩- النُّظرُ إلى مَنْ دُونَك في النِّعْمَةِ:

لِيَهْنِـكَ مـا وافـاكَ مـن فَـيْضِ نعمـةٍ أَتَتْـكَ فَحَلَّـتْ مِنـكَ خَيْـرَ مكـانِ(١)

ومن آدابِ الابْتلاءِ بالسَّرَّاءِ النَّظَرُ إلىٰ مَنْ دونَكَ في النعمةِ لِئَلَّا تَزْدَرِيَ نِعْمةَ اللهِ عليكَ أو تَسْتَقِلَّها.

فعن أبي هُريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «انْظُرُوا إلىٰ مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، ولا تنظروا إلىٰ من هو فَوْقَكُمْ، فهو أَجْدَرُ ألا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ»(٢).

قال الطبريُّ رَحِمَهُ اللهُ:

هذا حديثٌ جامِعٌ للخَيْرِ؛ لأَنَّ العَبْدَ إذا رأىٰ مَنْ فوقَهُ في الخَيْرِ طالَتْ نَفْسُهُ باللِّحاقِ بِهِ، واسْتَقْصَرَ حالَهُ التي هو عليها، واجتَهَدَ في الزيادةِ، وإذا نَظَرَ في دُنْياهُ إلىٰ مَنْ هو دُونَهُ تَبَيَّنَ نِعَمَ اللهِ عليه، فأَلْزَمَ نَفْسَهُ الشُّكْرَ. هذا معنىٰ كلامِهِ، وإذا لم يَفْعَلْ ما حَضَّ عليه النبيُّ ﷺ كان الأَمْرُ بالعَكْسِ فأُعْجِبَ بعَمَلِهِ، وكَسِلَ عن الزيادةِ من الخَيْرِ، ومَدَّ عينَيْهِ إلىٰ الدنيا، وحَرِصَ علىٰ الازديادِ منها وازْدراءِ نِعَمِ اللهِ عليه ولم يُؤَدِّ حَقَّها»(٣).

١٠- إظهارُ النِّعْمةِ:

الْـبَسْ لِكُـلِّ حالَـةٍ لَبُوسَـها إمَّـا نعيمَهـا وإمَّـا بُؤْسَـها(٤)

---

(١) ديوانُ إبراهيمَ اليازجيِّ (٣١٩).

(٢) رواه مسلم (٣١٣).

(٣) «إكمالُ المعلمِ» (٨/ ٥١٥).

(٤) «التمثيلُ والمحاضرةُ» للثعالبي (٢٨٣).

CamScanner بـ ضوئيا ة

من آدابِ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ إظهارُ النعمةِ في الطعامِ والشَّرابِ والسَّكَنِ والملبسِ والمركَبِ.

لحديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يرىٰ أثَرَ نعمتِهِ علىٰ عَبْدِهِ»(١) وحديثِ عَوْفِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه أنَّه قال: أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في ثوبٍ دُونٍ(٢)، فقال: «ألَكَ مَالٌ؟»، قال: نَعَمْ، قال: «مِنْ أي المالِ؟» قال: قد آتاني اللهُ منَ الإبلِ والغَنَمِ والخيلِ والرَّقيقِ، قال: «فإذا آتاكَ اللهُ مالًا فَلْيُرَ أثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عليك وكَرَمَتِهِ»(٣).

وليسَ من المروءةِ الرِّضا بالدُّونِ عند حضورِ النعمةِ، وقد قيل: «المروءةُ الظاهرةُ في الثيابِ الطاهِرَةِ»(٤).

وقال الماورديُّ رحمه الله: «وأمَّا جِنْسُ الملبوسِ وقيمتُهُ فيُعْتَبَرُ من وَجْهين، أحَدُهما بالمُكنَةِ من اليسارِ والإعسارِ؛ فإنَّ للموسِرِ في الزيِّ قَدْرًا وللمُعْسِرِ دونَه، والثاني بالمنزلةِ والحال، فإنَّ لذي المنزلةِ الرفيعةِ في الزيِّ قدرًا، وللمُنْخَفِضِ عنه دونَه، فإذا عَدَلَ الموسِرُ إلىٰ زيِّ المُعْسِرِ كان شُحًّا وبُخْلًا، وإن عَدَلَ الرفيعُ إلىٰ زِيِّ المتخَفِضِ عنه كان مهانةً وذُلًّا، وإنْ عَدَلَ المُعْسِرُ إلىٰ زيِّ الموسِرِ كان تبذيرًا وسَرَفًا، وإن عَدَلَ المنخفضُ إلىٰ زيِّ الرفيعِ كان جَهْلًا وتَخَلُّفًا»(٥).

---

(١) (حَسَنٌ) أخرجهُ الترمذيُّ (٢٨١٩)، وَحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٨٨٧).

(٢) ثوبٍ دُونٍ: أي قديمٍ أو بالٍ.

(٣) (صحيحٌ) أخرجهُ أبو داودَ (٤٠٩٣)، وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ أبي داودَ» (٤٦٣).

(٤) «الإعجازُ والإيجازُ» للثعالبي (٣٣).

(٥) «أدبُ الدنيا والدِّينِ» الماوردي (٤٢٣).

CamScanner

فضائلُ الابتلاءِ بالطاعاتِ

مـــا أَحْـــسَنَ الـــدنيا وإقبالَهـــا ... إذا أطـــاعَ اللهَ مَـــنْ نالَهـــا(١)

فضائلُ الابتلاءِ بالطاعاتِ جَمَّةٌ غزيرةٌ وكثيرٌ من الناسِ في غفلةٍ عن ذلك وهل العِلَّةُ من خَلْقِ الخَلْقِ إلا طاعةُ اللهِ؟ قال اللهُ ﷻ: ﴿الَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

أي لِيَخْتَبِرَكُم أَيُّكُم أحسَنُ عَملًا وأكثرُ وَرَعًا عن محارِمِ اللهِ، وأسرَعُ في طاعتِهِ.

وفيما يأتي ذِكْرُ شيءٍ من فضائلِ الابتلاءِ بالطَّاعاتِ:

١ - معرفةُ فَضْلِ اللهِ على العَبْدِ:

ومـــا زالَ فَـــضْلُ اللهِ يَغْمُـــرُ ســـاحتي ... ويَظْهَـــرُ لـــي مـــن حَيْثُمـــا أَتَلَمَّـــحُ(٢)

من فضائلِ الابتلاءِ بالطاعاتِ معرفةُ فَضْلِ اللهِ فيما أَنْعَمَ وتَفَضَّلَ علىٰ عبدِهِ وذلك يَسْتَجْلِبُ الشكْرَ والشكرُ مَعَه المزيدُ. فعن المغيرةِ بنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه أَنْ كان النبيُّ ﷺ لا يقومُ أو لا يُصَلِّي حتىٰ ترمَّ قدماهُ، فيُقالُ له - في ذلك - فيقولُ: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»(٣).

تلـــكَ الغُـــصُونُ اللَّـــواتي في أَكَمَّتِهـــا ... نُعْـــمٌ وبُـــؤْسٌ وأفـــراحٌ وأَحـــزانُ

يَبْلُـــو بِهـــا اللهُ قومًـــا كـــي يَبِـــينَ لَـــهُ ... ذو الطاعـــةِ البَـــرُّ مِمَّـــنْ فيـــهِ عِـــصيانُ(٤)

---

(١) «دواوينُ الشعرِ العربي» (١١/ ١٩٩).

(٢) «الحُلَّةُ السيراء» لابن الأبارِ (٢/ ٢٧١).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦٤٦٣)، ومسلمٌ (٢٧١٦).

(٤) ديوانُ ابنِ الرومي (٤٥١٢).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٢ - الحصولُ على السَّعادةِ:

ولَسْتُ أرَى السَّعادةَ جَمْعَ مالٍ ... ولكنَّ التَّقِيَّ هو السعيدُ(١)

- ومن فضائلِ الابتلاءِ بالطاعاتِ الحصولُ علىٰ السعادةِ في هذهِ الحياة وانْشِراحُ الصَّدْرِ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

ولقد أحْسَنَ الذي يقولُ:

ما هذهِ الدُّنيا بدارِ إقامةٍ ... لا تُوطَنَنَّ بها وأنتَ غريبُ

فغدًا جزاءُ سعادةٍ أو شِقْوَةٍ ... أفلا يُنِيبُ إلى الرَّشادِ مُنِيبُ؟!(٢)

٣ - النَّجاةُ من الشَّدائِدِ:

فاشْدُدْ يديكَ بِحَبْلِ اللهِ مُعْتَصِمًا ... فإنَّهُ الرُّكْنُ إنْ خانَتْكَ أركانُ(٣)

من فضائلِ الابتلاءِ بالطاعاتِ أنَّها نجاةٌ في الشَّدائِدِ قال اللهُ ﷻ حاكيًا عن يونُسَ عليه السلام ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٥].

---

(١) أماليُّ القالي (٢/ ٢٠٢).

(٢) الأوراقُ (١/ ١٦٩).

(٣) الكَشْكُولُ (١/ ٢٤١).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وقال الله ﷻ حاكيًا عن زكريا عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

فتأمَّلْ تَفْرِيجَ الله ﷻ عن يونُسَ شِدَّتَهُ؛ لأنَّهُ كان من المُسَبِّحين الطائِعين لِلَّهِ.

وزكريَّا آتاهُ الفَرَجَ بسبَبِ أنَّهُ كان مُطيعًا لله مُسارعًا في الخيراتِ وفي حديثِ ابنِ عباسٍ الطَّويلِ وفيه: «تَعَرَّفْ على اللهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ»(١).

٤ - الفلاحُ في الدنيا والآخرة:

بِمِفْتَاحِهِ الذِّكْرُ الشَّرِيفُ وَذُو التُّقَى ... يَنَالُ بِتَقْوَاهُ الفَلَاحَ وَيُكْرَمُ(٢)

ومن فضائِلِ الابتلاءِ بالطاعاتِ الحُصُولُ على الفَلاحِ في الدنيا والآخرةِ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

---

(١) (صحيحٌ) أخرجهُ أحمدُ (٢٨٠٤). وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في (صحيح الجامع) (٢٩٦١).

(٢) القصائدُ الزُّهديَّةُ (١/ ٢٤١).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٥ - ثبات الأجر عند العجز:

فإنْ تكُ في سبيلِ اللهِ تشقى ... فعندَ اللهِ أجرُكَ والنَّعيمُ(١)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالطاعاتِ ثباتُ الأجرِ عند العَجْزِ فعن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا مَرِضَ العَبْدُ أو سافَرَ كُتِبَ له ما كان يَعْمَلُ مُقيمًا صحيحًا»(٢).

قال ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: هذا في حَقِّ مَنْ كانَ يعملُ طاعةً فَمُنِعَ مِنْها، وكانت نِيَّتُهُ لولا المانِعُ أنْ يدومَ عليها»(٣).

وعن عائِشَةَ رضي الله عنها أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «ما مِن امْرِئٍ تكونُ له صلاةٌ بليلٍ فَغَلَبَهُ عليها نَوْمٌ، إلا كُتِبَ لَهُ أَجْرُ صلاتِهِ، وكان نومُهُ صدقةً عليهِ»(٤).

٦ - لُطْفُ اللهِ بِعَبْدِهِ:

فعندَكَ من ألطافِ ربِّكَ ما بِهِ ... عَلِمْنا يقينًا أنَّهُ لَكَ راحِمُ(٥)

من فضائلِ الابتلاءِ بالطاعةِ لُطْفُ اللهِ بِعَبْدِهِ ومن لُطْفِهِ أنَّهُ يُرِيدُ لَهُ الهدايةَ والتَّوْبَةَ والعَوْدَةَ إليه ويُسَهِّلُ ذلك له ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٧].

---

(١) خريدةُ القصرِ (٢/ ٣٣٥).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٢٩٩٦).

(٣) «فَتْحُ الباري» (٦/ ١٣٦).

(٤) (حَسَنٌ) أخرجهُ ابن ماجه (١٣٤٤) وَحَسَّنَهُ الألبانيُّ في صحيح الجامع (٥٩٤١).

(٥) دواوينُ الشِّعْرِ العربي (٩٥/ ٤٠٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٧ - أهلُ الطاعاتِ يؤتيهم اللهُ أجرَهُمْ غيرَ منقوصٍ:

رَبِحْتُ ولَمْ أرجِعْ بِصَفْقَةِ خائِبٍ وحَظِّيَ موفورٌ بِنُجْحِ عِدَاتِهِ(١)

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالطاعاتِ أنَّ أهْلَ الطاعةِ يُوتيهم اللهُ أجْرَهم غيرَ منقوصٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحُجُرات: ١٤]. ومَعْنَىٰ لَا يَلِتْكُمْ لَا يَنْقُصُكُمْ.

أهلُ الطاعةِ تُضاعَفُ لهم الحسَنَاتُ وتُكَفَّرُ السيئاتُ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، أنَّه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، مَا تَقُولُونَ؟ هَلْ يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ.

قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهَا الْخَطَايَا»(٢).

٨ - الثَّباتُ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة:

كَأَنَّ ثُبُوتَ الرَّاسِيَاتِ ثُبُوتَهُ إذا خفَّ من خَوْفِ الرَّدَى كُلُّ مُحْجِمِ(٣)

ومن فضائل الابتلاء بالطاعات أنَّ المطيعَ لله يُرَىٰ أثَر الطاعاتِ عند السكراتِ ويوم العرصاتِ وعند سُؤالِ مُنكَر ونكيرٍ.

---

(١) المحمدونَ منَ الشعراءِ (١٨٣).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٥٠٥)، ومسلمٌ (٦٦٧).

(٣) خريدةُ القصرِ (١٢٧).

ة صوتيا بـ CamScanner

قال الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «والخَلْقُ كُلُّهُمْ قِسمانِ: مَوَفَّقٌ بالتَّثبيتِ، ومَخْذُولٌ بتَرْكِ التَّثبيتِ.

ومادَّةُ التَّثبيتِ أصْلُهُ ومَنْشَؤُهُ من القولِ الثابتِ، وفِعْلِ ما أُمِرَ بِهِ العَبْدُ.

فبهما يُثَبِّتُ اللهُ عَبْدَهُ. فكُلُّ مَنْ كان أثْبَتَ قولًا وأحْسَنَ فِعْلًا كان أعْظَمَ تثبيتًا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦]»(١).

٩- أَهْلُ الطاعاتِ يُظِلُّهُمُ اللهُ يومَ القيامةِ:

يظلُّهُمُ اللهُ العظيمُ بِظِلِّهِ ... إذا كانَ يومَ الحَشْرِ لا ظِلَّ للنَّاسِ(٢)

ومن فضائِلِ الابتلاءِ بالطاعاتِ أنَّ أهْلَ الطاعاتِ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّ عَرْشِهِ والناسُ في شِدَّةٍ وخَوفٍ وهَلَعٍ.

فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَىٰ ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٣).

---

(١) التفسيرُ القَيِّم لابنِ القَيِّم (٣٤٦).

(٢) الازدهارُ في ما عَقَدَهُ الشعراءُ من الأحاديثِ والآثارِ (١٣) لجلالِ الدينِ السيوطي.

(٣) رواه البخاري (٦٦٨)، ومسلم (١٠٣١).

ة ضوئيا بـ CamScanner

١٠ - يرافِقُ أهْلَ الطَّاعَاتِ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءَ والصالحين:

أتَرْضَى أنْ تكونَ رفيقَ قومٍ ... لَهُمْ زَادٌ وأنتَ بغيرِ زَادِ(١)

ومن فضائِلِ الابتلاء بِالطاعاتِ أنَّ أهْلَ الطاعاتِ يُرَافِقونَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءَ والصالحينَ، وما أجَلَّ هذهِ المرتبةَ العليَّةَ، وما أعظمَ مرافقةَ النبيِّ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، وعن ربيعةَ بنِ كَعبٍ الأسلميِّ رضي الله عنه قال: كُنْتُ أبِيتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فأتيتُهُ بوَضُوئِهِ وحاجتِهِ، فقال لي: «سَلْ»، فقُلْتُ: أسألُكَ مرافَقتَكَ في الجَنَّةِ، قال: «أوَغَيْرَ ذلكَ؟» قُلْتُ: هو ذاكَ، قال: «فأَعِنِّي علىٰ نفسِكَ بكَثْرَةِ السُّجُودِ»(٢).

---

(١) القصائدُ الزُّهْدِيَّةُ (٢/ ١٥٤).

(٢) رواهُ مسلمٌ (٤٨٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

رابعًا: آدابُ المبتَلَى بالطاعاتِ:

الطاعاتُ بَلاءٌ عظيمٌ فمَنْ ابتلاهُ اللهُ بالطاعاتِ فعليه أنْ يتحلَّىٰ بالآدابِ الآتيةِ:

١ - أنْ تعلمَ أنَّ الطاعاتِ توفيقٌ من الله:

أراكَ علـــى الطاعـــاتِ أنـــتَ مُوَفَّـــقٌ ومـا أحْـسَنَ التوفيـقَ حَيـثُ تكـونُ(١)

لا يَعْزُبُ عنكَ في أيِّ لحظةٍ أنَّ الطاعاتِ إنَّما هي توفيقٌ من اللهِ ﷻ فمَنْ وفَّقَهُ اللهُ للطاعةِ فقد فازَ وأفلحَ وأعلىٰ مراتِبِ توفيقِ اللهِ لعَبْدِهِ أنْ يُحَبِّبَ إليهِ الإيمانَ، ويُكَرِّهَ إليه الكُفْرَ والمعصيةَ وهي المرتبةُ التي نالَها أصحابُ النبيِّ ﷺ وامْتَنَّ اللهُ بها عليهم في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «يخاطِبُ اللهُ جَلَّ وعلا عبادَهُ المؤمنين، فيقولُ: لولا توفيقي لكم لما أَذْعَنَتْ نُفُوسُكُم للإيمانِ، فلم يَكُنِ الإيمانُ بمشورَتِكم وتوفيقِ أنفسِكُم، ولكنِّي حَبَّبْتُهُ إليكم وزَيَّنْتُهُ في قلوبكم، وكَرَّهْتُ إليكم ضِدَّهُ الكُفْرَ والفُسُوقَ»(٢).

والتوفيقُ من الأمورِ التي لا تُطْلَبُ إلَّا مِن اللهِ، إذْ لا يَقْدِرُ عليهِ إلا هُوَ، فمَنْ طَلَبَهُ من غيرِهِ فهوَ محرومٌ(٣).

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القَصَصُ: ٥٦].

---

(١) دُمْيَةُ القَصْرِ (١/ ١٢٥).

(٢) «مدارجُ السالكينَ» (١/ ٤١٦).

(٣) انظرْ غيرَ مأمورٍ كتابي «أسرارَ التوفيقِ» تجد فيه ما يملأُ الصدرَ والنحرَ - إنْ شاء اللهُ -.

ة ضوئيا بـ CamScanner

وهذهِ الهدايةُ المذكورةُ في الآيةِ هي التي يُسَمِّيها العلماءُ هِدايةَ التوفيقِ قالَ اللهُ ﷻ حاكيًا عن شُعَيْبٍ عليه السلام قولَهُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هُودُ: ٨٨].

قال ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: أجمعوا - أي العارفون باللهِ - على أنَّ التوفيقَ ألَّا يَكِلَكَ اللهُ إلىٰ نَفْسِكَ، وأنَّ الخُذْلانَ أنْ يُخَلِّيَ بينَكَ وبينَ نَفْسِكَ، فإذا كان كُلُّ خَيْرٍ فأصْلُهُ التوفيقُ، وهو بِيَدِ اللهِ لا بِيَدِ العَبْدِ، فمفتاحُهُ الدعاءُ والافتقارُ، وصِدْقُ اللَّجَأ والرغبةِ والرَّهْبَةِ إليهِ، فمتىٰ أعطَىٰ اللهُ العَبْدَ هذا المفتاحَ، فقد أرادَ اللهُ أنْ يفتَحَ له، ومتىٰ أضَلَّهُ عن المفتاحِ بَقِيَ بابُ الخَيْرِ مُرْتجًا دُونَهُ»(١).

٢ - الصِّدْقُ مع اللهِ:

وذو الصِّدْقِ لا يَرْتَابُ والعَدْلُ قائمٌ ... على طُرُقاتِ الحقِّ والشرُّ أعوجُ(٢)

من آدابِ الابْتلاءِ بالطاعاتِ: الصِّدْقُ مع اللهِ.

فلَيْسَ للعَبْدِ شيءٌ أنفَعُ من صِدْقِهِ رَبَّهُ في جميعِ أمورِهِ فإنَّ الصِّدْقَ يُفْضِي بصاحِبِهِ إلىٰ جَنَّةِ الخلُودِ.

«إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلىٰ البِرِّ وإنَّ البِرَّ يهدي إلىٰ الجَنَّةِ»(٣).

قال ابنُ القيم رحمه الله: «ليسَ للعبدِ شيءٌ أنفَعُ من صِدْقِهِ مع رَبِّهِ في جميعِ أمورِهِ مع صِدْقِ العزيمةِ، فيَصْدُقُهُ في عَزْمِهِ وفي فِعْلِهِ قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمدُ: ٢١].

---

(١) «مدارجُ السالكينَ» (١/ ١٩٨).

(٢) «ديوانُ أبي العتاهيةِ» (٣٥).

(٣) «الفوائدُ» (١٨٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

فسعادتُهُ في صِدْقِ العزيمةِ وصِدْقِ الفِعْلِ، فصِدْقُ العزيمةِ جَمْعُها وجَزْمُها وعَدَمُ التردُّدِ فيها، بل تكونُ عزيمةً لا يَشوبُها تردُّدٌ ولا تلوُّمٌ فإذا صَدَقَ عزيمتَهُ بَقِيَ عليه صِدْقُ الفِعْلِ، وهو استفراغُ الواسِعِ وبَذْلُ الجَهْدِ فيه، وأن لا يَتَخَلَّفَ عنه بشيءٍ من ظاهِرِهِ وباطِنِهِ، فعزيمةُ القَصْدِ تمنَعُهُ من ضَعْفِ الإرادةِ والهِمَّةِ، وصِدْقُ الفِعْلِ يمنَعُهُ من الكَسَلِ والفُتُورِ، ومَنْ صَدَقَ اللهَ في جميعِ أمورِهِ صَنَعَ اللهُ له فوق ما يَصْنَعُ لغَيْرِهِ، وهذا الصدقُ معنًى يَلْتَئِمُ من صِحَّةِ الإخلاصِ وصِدْقِ التوكُّلِ، فأصْدَقُ الناسِ من صَحَّ إخلاصُهُ وتوكُّلُهُ»[(١)].

٣ - عَدَمُ المَنِّ بالطاعاتِ:

ولَسْتُ بِمُمْتَنٍّ عَلَيْهِ بطاعَتي ... لَهُ المَنُّ في التَّيْسيرِ للحَسَناتِ[(٢)]

من آدابِ الطاعاتِ عَدَمُ المَنِّ بها.

فاللهُ هو الذي يَمُنُّ عليكَ أنْ هداكَ للإيمانِ وعَلَّمَكَ وألْهَمَكَ رُشْدَكَ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النَّحل: ٥٣] فهَلْ بَقِيَ لَكَ أنْ تمُنَّ علىٰ رَبِّكَ بالطاعاتِ والتي هي فَضْلٌ منه ونعمةٌ!

قال اللهُ ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

أنا بالله وَحْدَهُ وإليهِ ... إنما الخيرُ كُلُّهُ في يَدَيْهِ

أحْمَدُ اللهَ وهو ألْهَمني الحَمْـ ... ـدَ على المَنِّ والمزيدُ لَدَيْهِ[(٣)]

---

(١) «المرجعُ السابقُ» (١٨٧).

(٢) ديوانُ أبي إسحاقَ الإلبيري (٥٦).

(٣) ديوانُ أبي العتاهية (١٩١).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٤ - أنْ يتحلَّى بالخَوْفِ:

لَيْسَ يرجُو اللهَ إلا خائِفٌ ... مَنْ رَجا خافَ وَمَنْ خافَ رَجا(١)

من آدابِ المُبْتَلَىٰ بالطاعاتِ أنْ يَتحلَّىٰ بالخَوفِ من اللهِ وأنْ يَرْجُوَهُ قبولَ طاعاتِهِ فقد وَصَفَ اللهُ ﷻ المؤمنين بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وعن عائِشَةَ رضي الله عنها قالتْ: سألْتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن هذه الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشةُ: أهُمُ الذين يَشْرَبون الخَمْرَ ويَسْرِقون؟

قال: «**لا يا بنتَ الصِّدِّيقِ، ولكنهم الذين يَصُومون وَيُصَلُّونَ ويتصدَّقُونَ، وهم يخافون أنْ لا يُقْبَلَ منهم أولئكَ الذين يُسَارِعون في الخيراتِ**»(٢).

ولقد كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ مع اجتهادِهم في الأعمالِ الصالحةِ يَخْشَون أنْ تَحْبَطَ أعمالُهم وألَّا تُقْبَلَ منهم لرُسُوخِ عِلْمِهم وعميقِ إيمانِهم، قالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أبي مُلَيْكَةَ: «أدركْتُ ثلاثين من أصحابِ النبيِّ ﷺ كُلُّهم يَخْشَىٰ النفاقَ علىٰ نفسِهِ ما منهم من أحَدٍ يقولُ: إنَّهُ علىٰ إيمانِ جِبريلَ وميكائِيلَ»(٣).

---

(١) «ديوانُ أبي العتاهيةِ» (٣٢).

(٢) (صحيحٌ) أخرجهُ الترمذيُّ (٣١٧٥) وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٢٥٣٧).

(٣) رواهُ البخاريُّ بابُ خوفِ المؤمنِ أنْ يَحْبِطَ عملُهُ وهو لا يشعرُ، معلقًا مجزومًا به قبل حديثِ (٤٨) وَوَصْلِهِ في «التاريخِ الكبيرِ» (٥/ ١٣٧).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٥ - أنْ يَحْذَرَ من الوَقُوعِ في البِدَعِ:

كَمْ في العُلَى لهُمُ والمجدِ من بِدَعٍ ... إذا تُصفُّحتِ اخْتِيرَتْ على السُّنَنِ[١]

من آداب المُبْتَلَىٰ بالطاعاتِ أنْ يَحْذَرَ من أنْ يُدَنِّسَ طاعاتِهِ بالبِدَعِ.

ومن تَحَلَّىٰ بِشُروطِ قَبولِ العملِ سَلِمَتْ له طاعاتُهُ من البِدَعِ كلها ولا يُقْبَلُ أيُّ عَملٍ مما يُتَقَرَّبُ بِهِ إلىٰ اللهِ ﷻ إلَّا بشرطين:

الشَّرْطُ الأوَّلُ: إخلاصُ العَمَلِ لِلَّهِ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له؛ لقَوْلِ النبيِّ ﷺ: «**إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ، وإنما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نوىٰ**»[٢].

الشَّرطُ الثاني: المُتَابَعَةُ للرسولِ ﷺ، لقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «**مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ**»[٣].

فمَنْ أَخْلَصَ أعمالَهُ لِلَّهِ، مُتَّبِعًا في ذلك رسولَ اللهِ ﷺ، فهو الذي عَمَلُهُ مَقبولٌ، ومن فَقَدَ الإخلاصَ، والمتابعةَ لرسولِ اللهِ ﷺ، أو أحدَهما فعملُهُ مردودٌ داخلٌ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

ومَنْ جَمَعَ الأَمْرَين فهو داخلٌ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢].

---

(١) ديوانُ أبي تمَّام (٣٩٠).

(٢) رواهُ البخاريُّ (١)، ومسلمٌ (١٩٠٧).

(٣) رواهُ مُسْلِمٌ (١٧١٨) وَلَفْظُ البخاري ومسلمٍ: «مَنْ أَحْدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ» البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلمٌ (١٧١٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

فحديثُ عُمَرَ رضي الله عنه: «إنما الأعمالُ بالنيَّاتِ» ميزانٌ للأعمالِ الباطنةِ، وحديثُ عائشةَ رضي الله عنها: «مَنْ عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ» ميزانٌ للأعمالِ الظاهرةِ، فهما حديثانِ عظيمانِ يدخُلُ فيهما الدِّينُ كُلُّهُ: أصولُهُ، وفروعُهُ، ظاهرُهُ وباطنُهُ، أقوالُهُ، وأفعالُهُ(١).

وكُنْ مُخْلِصًا لِلَّهِ واحْذَرْ مِنَ الرِّيَا ... وتابِعْ رسولَ اللهِ إنْ كُنْتَ تَعْبُدُ

توكَّلْ على الرحمنِ حَقًّا وثِقْ بِهِ ... لِيَكْفِيكَ ما يُغْنِيكَ حَقًّا وتَرْشُدُ(٢)

٦- البُعْدُ عن الغُلُوِّ والتَّشَدُّدِ:

لَيسَ الغلوُّ أمينًا في مَشُورتِهِ ... مناهِجُ الرُّشْدِ قد تَخْفَى على الغالي(٣)

من آدابِ الابْتلاءِ بالطاعاتِ الابتعادُ عن الغُلُوِّ والتَّشَدُّدِ فلا تَنْهَمِكْ في الطاعاتِ وتَحْرِمْ بَدَنَكَ حَقَّهُ من الرَّاحةِ؛ لأَنَّ ذَلكَ طريقٌ للضَّعْفِ والسَّأَمِ والمَلَلِ والانْقطاعِ

والطاعاتُ وسَطٌ بينَ الغُلُوِّ والجَفاءِ

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]

وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعون»(٤) قالها ثلاثًا(٥).

---

(١) انظرْ: بهجةَ قلوبِ الأبرارِ وقُرَّةَ عيونِ الأخيارِ، للسَّعديِّ (١٠).

(٢) من منظومةِ منهجِ الحَقِّ في العقيدةِ والأخلاقِ للشيخ عبدِالرحمنِ بنِ ناصرِ السَّعْديِّ رحمه الله.

(٣) «ديوانُ شوقي» (٤٨٢).

(٤) المتنطِّعون: المُتَعَمِّقون المتشدِّدون في غَيْرِ موضعِ التَّشدُّد. قالَهُ النوويُّ في «رياضِ الصالحينَ» بابُ الاقْتصادِ في الطَّاعةِ.

(٥) رواهُ مسلمٌ (٢٦٧٠).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدوا وقارِبوا وأَبْشِروا واستعِينوا بالغَدْوَةِ[١] والرَّوْحَةِ[٢] وشيءٍ من الدُّلْجَةِ[٣]»[٤].

وعن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا نَعَسَ أحَدُكُمْ في الصلاةِ فَلْيَرْقُدْ، حتىٰ يَذْهَبَ عنه النَّومُ، فإنَّ أحَدَكم إذا صَلَّىٰ وهو ناعِسٌ لعلَّهُ يَذْهَبُ يَستغفرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»[٥].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا نَعَسَ أحَدُكُمْ في الصلاةِ فَلْيَنَمْ حتىٰ يَعْلَمَ ما يَقْرَأُ»[٦].

وعن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ الحولا بنتَ تويتِ بنِ حبيبِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّىٰ مَرَّتْ بها، وعندَها رسولُ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: هذه الحولا بنتُ تويتٍ وزَعَموا أنَّها لا تنامُ اللَّيلَ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تنامُ الليلَ! خُذُوا من الْعَمَلِ ما تُطِيقُون. فواللهِ! لا يسأمُ اللهُ حتَّىٰ تسأمُوا»[٧].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ، المسجدَ، وحَبْلٌ مَمْدودٌ بين ساريتين فقالَ: ما هذا؟ قالوا: لِزَيْنَبَ، تُصَلِّي، فإذا كَسِلَتْ أو فَتَرَتْ أمْسَكَتْ بِهِ، فقال: حُلُّوهُ،

---

(١) الغَدْوَةُ: الخروجُ صباحًا.

(٢) الرَّوحةُ: العودة مساءً.

(٣) الدُّلْجَةُ: السير ليلًا.

(٤) رواه البخاري (٦٤٦٣).

(٥) رواهُ البخاريُّ (٢٠٩)، ومسلمٌ (٨٧٦).

(٦) رواهُ البخاريُّ (٢١٣).

(٧) رواهُ مسلمٌ (٢٢٠).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ليُصَلِّ أحدُكُمْ نَشَاطَهُ، فإذا كَسِلَ أو فَتَرَ قَعَدَ»[١].

وهنا لَفْتَةٌ وهو أنَّ رَمْيَ الآخرين بالتَّشَدُّدِ شَنْشَنَةٌ لا تتوقَّفُ ولا يَفْهَمُ التَّشَدُّدَ إلَّا مَنْ يَفْهَمُ الاعْتِدالَ، والاعْتدالُ هو في اتِّباعِ هَدْيِ رسولِ اللهِ ﷺ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ

وقد قال اللهُ ﷻ لنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] وهذا هو طريقُ الاعْتدال، ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢] والطُّغيانُ انْحرافٌ عن مَنْهَجِ الاعتدالِ.

(١) رواهُ البخاريُّ (١١٥٠)، ومسلمٌ (٧٨١).

صورٌ من ابتلاء الأنبياء واتباعهم

اللهُ يَعْلَمُ ما قَلَّبْتُ سِيرَتَهُمْ يَوْمًا، فأَخْطَأَ دَمْعُ العَيْنِ مَجْراهُ(١)

دونَكَ أخي صُوَرًا من الابْتلاءِ لِتَعْلَمَ أنَّكَ لَسْتَ وحْدَكَ في الطريقِ «طريقٌ تَعِبَ فِيه آدمُ، وناحَ لأجْلِهِ نوحٌ ورُمِيَ في النارِ الخَليلُ، وأُضْجِعَ للذَّبْحِ إسماعيلُ وبِيعَ يوسُفُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ولَبِثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سنينَ ونُشِرَ بالمنشارِ زَكريّا وذُبِحَ السَّيِّدُ الحَصورُ يحيىٰ وقاسَىٰ الضُّرَّ أيُّوبُ وزادَ علىٰ المقدارِ بُكاءُ داودَ وسار مع الوَحْشِ عيسىٰ وعالَجَ الفَقْرَ وأنواعَ الأذىٰ محمدٌ ﷺ ترها أنتَ باللَّهْوِ واللَّعِبِ

فيا دارَها بالحُزْنِ إنَّ مزارَها قريبٌ، ولكنْ دُونَ ذلكَ أهوالُ»(٢)

وفيما يأتي ذِكْرُ صُوَرٍ من الابْتِلاءِ:

١ - النَّبِيُّ ﷺ:

لَكَ في رسولِ اللهِ أعْظَمُ أُسْوةٍ وأجَلُّها في سُنَّةٍ وكتابِ(٣)

أ - مواقِفُ عاليةٌ مِنْ صَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ علىٰ الأذىٰ:

عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ جَلَسْنَا إِلَى الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ يَوْمًا فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ طُوبَىٰ لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاللهِ لَوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ. فَاسْتُغْضِبَ فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ مَا يَحْمِلُ

---

(١) «مِنْ رحيقِ الشِّعْرِ» (٣٠).

(٢) «الفوائدُ» لابنِ القَيِّمِ (٤٢).

(٣) «العمدةُ في محاسنِ الشِّعْرِ» (١/ ٦٠).

الرَّجُلَ عَلَىٰ أَنْ يَتَمَنَّىٰ مَحْضَرًا غَيَّبَهُ اللهُ عَنْهُ لَا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فِيهِ وَاللهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْوَامٌ أَكَبَّهُمُ اللهُ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ أَوَلَا تَحْمَدُونَ اللهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ قَدْ كُفِيتُمُ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ وَاللهِ لَقَدْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا فِيهِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ حَتَّىٰ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَىٰ وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ لِلْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ وَإِنَّهَا لَلَّتِي قَالَ اللهُ ﷻ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذْ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَىٰ جَزُورٍ، فَقَذَفَهُ عَلَىٰ ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ حَتَّىٰ جَاءَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها فَأَخَذَتْ مِنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَىٰ مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ - أَوْ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ» فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، فَأُلْقُوا فِي بِئْرٍ، غَيْرَ أُمَيَّةَ أَوْ أُبَيٍّ، فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا ضَخْمًا، فَلَمَّا جَرُّوهُ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ قَبْلَ أَنْ يُلْقَىٰ فِي الْبِئْرِ(٢).

ب - أَشَدُّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بالنبي ﷺ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ ﷻ وَمَا يُؤْذَىٰ

---

(١) مُسْنَدُ أحمدَ (٦/ ٣) برقم (٢٤٥٣٩) وهو صحيحٌ.

(٢) صحيحُ البخاريُ برقم (٣١٨٥) ومسلم برقم (٤٧٥١).

أَحَدٌ وَأُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِعِيَالِي طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ مَا يُوَارِي إِبِطُ بِلَالٍ»(١).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ قَالَ سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّىٰ أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الْآيَةَ(٢).

جـ - ما لَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ من الأذىٰ يومَ أُحُدٍ:

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ» فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(٣)

وعن عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ يُسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ جُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلاَّ كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّىٰ صَارَ رَمَادًا ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ(٤).

---

(١) مُسْنَدُ أحمدَ برقم (١٢٥٤١) صحيحٌ.

(٢) صحيحُ البخاريِّ برقم (٣٨٥٦).

(٣) صحيحُ مسلمٍ برقم (٤٧٤٦) يَسْلُتُ: يقطعُ نزولَ الدَّمِ ويزيلُهُ.

(٤) صحيح مسلم برقم (٤٧٤٣) بيضةٌ: خُوذَةٌ. المِجَنُّ: التُّرْسُ.

ة صوتيا بـ CamScanner

د - أشدُّ ما مرَّ على النَّبيِّ ﷺ من الأذى:

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

وهذا غَيْضٌ من فَيْضٍ، فلو أردْنا الحديثَ عن بلائِهِ ﷺ في دعوتِهِ وجهادِهِ وصبرِهِ وفقرِهِ ومرضِهِ ومؤاذاةِ الكافرين واليهودِ والمنافقين لاحْتجْنا إلى كُتُبٍ ولَن نُوفيَهُ حقَّهُ!

= قال النوويُّ رحمه الله شرح النوويّ على مسلم - (ج٦/ ص٢٤٨)

وَفِي هَذَا وُقُوعُ الِانْتِقَامِ وَالِابْتِلَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ لِيَنَالُوا جَزِيلَ الْأَجْرِ، وَلِتَعْرِفَ أُمَمُهُمْ وَغَيْرُهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَيَتَأَسَّوْا بِهِمْ، قَالَ الْقَاضِي: وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُمْ مِنَ الْبَشَرِ تُصِيبُهُمْ مِحَنُ الدُّنْيَا، وَيَطْرَأُ عَلَى أَجْسَامِهِمْ مَا يَطْرَأُ عَلَى أَجْسَامِ الْبَشَرِ، لِيَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، وَلَا يُفْتَتَنُ بِمَا ظَهَرَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَتَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا لَبَّسَهُ عَلَى النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ.

فِيهِ: اسْتِحْبَابُ لُبْسِ الْبَيْضَةِ وَالدُّرُوعِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَسْبَابِ التَّحَصُّنِ فِي الْحَرْبِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِقَادِحٍ فِي التَّوَكُّلِ.

(١) صحيحُ البخاريّ برقم (٣٢٣١) ومسلم برقم (٤٧٤٥).

ة صوتيا بـ CamScanner

٢ - أيوبُ - عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -:

ألقى عليكَ بدًا للضُّرِّ كاشفةً ... كشَّافُ ضُرِّ نبيِّ اللهِ أيُّوبِ(١)

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص/ ٤١، ٤٤]

قال السعديُّ: أي: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ في هذا الكتابِ ذي الذكرِ ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بأحْسَنِ الذِّكْرِ، وأثْنِ عليهِ بأحْسَنِ الثَّناءِ، حينَ أصابَهُ الضُّرُّ، فصَبَرَ علىٰ ضُرِّهِ، فَلَمْ يَشْتَكِ لِغَيْرِ رَبِّهِ، ولا لَجَأَ إلَّا إليْهِ.

فـ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ داعيًا، وإليهِ لا إلىٰ غيرِهِ شاكيًا، فقال: رَبِّ ﴿إِنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أيْ: بأمْرٍ مُشِقٍّ مُتْعِبٍ مُعَذِّبٍ، وكان سُلِّطَ علىٰ جَسَدِهِ فَنَفَخَ فيه حتىٰ تَقَرَّحَ، ثم تَقَيَّحَ بعد ذلكَ واشتَدَّ به الأمْرُ، وكذلكَ هَلَكَ أهْلُهُ ومالُهُ.

فقِيلَ لَهُ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أيْ: اضْرِبُ الأرْضَ بها، لِيَنْبُعَ لَكَ منها عَيْنٌ تَغْتَسِلُ منها وتَشْرَبُ، فَيَذْهَبُ عنكَ الضُّرُّ والأذىٰ، ففَعَلَ ذلك، فَذَهَبَ عنه الضُّرُّ، وشَفَاهُ اللهُ تعالىٰ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ قِيلَ: إنَّ اللهَ تعالىٰ أحياهُمْ لَهُ ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا، وأغْناهُ اللهُ، وأعْطاهُ مالًا عظيمًا ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بعَبْدِنا أيُّوبَ، حَيْثُ صَبَرَ فأثَبْناهُ من رحمَتِنا ثوابًا عاجِلًا وآجِلًا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أيْ: وَلْيَتَذَكَّرْ أولو العُقُولِ بحالةِ أيُّوبَ ويَعْتَبِروا، فَيَعْلَمُوا أنَّ مَنْ صَبَرَ علىٰ الضُّرِّ، أنَّ اللهَ تعالىٰ يُثِيبُهُ ثوابًا عاجلًا وآجلًا وَيَسْتَجِيبُ دُعاءَهُ إذا دعاهُ.

---

(١) «ديوانُ ابنِ عبد رَبِّهِ» (٣٠).

ة ضوئيا بـ CamScanner

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ أي: حُزْمَةَ شماريخَ ﴿فَاضْرِب بِّهِ. وَلَا تَحْنَثْ﴾

قال المُفَسِّرونَ: وكان في مرضِهِ وضُرِّهِ، قد غَضِبَ على زوجتِهِ في بَعْضِ الأمورِ، فحَلَفَ: لَئِنْ شفاهُ اللهُ لَيَضْرِبَنَّها مِائةَ جلدةً، فلمَّا شفاهُ اللهُ، وكانت امرأتُهُ صالحةً مُحْسِنةً إليه، رَحِمَها اللهُ ورَحِمَهُ، فأفتاهُ أنْ يَضْرِبَها بِضِغْثٍ فيه مائةُ شِمراخٍ ضربةً واحدةً، فَيَبَرَّ في يمينِهِ.

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ أي: أيُّوبَ ﴿صَابِرًا﴾ أي: ابتَلَيناهُ بالضُّرِّ العظيمِ، فَصَبَرَ لوجْهِ اللهِ تعالى. ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ الذي كَمَّلَ مراتِبَ العبوديةِ، في حالِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كَثِيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ، في مطالِبِهِ الدِّينيَّةِ والدنيويَّةِ، كَثِيرُ الذِّكْرِ لرَبِّهِ والدعاءِ، والمحبَّةِ والتألُّهِ(١).

- قال ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: وقد حَدَّثَني يونُسُ، قال: أخبَرَنا ابنُ وَهْبٍ، قال: أخبرني نافِعُ بنُ يزيدَ، عن عَقيلٍ، عن ابنِ شِهَابٍ، عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وَسَلَّمَ قالَ:

«إنَّ نَبِيَّ اللهِ أيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلاؤهُ ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، إلا رَجُلانِ مِنْ إخْوَانِهِ كانا مِنْ أخَصِّ إخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوانِ إلَيْهِ ويَرُوحانِ، فَقالَ أحَدُهُما لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ واللهِ لَقَدْ أذْنَبَ أيُّوبُ ذَنْبًا ما أذْنَبَهُ أحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: ومَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْ ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ ما بِهِ؛ فَلَمَّا رَاحا إلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فقَالَ أيُّوبُ: لا أدْرِي ما تَقُولُ، غَيرَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنِّي كُنْتُ أمُرُّ على الرَّجُلَيْنِ يَتَنازَعانِ فَيَذْكُرانِ اللهَ، فَأرْجِعَ إلى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُما

(١) تفسيرُ السعدي - (١/ ٧١٤).

ة ضوئيا بـ CamScanner

كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إِلَّا فِي حَقٍّ؛ قال: وكان يَخْرُجُ إلىٰ حاجَتِهِ، فإذَا قَضاها أمْسَكَتْ امْرأتُهُ بِيَدِهِ حتىٰ يَبْلُغَ فَلَما كانَ ذاتَ يَوْمٍ ابْطأَ عَلَيْها، وأُوحِيَ إلىٰ أيُّوبَ في مَكانِهِ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ فاسْتَبْطَأَتْهُ، فَتَلَقَّتْهُ تَنْظُرُ، فأقْبَلَ عَلَيْها قَدْ أذْهَبَ اللهُ ما بِهِ مِنَ البَلاءِ، وَهُوَ عَلىٰ أحْسَنِ ما كانَ؛ فَلَمَّا رَأتْهُ قالَتْ: أيْ بارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا المُبْتَلَىٰ، فواللهِ علىٰ ذلك ما رَأيْتُ أحَدًا أشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إذْ كانَ صحيحًا!! قال: فإني هو. قال: وكانَ لَهُ أنْدَرانِ: أنْدَرٌ للقَمْحِ، وأنْدَرٌ للشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سحابتين، فلمَّا كانتْ إحداهما علىٰ أنْدَرِ القَمْحِ أفرغَتْ فيه الذَّهَبَ حتىٰ فاضَ، وأفْرَغَتْ الأُخرىٰ في أنْدَرِ الشَّعِيرِ حتىٰ أفاضَ[1].

اِصْبِرْ أَبَا أَيُّوبَ صَبْرًا يُرْتَضَى ... فَإِذَا جَزِعْتَ مِنَ الخُطُوبِ فَمَنْ لَهَا

اللهُ يُفْرِجُ بَعْدَ ضِيقِ كَرْبِهَا ... وَلَعَلَّهَا أَنْ تنجلي وَلَعَلَّهَا[2]

٣- جُرَيْجٌ العابِدُ:

كُلِّ الطاعاتِ تُنْعِلُكَ الدَّرَارِيْ ... وَتَجْعَلُكَ القريبَ وإنْ بَعُدْتَا[3]

كانَ في الأُمَمِ السابقةِ أولياءُ صالِحون، وعُبَّادٌ زاهدون، وكانَ جُرَيْجٌ العابِدُ أحَدَ

---

(١) انظر تفسيرَ ابنِ جريرٍ (٢/ ٩٠٠) وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ في قِصَصِ الأنبياءِ من «تاريخِهِ» (ج١ص٢٢٢) بعد أنْ ذَكَرَ الحديثَ بسَنَدِ ابنِ أبي حاتمٍ وابنِ جريرٍ: وهذا غريبٌ رفْعُهُ جِدًّا، والأشْبَهُ أنْ يكونَ موقوفًا قالَهُ شَيْخُنا الوادعيُّ في كتابِهِ أحاديثُ مُعَلَّةٌ ظاهرها الصِّحَّةُ (١/ ٥٤). والحديثُ صَحَّحَهُ الألبانيُّ في الصحيحةِ رقم ١٧ وقد صَحَّحَهُ الضِّياءُ المقدسيُّ فأخْرَجَهُ في «المختارةِ» (٢٢٠ / ٢ - ٢٢١ / ٢) من هذا الوجْهِ، ورواهُ ابنُ حِبَّانَ في «صحيحِهِ» (٢٠٩١).

(٢) «إعتابُ الكتابِ» (١٤٠).

(٣) ديوانُ أبي إسحاقَ الإلبيري (٣٢).

هؤلاءِ الصالحين الذين برَّأهُمُ اللهُ ﷻ، وأظهَرَ على أيدِيهِمُ الكراماتِ، بعد أنْ تَرَبَّصَ بِهِ المُفْسِدون، وحاولوا إيقاعَهُ في الفاحِشَةِ، ثُمَّ تَشْوِيهَ سُمْعَتِهِ بالباطِلِ، وهكذا أهْلُ الفُجُورِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، لا يهنأُ لهم بالٌ، ولا يَطِيبُ لهم عَيْشٌ إلا بأنْ يُشارِكَهُم الآخَرون في غَيِّهِمْ وفَسادِهِمْ، فعَنْ أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «لم يتكلَّمْ في المَهْدِ إلا ثلاثةٌ، عيسى ابنُ مريمَ، وصاحبُ جُرَيْجٍ، وكان جُرَيْجٌ رجُلًا عابدًا، فاتَّخَذَ صومعَةً[1] فكان فيها، فأَتَتْهُ أُمُّهُ وهو يُصلي، فقالت: يا جُرَيْجُ، فقال: يا رَبِّ أُمِّي وصَلاتي، فأَقْبَلَ على صلاتِهِ، فانْصَرَفَت، فلما كان من الغَدِ أَتَتْهُ وهو يُصَلِّي، فقالت: يا جُرَيْجُ، فقال: أَيْ رَبِّ أُمِّي وصلاتي، فأَقْبَلَ على صلاتِهِ، فانْصرفَتْ، فلمَّا كان من الغَدِ أَتَتْهُ وهو يُصَلِّي، فقالت: يا جُرَيْجُ، فقال: أَيْ رَبِّ أُمِّي وصَلاتي، فأَقْبَلَ على صلاتِهِ، فقالت: اللهُمَّ لا تُمِتْهُ حتى يَنْظُرَ إلى وجوهِ المومِساتِ[2].

فتذاكَرَ بنو إسرائيلَ جُرَيْجًا وعبادَتَهُ، وكانت امرأةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بحُسْنِها، فقالت: إن شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لكم، قال: فَتَعَرَّضَتْ له فَلَمْ يَلْتَفِتْ إليها، فأَتَتْ راعيًا كان يأْوِي إلى صَومعتِهِ، فأَمْكَنَتْهُ من نَفْسِها، فَوَقَعَ عليها، فَحَمَلَتْ، فلمَّا وَلَدَتْ قالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فأَتَوْهُ فاسْتَنْزَلُوه، وهدَموا صومَعَتَهُ، وجَعَلوا يَضْرِبُونَهُ، فقال: ما شَأْنُكُمْ، قالوا: زَنَيْتَ بهذِهِ البَغِيِّ فولَدَتْ مِنْكَ، فقالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ، فجاءوا بِهِ، فقال: دعُوني حتى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فلمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فطَعَنَ في بَطْنِهِ، وقال: يا غُلامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قال: فلانٌ الرَّاعِي، قال: فأَقْبَلوا على جُرَيْجٍ يقَبِّلونَهُ ويَتَمَسَّحونَ به، وقالوا: نَبْنِي لَكَ صومَعَتَكَ من ذَهَبٍ، قال: لا، أعيدُوها من طِينٍ كما كانت، فَفَعَلوا»[3].

---

(١) الصومَعَةُ بناءٌ مرتفِعٌ يُتَّخَذُ للعبادةِ.

(٢) المُومِساتُ: الزَّواني البَغايا.

(٣) رواهُ البخاريُّ (٣٤٣٦)، ومسلمٌ (٢٨٥٤).

٤ - أصحاب الأخدود:

وَقُلْ مَا شِئْتَ مِنْ أَخْبَارِ قَوْمٍ ففي «الأُخْدُودِ» أَنْوَاعُ العِظَاتِ[١]

عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي. قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ

---

(١) «المذاهب الأدبية» (٢٢٣).

عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ.

ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ

ة ضوئيا بـ CamScanner

فأخبرته بها. أو قيل له افتحم. ففعلوا حتى جاءت المرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أمه اصبري فإنك على الحق»[1].

٥ - مالك بن أنس:

فتى لم يجالس مالكًا منذ أن نشا ... ولم يقتبس من علمه فهو جاهل[2]

كان مولدُ الإمامِ مالكٍ بالمدينةِ النبويَّةِ على ساكِنِها أفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التسليمِ، وهي دارُ الهجرةِ، ومَعْدِنُ الرسالةِ، وفيها ظَهَرَ الحَقُّ، وقامَتْ الدولةُ، ورُفِعَ مَنارُ الدِّينِ وانتَشَرَ، ومنها فُتِحَتْ البِلادُ، وتواصَلَتْ الأجدادُ، وبها مثوى الرسولِ ﷺ، ومَعَهُ صاحباهُ أبو بكرٍ وعُمَرُ رضي الله عنهما، وفيها البَقِيعُ: حيثُ رَقَدَ مُعْظَمُ أصحابِهِ، والأخيارُ من المهاجرين الأوَّلين، والأنصارُ المُبارَكين، وفي المدينةِ كانَ الحَقُّ ناصعًا، وعلى أنقابها ملائكةٌ تَحْرُسُها حتى لا يَدْخُلَها الدَّجالُ ولا الطَّاعونُ، وفيها الفُقهاءُ السبعةُ المشهورُون، ولم يزلِ الدينُ بها قائمًا، والسُّنَّةُ معلومةً، والعلماءُ مُتَوافِرين، وفي هذهِ البيئةِ الإيمانيَّةِ والعلميَّةِ الخالِصَةِ وُلِدَ الإمامُ مالكٌ، ونشأ وشَبَّ وترعْرَعَ، وبينَ جَنَباتِها شَقَّ طَريقَهُ نحوَ حِلَقِ العِلمِ والحديثِ، وجلَسَ لأساطينِ العِلمِ وَقْتَها، وكان مالكٌ غُلامًا عاقِلًا، حافِظًا ثَبْتًا، ضابطًا مُتْقِنًا برًّا تقيًّا، وقد جَلَسَ لابنِ هُرْمُزٍ عالمِ المدينةِ سَبْعَ سِنينَ كاملةً تأثَّرَ خِلالَها مالِكٌ بأستاذِهِ ابنِ هُرْمُزٍ كُلَّ التأثُّرِ، ثم جَلَسَ لربيعةَ الرَّأْيِ، ونافعٍ مولَى ابنِ عُمَرَ، وحَمَلَ عنهُ ثمانينَ حديثًا، وعُرِفَتْ روايَتُهُ عنه - مالكٌ عن نافعٍ عن ابنِ عُمَرَ - بالسِّلْسِلَةِ الذَّهَبِيَّةِ، ودارَ مالكٌ على علماءِ زمانِهِ، وسَمِعَ منهم، وما زالَ مالكٌ يرتقي في سُلَّمِ العِلْمِ حتى دَرَجَ

(١) صحيحُ مسلمٍ برقم (٧٧٠٣).

(٢) الحيوانُ للجاحظِ (٣/ ١٣٨)

إلىٰ علمائِهِ، وصار إمامَ دارِ الهجرةِ، وعَلَمَها المقدَّمَ، تُضْرَبُ إليهِ أكبادُ الإبِلِ من أقصىٰ الأرضِ لسَماعِ عِلْمِهِ، ونَقلِ فتاواهُ ومَسائِلِهِ وآرائِهِ؛ حيثُ إنَّه لَمْ يُغادِرِ المدينةَ أبدًا إلا للحجِّ، وهو الذي كانتْ تأْتيهِ طلابُ العلمِ من كلِّ مكانٍ، وهو في المدينةِ لا يَخرجُ منها، بل حاوَلَ عِدَّةُ خُلفاءَ من بني العباسِ: كالمهديِّ والرشيدِ إقناعَهُ بالإقامةِ في بَغدادَ، وهو يأْبىٰ عليهم، ولا يرىٰ غيرَ المدينةِ قَصْرًا ومَقَرًّا.

وقد أثْنَىٰ عليهِ كبارُ الأئِمةِ: مثلُ الشافعيِّ الذي كان يَصِفُ الإمامَ مالِكَ بالنجمِ الثاقِبِ، وقال عنهُ: لم يبلغْ أحدٌ مبلغَ مالكٍ في العلمِ: لحفظِهِ، وإتقانِهِ، وصيانتِهِ، وقد جَعَلْتُ مالكًا حُجَّةً بيني وبينَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقالَ عنهُ أحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: القَلْبُ يسكُنُ إلىٰ حديثِهِ، وإلىٰ فَتْواهُ، حقيقٌ أنْ يُسْكَنَ إليه، مالكٌ عندنا حُجَّةٌ لأنَّهُ شديدُ الاتِّباعِ للآثارِ التي تَصِحُّ عنده.

وقالَ عنهُ اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ - وهو قَرِينُهُ ونظيرُهُ في العلمِ، ولكنَّهُ لم يَجِدْ مَنْ يَحْمِلُ عنه عِلْمَهُ - قال عنه: واللهِ ما علىٰ وجهِ الأرضِ أحَبُّ إليَّ من مالكٍ، وعِلْمُ مالكٍ علمٌ نَقِيٌّ، ومالكٌ أمانٌ لِمَنْ أخَذَ بِهِ من الأنامِ.

وكانَ للإمامِ مالكٍ منزلةٌ رهيبةٌ عند الناسِ تَعْدِلُ، بَلْ تَفوقُ مَنْزِلَةَ الخُلفاءِ والأُمراءِ والولاةِ، وكان مجلسُ درسِهِ تحدوهُ السَّكينةُ والوَقارُ والمَهابَةُ، فإذا سألَ أحدٌ عن مسائلةٍ فأجابَهُ لا يجرُؤُ أحَدٌ أنْ يُراجِعَهُ فيها هَيبةً له وفيه يقولُ ابنُ الخَيَّاطِ رَحِمَهُ اللهُ:

يَدَعُ الجوابَ فلا يُرَاجَعُ هَيْبَةً ... والسائلون نواكِسُ الأذْقانِ

أدَبُ الوقارِ وعِزُّ سُلطانِ التُّقَى ... فهو المُطاعُ وليس ذا سُلطانِ![1]

---

(١) الكامل (١/ ٤٠٨)

ة ضوئيا بـ CamScanner

محنة الإمام مالك:

قال الإمامُ الذهبيُّ: قال محمَّدُ بنُ جريرٍ: كان مالكٌ قد ضُرِبَ بالسِّياطِ، واختُلِفَ في سَبَبِ ذلك؛ فحدَّثني العبَّاسُ بنُ الوليدِ، حدَّثنا ابنُ ذكوانَ، عن مَروانَ الطاطريِّ، أنَّ أبا جعفرٍ نَهَى مالكًا عن الحديثِ: (لَيْسَ علىٰ مُسْتَكْرَهٍ طلاقٌ)[1]، دَسَّ إليهِ مَن يسألُهُ، فحدَّثَهُ به علىٰ رءوسِ الناسِ، فضرَبَهُ بالسِّياطِ[2].

قال أبو نعيمٍ: حدَّثنا أحمدُ بنُ إسحاقَ، ثنا أبو بكرِ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ راشدٍ قال: سمِعْتُ أبا داودَ يقولُ: ضَرَبَ جعفرُ بن سليمانَ مالِكَ بنَ أنسٍ في طلاقِ المُكْرَهِ، وحَكَىٰ لي بَعْضُ أصحابِ ابنِ وهْبٍ عن ابنِ وهْبٍ أنَّ مالِكًا لَمَّا ضُرِبَ خُلِقَ وحُمِلَ علىٰ بعيرٍ، فقيل له: نادِ علىٰ نفسِكَ، قال: فقال: ألَا مَنْ عَرَفَنِي فقد عَرَفَنِي، ومَن لَمْ يَعْرِفْنِي فأنا مالِكُ بنُ أنَسِ بنِ أبي عامرٍ الأصبحيُّ، وأنا أقولُ: طلاقُ المُكرَهِ ليسَ بشيءٍ، قال: فبلَغَ جعفرَ بنَ سُليمانَ أنَّه يُنادِي علىٰ نفسِهِ بذلك، فقال: أدرِكُوهُ، أنزِلُوهُ[3].

قال ابنُ سَعْدٍ: أخبَرَنا محمدُ بنُ عُمَرَ، قال: لَمَّا دُعِي مالِكُ بنُ أنَسٍ وشُوورَ وسُمِعَ منه وقُبِلَ قولُهُ، شَنَّفَ الناسُ له، وحَسَدوهُ وبَغَوْهُ بكُلِّ شيءٍ. فلمَّا وَلِيَ جَعْفَرُ بْنُ سُليمانَ علىٰ المدينةِ سعَوْا بِهِ إليه، وكَثَّروا عليهِ عنده وقالوا: لا يَرَىٰ أيمانَ

---

(١) (موقوف) علىٰ ابنِ عباسٍ أخرجَهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المصنف» ٥/ ١٨ من طريقِ هُشيمٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ طلحةَ الخزاعيِّ، عن أبي يزيدَ المدينيِّ، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عباسٍ قال: «ليسَ لِمُكْرَهٍ ولا لِمُضْطَهَدٍ طلاقٌ» ورجالُهُ ثِقاتٌ، وعلَّقَهُ البخاريُّ ٩/ ٣٤٣ في الطلاقِ، ولَفْظُهُ: وقال ابنُ عباسٍ: طلاقُ السَّكْرانِ والمُسْتَكْرَهِ ليس بجائزٍ.

(٢) «سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ» (٨/ ٧٩ - ٨٠)، «وفيات الأعيانِ» لابن خِلِّكانَ (٤/ ١٣٧).

(٣) «حِلْيَةُ الأولياءِ» (٦/ ٣١٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

بَيْعَتِكُم هذهِ بشيءٍ، وهو يأخُذُ بحديثٍ رواهُ عن ثابتٍ الأحنَفِ في طلاقِ المُكْرَهِ أنَّه لا يَجُوزُ، فَغَضِبَ جَعْفَرُ بنُ سليمانَ فدَعَا بمالِكٍ، فَاحْتَجَّ عليه بما رَقِيَ إليه عنه، ثم جَرَّدَهُ ومَدَّهُ وضَرَبَهُ بالسِّياطِ، ومُدَّتْ يَدُهُ حتىٰ انخَلَعَ كَتِفَاهُ وارْتُكِبَ منه أمْرٌ عظيمٌ، فواللهِ ما زالَ بعد ذلكَ الضَّرْبِ في رِفْعَةٍ عند الناسِ، وعُلُوٍّ من أمْرِهِ، وإعظامِ الناسِ له، وكأنَّما كانَتْ تِلْكَ السِّياطُ التي ضُرِبَها حُلِيًّا حُلِّي بِها(١).

وعَقَّبَ الإمامُ الذهبيُّ بعد نقْلِ تلك القِصَّةِ قائِلًا:

هَذَا ثَمَرَةُ المِحْنَةِ المَحْمُوْدَةِ، أَنَّهَا تَرفَعُ العَبْدَ عِنْدَ المُؤْمِنِينَ، وَبِكُلِّ حَالٍ فَهِيَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا، وَيَعْفُو اللهُ عَنْ كَثِيرٍ: (وَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا، يُصِبْ مِنْهُ)(٢).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (كُلُّ قَضَاءِ المُؤْمِنِ خَيْرٌ لَهُ)(٣).

وَقَالَ اللهُ - تَعَالَىٰ -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [مُحَمَّدٌ:٣١].

وَأَنْزَلَ - تَعَالَىٰ - فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ قَوْلَهُ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٦٥].

وَقَالَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٣٠].

فَالمُؤْمِنُ إِذَا امْتُحِنَ صَبَرَ وَاتَّعَظَ وَاسْتَغْفَرَ، وَلَمْ يَتَشَاغَلْ بِذَمِّ مَنِ انْتَقَمَ مِنْهُ، فَاللهُ حَكَمٌ

---

(١) «الطبقاتُ الكبرىٰ» (القسْمُ المتممُ) (ص٤٤١ - ٤٤٢).

(٢) أخرجهُ البخاريُّ (٥٦٤٥).

(٣) قطعةٌ من حديثٍ أخرجهُ أحمدُ في «مُسْندِهِ» ٥/ ٢٤ من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «عجبا للمؤمنِ لا يقْضِي اللهُ له شيئًا إلا كان خيرًا له» وَسَنَدُهُ جيِّدٌ.

ة ضوئيا بـ CamScanner

مُقسِطٌ، ثُمَّ يَحْمَدُ اللهَ عَلَى سَلامَةِ دِينِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ عُقُوبَةَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ وَخَيْرٌ لَهُ[١].

وقد أُصِيبَ في هذهِ المِحْنَةِ بعَجْزٍ كَبيرٍ في ذِراعِهِ: بحَيْثُ لم يَقْدِرْ بعدَها علىٰ رَفْعِها إلا بمُساعَدَةِ ذراعِهِ الأُخْرىٰ، وقد جَلَسَ في بيتِهِ، وشَعَرَ الخليفةُ أبو جَعْفَرٍ المنصورُ بمرارةِ ما فَعَلَ؛ فأَرْسَلَ إلىٰ الإمامِ مالكٍ يعتَذِرُ إليه، ويَتَنَصَّلُ مِمَّا فَعَلَهُ واليه، ولمَّا جاءَ أبو جَعْفَرٍ إلىٰ الحجازِ حاجًّا أرسَلَ إلىٰ مالكٍ، واجتمعَ معَهُ، وبالَغَ له في الاعتذارِ -رَحِمَهُما اللهُ-[٢].

ويُعجِبُني قولُ أبي المُعافىٰ يَمْدَحُ شَيْخَهُ مالِكَ:

أَلا إنَّ فَقْدَ العلمِ في فَقْدِ مالِكِ ... فلا زالَ فينا صالِحَ الحالِ مالِكُ

يُقِيمُ سبيلَ الحَقِّ والحَقُّ واضِحٌ ... ويَهدي كما تَهدِي النجومُ الشَّوابِكُ

عَشَوْنا إليهِ نبتغي ضَوْءَ رأْيِهِ ... وقد لَزِمَ الغَيَّ اللَّجُوجُ المُماحِكُ

فجاءَ بِرَأْيٍ مِثْلُهُ يُقْتَدَى بِهِ ... كَنَظْمِ جُمانٍ فَضَّلَتْهُ السَّبائِكُ[٣]

٦- أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ:

هذا ابنُ حَنْبَلَ نَفْسُ المَجْدِ رَاضِيَةٌ ... بِهِ وقُصَّادُهُ مِن عِلْمِهِ نَهِلُوا.

الاسمُ والنَّسَبُ: هو: أحمَدُ بنُ محمدِ بنِ حنبَلِ بنِ هِلالِ بنِ أَسَدِ بنِ إدريسَ الشيبانيُّ، أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأعلامِ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٨١)

(٢) انظر: «سيرَ أعلامِ النبلاءِ» (٨/ ٤٨)، و«البدايةُ والنهايةُ» (١٠/ ٨٨)، و«الكاملُ في التاريخِ» (٥/ ٣٠٦)، و«تذكرةُ الحفاظِ» (١/ ٢٠٧)، «الديباجُ المذهبُ» (١/ ٥٥)، و«النجومُ الزاهرةُ»، و«شذراتُ الذهبِ» (٢/ ٢٤)، و«وفياتُ الأعيانِ» (٤/ ١/ ١٣٥)، و«صفةُ الصفوةِ» (١/ ٣٦٦).

(٣) المجموعُ اللفيفُ (٦٠).

كُنْيَتُهُ: أبو عَبدِ اللهِ[١]

* ميلادُ الإمامِ أَحْمَدَ:

* وُلِد أحمدُ بنُ حَنبَلٍ في ربيعِ الأوَّلِ في بَغدادَ سَنَةَ أربعٍ وستِّينَ ومائةٍ، وماتَ والِدُهُ شابًّا، له نَحْوٌ من ثلاثينَ سنةً، وعاشَ أحْمَدُ يتيمًا، وقامَتْ أُمُّهُ على تربيتِهِ[٢]

طَلَبُ الإمامِ أحمدَ لِلْعِلْمِ:

طَلَبَ الإمامُ أحمدُ العلمَ وهو ابنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنةً، وطافَ في البلادِ، وسَمِعَ من عُلماءِ عصرِهِ، وكانوا يُجِلُّونَهُ ويحترمُونَهُ في حالِ سماعِهِ منهم[٣]

* سَعَةُ حِفْظِ الإمامِ أَحْمَدَ:

قال عبدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ: قال لي أبو زُرْعَةَ: أبوكَ يحفَظُ ألْفَ ألْفِ حديثٍ.

فقِيلَ لَهُ: وما يُدْرِيك؟ قال: ذاكَرْتُهُ، فأَخَذْتُ عليهِ الأبوابَ.

قال الإمامُ الذَّهَبِيُّ: هذهِ حكايةٌ صحيحةٌ في سَعَةِ علمِ أبي عبدِ اللهِ، وكانوا يَعُدُّونَ في ذلكَ المُكَرَّرَ، والأثَرَ، وفتوىٰ التابعيِّ، وما فَسَّرَ، ونَحْوَ ذلك[٤].

قال عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ: قال لي أبي: خُذْ أيَّ كتابٍ شِئْتَ مِنْ كُتُبِ وَكِيعٍ من المُصَنَّفِ، فإنْ شِئْتَ أنْ تسألَني عن الكلامِ حتىٰ أُخْبِرَكَ بالإسنادِ، وإن شِئْتَ بالإسنادِ

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (جـ١١ صـ١٧٨).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (جـ١١ صـ١٧٩).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (جـ١١ صـ١٨١).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (جـ١١ صـ١٨٧).

ة ضوئيا بـ CamScanner

حتىٰ أُخبِرَكَ أنا بالكَلامِ[١].

وقال عبدُ الوَهَّابِ الورَّاقُ: ما رأيتُ مثلَ أحمَدَ بنِ حَنبَلٍ. قالوا له: وأيُّ شيءٍ بانَ لك من فضلِهِ وعلمِهِ علىٰ سائرِ من رَأيتَ؟

قال رَجُلٌ سُئِلَ عن سِتِّينَ ألفَ مسألةٍ فأجابَ فيها بأنْ: حَدَّثنا، وأخبَرنا ورَوَينا[٢].

وإلىٰ هذا أشارَ الصَّرْصَرِيُّ في لاميَّتِهِ بقولِهِ يَمْدَحُ الإمامَ أحمَدَ رَحِمَهُ اللهُ:

حوى ألفَ ألفٍ من أحاديثَ أُسنِدَتْ ... وأثبَتَها حِفظًا بقَلْبٍ مُحَصِّلِ

أجابَ علىٰ سِتِّينَ ألفَ قضيَّةٍ ... بأخبَرَنا لا عن صحائِفِ نُقَّلِ[٣]

* أقوالُ العلماءِ في الإمامِ أحمَدَ:

قال الإمامُ الشافعيُّ: خَرَجْتُ من بَغْدادَ، فما خلَّفْتُ بها رَجُلًا أفضَلَ، ولا أعلمَ، ولا أفقَهَ، ولا أتقىٰ من أحمَدَ بنِ حَنبَلَ[٤].

وقال الشافعيُّ أيضًا: يا أبا عبدِ اللهِ، إذا صَحَّ عندَكم الحديثُ، فأخبِرونا حتىٰ نَرْجِعَ إليه، أنتمْ أعلَمُ بالأخبارِ الصِّحَاحِ مِنَّا، فإذا كان خبرٌ صحيحٌ، فأعلِمْني حتىٰ أذهَبَ إليه؛ كُوفِيًّا كان أو بَصْرِيًّا أو شامِيًّا[٥].

قال إبراهيمُ الحَرْبيُّ: رأيتُ أحمدَ بنَ حنبلَ كأنَّ اللهَ قد جَمَعَ له عِلْمَ الأوَّلِينَ

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (جـ١١ صـ١٨٦).

(٢) غذاء الألباب (١/ ٢٣١).

(٣) المرجعُ السابقُ (١/ ٢٣١).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٩٥).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٢١٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

والآخِرِينَ من كُلِّ صِنْفٍ، يقولُ ما شاءَ، ويُمْسِكُ ما شاءَ[١].

قال إسحاقُ بنُ راهَوَيْهِ: أَحْمَدُ حُجَّةٌ بينَ اللهِ وبينَ خَلْقِهِ[٢] قال عَبْدُ الرزَّاقِ بنُ هَمَّامٍ: ما رَأَيْتُ أحدًا أفقهَ ولا أورَعَ من أحمدَ بنِ حنبلٍ[٣].

قال يحيىٰ بنُ آدَمَ: أحمدُ بنُ حنبلٍ إمامُنا[٤]. قال عمرٌو الناقِدُ: إذا وافَقَني أحمدُ بنُ حنبلٍ علىٰ حديثٍ، لا أُبالي مَنْ خالَفَني[٥].

قال ابنُ أبي حاتمٍ: سألْتُ أبي عن عليِّ بنِ المدينيِّ وأحمدَ بنِ حنبلٍ، أيُّهما أحفَظُ؟ فقال: كانا في الحِفْظِ مُتَقارِبَيْنِ، وكان أحمدُ أفقه، إذا رأيْتَ مَنْ يُحِبُّ أحمدَ، فاعْلَمْ أنَّهُ صاحِبُ سُنَّةٍ[٦].

قال محمدُ بن يحيىٰ الذُّهليُّ: جَعَلْتُ أحمدَ إمامًا فيما بيني وبين اللهِ[٧].

قال أبو عُمَرَ بنُ النحاسِ وذَكَرَ أحمدَ يومًا فقال: رَحِمَهُ اللهُ، في الدِّينِ ما كان أبْصَرَهُ! وعند الدنيا ما كان أصْبَرَهُ! وفي الزُّهْدِ ما كان أخْبَرَهُ! وبالصالحين ما كان ألْحَقَهُ! وبالمَاضِينَ ما كان أشْبَهَهُ! عُرِضَتْ له الدنيا فأباها، والبِدَعُ فنفاها[٨].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٣٧).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٩٦).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٩٥).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٨٩).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٩٨).

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٩٨).

(٧) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٩٨).

(٨) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٤٠٧).

ة صوبا بـ CamScanner

قال بِشْرُ بنُ الحارِثِ الحافي بعدما ضُرِبَ أَحْمَدُ بنُ حنبلٍ: أُدْخِلَ أَحْمَدُ الكيرَ فخَرَجَ ذهبًا أَحْمَرَ(١).

قال نَصْرُ بنُ عليٍّ الجَهْضَميُّ: أحمدُ أَفْضَلُ أَهْلِ زمانِهِ(٢).

قال عليُّ بنُ المدينيِّ: أَحْمَدُ أَفْضَلُ عندي من سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ في زمانِهِ؛ لأنَّ سعيدًا كان لَهُ نُظَرَاءُ.

وقال عليُّ بن المدينيِّ أيضًا: أَعَزَّ اللهُ الدِّينَ بالصِّدِّيقِ يومَ الرِّدَّةِ، وبأَحْمَدَ يومَ المِحْنَةِ(٣).

وقال عليُّ بنُ المدينيِّ: أَمَرَنِي سَيِّدِي أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ أَلَّا أُحَدِّثَ إلا مِن كتابٍ(٤).

قال يحيىٰ بنُ مَعينٍ أيضًا: كان في أَحْمَدَ بنِ حنبلٍ خصالٌ ما رأيتُها في عالمٍ قَطُّ، كان مُحَدِّثًا، وكان حافِظًا، وكان عالِمًا، وكان وَرِعًا، وكان زاهِدًا، وكان عاقِلًا(٥).

قال أبو عاصِمٍ النَّبيلُ، وقد ذَكَرَ طُلَّابَ العِلْمِ، فقال: ما رأينا في القومِ مِثْلَ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ(٦). فَرَحْمَةُ اللهِ عليهِ.

ابْتِلاءُ أحمدَ بفِتْنَةِ خَلْقِ القُرآنِ:

قال الإمامُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: كان قد اجْتَمَعَ علىٰ الخليفةِ المأمونِ واسْتَحْوَذَ عليهِ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ١٠٧).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٩٧).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (جـ١١ صـ١٩٦).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (جـ١١ صـ٢٠).

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (جـ١٠ صـ٣٥).

(٦) صِفَةُ الصفوةِ لابنِ الجوزي (جـ٢ صـ٣٣٩).

ة ضوئيا بـ CamScanner

جماعةٌ من المُعْتَزِلَةِ، فأزاغوه عن طريقِ الحَقِّ إلىٰ الباطِلِ، وزيَّنوا له القولَ بِخَلْقِ القُرْآنِ، ونَفْيِ الصِّفاتِ عن اللهِ ﷻ.

قال الحافِظُ البيهقيُّ: ولم يَكُنْ في الخُلَفاءِ قَبْلَهُ، لا مِن بني أُمَيَّةَ ولا من بني العباسِ، خليفةٌ إلا علىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ، حتىٰ وَلِيَ هو الخلافَةَ، فاجتمعَ به هؤلاءِ، فحَمَلُوه علىٰ ذلِكَ، قالوا: واتَّفَقَ خُروجُهُ إلىٰ طَرْسُوسَ لغَزْوِ بِلادِ الرُّومِ، فعَنَّ لَهُ أَنْ يَكْتُبَ إلىٰ نائِبِ بغدادَ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ بنِ مُصْعَبٍ يأمُرُهُ أَنْ يَدْعُوَ الناسَ إلىٰ القولِ بِخَلْقِ القرآنِ[1]، واتَّفَقَ ذلكَ في آخِرِ عُمْرِهِ، قَبْلَ موتِهِ بشُهورٍ من سَنَةِ ثمانيَ عَشْرَةَ ومائتين.

فلَمَّا وَصَلَ الكتابُ، كما ذَكَرْنا، اسْتَدْعَىٰ جماعةً من أَئِمَّةِ الحديثِ، فدعَاهم إلىٰ ذلك فامْتَنَعُوا، فَتَهَدَّدَهُم بالضَّرْبِ، وقَطْعِ الأَرْزاقِ، فأجابَ أكثرُهم مُكْرَهِينَ، واستمرَّ علىٰ الامتناعِ في ذلكَ الإمامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، ومُحَمَّدُ بنُ نوحٍ الجنديسابوريُّ، فحُمِلا علىٰ بعيرٍ، وسَيَّرَهما إلىٰ الخليفةِ عن أمرِهِ بذلك، وهما مُقَيَّدانِ مُتَعادِلانِ في مَحْمَلٍ علىٰ بعيرٍ واحدٍ، فلمَّا كانوا ببلادِ الرَّحْبَةِ، جاءَ رَجُلٌ من الأعْرابِ مِن عُبَّادِهِمْ يُقالُ له: جابِرُ بْنُ عامِرٍ، فسَلَّمَ علىٰ الإمامِ أحمدَ، وقال له: يا هذا، إنَّكَ وافدُ الناسِ، فلا تَكُنْ مَشْؤومًا عليهم، وإنكَ رَأْسُ الناسِ اليومَ؛ فإيَّاكَ أَنْ تُجيبَ فيُجيبوا، وإنْ كُنْتَ تُحِبُّ اللهَ، فاصْبِرْ علىٰ ما أنتَ فيه؛ فإنَّ ما بينَكَ وبينَ الجَنَّةِ إلَّا أَنْ تُقْتَلَ، وإنَّكَ إنْ لم تُقتَلْ تَمُتْ، وإن عِشْتَ عِشْتَ حميدًا، قال الإمامُ أحمدُ: فكانَ ذلك ما قَوَّىٰ عَزْمِي علىٰ ما أنا فيهِ من الامْتناعِ من ذلك، فلمَّا اقْتَرَبوا من جَيْشِ المأمونِ ونَزَلُوا دونَهُ بمَرْحَلَةٍ، جاءَ خادِمٌ وهو يَمْسَحُ دموعَهُ

---

(١) الذي عليه المسلمونَ أنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ غَيْرُ مَخلوقٍ؛ ومَن اعْتَقَدَ غَيْرَ ذلكَ فإنَّهُ كافِرٌ، وذلك لأنَّ الهَدَفَ مِنْ هذا القَوْلِ الباطِلِ نَفْيُ صِفاتِ اللهِ ﷻ ونَفْيُ صِفَةِ الكلامِ عن اللهِ ﷻ، واللهُ سبحانَهُ يُوصَفُ بأنَّهُ يَتَكَلَّمُ كلامًا يَليقُ بِجَلالِهِ.

CamScanner ضوئيا بـ

بِطَرَفِ ثيابِهِ، وهو يَقُولُ: يعِزُّ عليَّ يا أبا عبدِ اللهِ أنَّ المأمونَ قد سَلَّ سَيفًا لم يسُلَّهُ قبلَ ذلك، وبَسَطَ نَطعًا لم يَبْسُطْهُ قبلَ ذلك، وأنَّهُ يُقسِمُ بِقَرابَتِهِ من رسولِ اللهِ ﷺ لَئِنْ لم تُجِبْهُ إلىٰ القولِ بخَلْقِ القُرآنِ، لَيقتُلَنَّكَ بذلكَ السَّيفِ، قال: فَجَثا الإمامُ أحمدُ علىٰ رُكْبَتَيْهِ، ورَمَقَ بِطَرْفِهِ إلىٰ السماءِ، ثم قال: سَيِّدي، غَرَّ حِلمُك هذا الفاجِرَ حتىٰ يَتَجَبَّرَ علىٰ أولِيائِكَ بالضَّرْبِ والقَتْلِ، اللهمَّ فإنْ يكُنِ القرآنُ كلامَكَ غيرَ مخلوقٍ، فاكْفِنا مُؤْنَتَهُ، قال: فجاءَهم الصَّريخُ بمَوْتِ المأمونِ في الثُّلُثِ الأخيرِ من اللَّيلِ.

قال أحمدُ: فَفَرِحْتُ بذلك، ثم جاءَ الخَبَرُ بأنَّ المُعْتَصِمَ قد وَلِيَ الخلافَةَ، وقد انْضَمَّ إليهِ أحمَدُ بنُ أبي دُؤادَ، وأنَّ الأمْرَ شديدٌ، فردُّونا إلىٰ بغدادَ في سفينةٍ مع بَعْضِ الأسارىٰ، ونالني معهم أذًىٰ كثيرٌ، وكان في رجلَيْهِ القيودُ، وماتَ صاحِبُهُ محمدُ بنُ نوحٍ في الطريقِ، وصلَّىٰ عليه أحمدُ، فلمَّا رَجَعَ أحمدُ إلىٰ بغدادَ دخَلَها وهو مريضٌ، وذلك في رمضانَ، فأُودِعَ السِّجْنَ نَحْوًا من ثمانيةٍ وعِشرين شهرًا، وقيل: ثَيِّفًا وثلاثينَ شهرًا، ثم أُخرِجَ إلىٰ الضَّرْبِ بين يَدَي المعتصمِ، كما سيأتي إن شاءَ اللهُ تعالىٰ وبِهِ الثِّقَةُ، وقد كان الإمامُ أحمدُ هو الذي يُصَلِّي بأَهْلِ السِّجْنِ وعليه قُيُودٌ في رِجْلَيْهِ، ولمَّا أَحْضَرَهُ المعتصمُ من السِّجْنِ زِيدَ في قُيُودِهِ، قال أحمدُ: فلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَمْشِيَ بها، فَرَبَطْتُها في التكةِ وحَمَلْتُها بيدي، ثم جاؤوني بدابَّةٍ، فَحُمِلْتُ عليها، فكِدْتُ أَنْ أَسْقُطَ علىٰ وَجْهي من ثِقَلِ القيودِ، وليس معي أَحَدٌ يُمْسِكُني، فسَلَّمَ اللهُ حتىٰ جِئْنا دارَ الخِلافةِ، فأُدْخِلْتُ في بَيْتٍ، وأُغْلِقَ عَلَيَّ، وليسَ عندي سِرَاجٌ، فأَرَدْتُ الوُضُوءَ فَمَدَدْتُ يدي فإذا إناءٌ فيه ماءٌ فَتَوَضَّأْتُ منه، ثم قُمْتُ أُصَلِّي، ولا أَعْرِفُ القِبْلَةَ، فلمَّا أَصْبَحْتُ إذا أنا علىٰ القِبْلَةِ، ولله الحَمْدُ، قال: ثم دُعِيتُ فأُدْخِلْتُ علىٰ المُعْتَصِمِ، فلمَّا نَظَرَ إليَّ، وعندَهُ ابنُ أبي دُؤادَ، قال: أليس قد زَعَمْتُم أَنَّهُ حَدَثُ السِّنِّ، وهذا شَيْخٌ

مُكْتَهِلٌ؟ فلمَّا دَنَوْتُ منه وسَلَّمْتُ قال لي: ادْنُ، فَلَمْ يَزَلْ يُدْنِيني حتىٰ قَرُبْتُ منه، ثم قال: اجْلِسْ، فجَلَسْتُ وقد أثقلني الحديدُ، فمَكَثْتُ ساعةً، ثم قُلْتُ: يا أميرَ المؤمنين، إلامَ دعا إليهِ ابنُ عَمِّكَ رسولُ اللهِ ﷺ؟ قال: إلىٰ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، قلت: فإني أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، قال: ثم ذَكَرْتُ له حديثَ ابن عباسٍ في وَفْدِ عبدِ القَيْسِ، ثم قُلْتُ: فهذا الذي دعا إليه رسولُ الله ﷺ، قال: ثم تكَلَّمَ ابنُ أبي دُؤادَ بكلامٍ لم أفهَمْهُ؛ وذلك لأنِّي لم أتَفَقَّهْ كلامَهُ، ثم قال المعتصمُ: لولا أنكَ كُنْتَ في يَدِ مَنْ كان قَبْلي لم أتَعَرَّضْ إليك، ثم قال: يا عبدَ الرحمنِ، أَلَمْ آمُرْكَ أنْ ترفَعَ المِحْنَةَ؟ قال أحمدُ: فقُلْتُ: اللهُ أكبرُ، هذا فَرَجٌ للمسلمين، ثم قال: ناظِروه، يا عبدَ الرحمنِ، كلِّمْهُ، فقال لي عبدُ الرحمنِ: ما تقولُ في القرآنِ؟ فَلَمْ أُجِبْهُ، فقال المعتصمُ: أجِبْهُ، فَقُلْتُ: ما تقولُ في العِلْمِ؟ فسَكَتَ، فقُلْتُ: القرآنُ من عِلْمِ اللهِ، ومَنْ زَعَمَ أنَّ عِلْمَ اللهِ مَخْلوقٌ فقد كَفَرَ باللهِ، فَسَكَتُّ، فقالوا فيما بينهم: يا أميرَ المؤمنين، كفَّرَكَ وكفَّرَنا، فلم يَلْتَفِتْ إلىٰ ذلك، فقال عبدُ الرحمنِ: كان اللهُ ولا قرآنَ؟ فقلتُ: كان اللهُ ولا عِلْمَ؟ فَسَكَتُّ، فجعلوا يتكلَّمون من ها هنا وها هنا، فقُلْتُ: يا أميرَ المؤمنين، أعْطوني شيئًا من كتابِ الله أو سُنَّةِ رسولِ الله حتىٰ أقولَ به، فقال ابنُ أبي دؤادَ: وأنتَ لا تَقُولُ إلَّا بهذا وهذا؟ فقلت: وهل يقومُ الإسلامُ إلَّا بِهما؟

وجَرَتْ بينهما مُناظَرَاتٌ طويلةٌ، واحْتَجُّوا عليه بقولِهِ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وعنه في ذلكَ أجْوِبَةٌ بِحَدَثِ إنزالِهِ، أو ذِكْرٌ غيرُ القرآنِ مُحْدَثٌ كما تَقَدَّمَ، ورَشَّحَ هذا بقولِهِ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: ١] يعني به القرآنَ، بخِلافِ الذِّكرِ؛ فإنَّهُ غَيْرُ القرآنِ، وبقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرَّعْدُ: ١٦]، وأجابَ بما حاصِلُهُ أنَّهُ عامٌّ مخصوصٌ بقولِهِ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]،

فقال ابنُ أبي دؤاد: هو والله يا أميرَ المؤمنين ضالٌّ مضلٌّ مُبتدِعٌ، وهؤلاء فُصحاؤك والفقهاءُ فَسَلْهُمْ، فقال لهم: ما تقولونَ فيه؟ فأجابوا بمثلِ ما قال ابنُ أبي دؤاد، ثم أحضروهُ في اليومِ الثاني فناظَرُوهُ أيضًا، ثمَّ في اليومِ الثالثِ فناظَرُوهُ أيضًا، وفي ذلك كُلِّهِ يعلو صوتُهُ عليهم، وتَغْلِبُ حُجَّتُهُ حُجَجَهُم، قال: فإذا سَكَتوا فَتَحَ الكلامَ عليهم ابنُ أبي دؤاد، وكان من أجهلِ الناسِ بالعِلْمِ والكلامِ، وقد تنوَّعَتْ بهم المسائلُ في المُجادَلَةِ، ولا عِلْمَ لهم بالنَّقْلِ، فجعلوا يُنكِرون الآثارَ، ويَرُدُّون الاحتجاجَ بها.

وقال أحمدُ: سمِعْتُ منهم مقالاتٍ لم أكُنْ أظُنُّ أنَّ أحدًا يقولُها، وقد تكلَّمَ معي برغوثٌ بكلامٍ طويلٍ ذَكَرَ فيه الجِسْمَ وغيرَهُ بما لا فائدةَ فيه، فَقُلْتُ: لا أدري ما تقولُ، إلا أنِّي أعلمُ أنَّ اللهَ أحَدٌ صَمَدٌ، ليس كمثلِهِ شيءٌ، فسَكَتَ عَنِّي.

وقد أوْرَدْتُ لهم حديثَ الرُّؤْيةِ في الدارِ الآخرةِ، فحاولوا أنْ يُضَعِّفُوا إسنادَهُ، ويُلَفِّقُوا عن بعضِ المُحَدِّثين كلامًا يَتَسَلَّقُون به إلى الطَّعْنِ فيه، وهَيْهاتَ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سبأ: ٥٣]، وفي غُبونِ ذلك كُلِّهِ يتَلَطَّفُ به الخليفةُ، ويقولُ: يا أحمدُ، أجِبْني إلى هذا حتى أجعلَكَ من خاصَّتي، ومِمَّنْ يَطَأُ بساطي، فأقولُ: يا أميرَ المؤمنين، يأتوني بآيةٍ من كتابِ اللهِ أو سُنَّةٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ حتى أُجِيبَهم إليها، واحْتَجَّ أحمدُ عليهم حين أنكروا الاحتجاجَ بالآثارِ بقولِهِ تعالى حكايةً عن إبراهيمَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢]، وبقولِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، وبقولِهِ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]، وبقولِهِ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وبقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، فلمَّا لم يَقُمْ لهم معَهُ حُجَّةٌ، عدَلوا إلى استعمالِ جاهِ الخليفةِ في ذلك، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، هذا كافرٌ ضالٌّ مُضِلٌّ، وقال له

ة ضوئيا بـ CamScanner

إسحاقُ بنُ إبراهيمَ نائبُ بغدادَ: يا أميرَ المؤمنين، ليسَ من تدبير الخلافةِ أنْ تُخَلِّي سبيلَهُ ويَغْلِبُ خليفتين، فعند ذلك حَمِيَ واشتدَّ غضبُهُ، وكان إليهم عَرِيكةً، وهو يَظُنُّ أنهم على شيءٍ، قال أحمدُ: فعند ذلك قال لي: لَعَنَكَ اللهُ، طمِعْتُ فيكَ أن تجيبَني فلم تُجِبْني، ثم قال: خُذُوه واخلَعوه واسحَبُوهُ.

قال أحمدُ: فأُخِذْتُ وسُحِبْتُ وخُلِعْتُ، وجيءَ بالعقابين والسِّياطِ، وأنا أنظُرُ، وكان معي شَعْرٌ من شَعْرِ النبيِّ ﷺ مصرورٌ في ثَوبي، فجَرَّدُوني منه، وصِرْتُ بين العقابين، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، اللهَ اللهَ، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مسلمٍ يَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ إلا بإحدى ثلاثٍ»، وتَلَوْتُ الحديثَ، وإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلا اللهُ، فإذا قالوا عَصَمُوا مني دماءَهم وأموالَهم»، فبِمَ تَسْتَحِلُّ دمِي؟! ولم آتِ شيئًا من هذا، يا أميرَ المؤمنين، اذْكُرْ وقوفَكَ بين يَدَيِ اللهِ كوقوفي بين يديك، فكأنَّهُ أمسَكَ، ثم لم يزالوا يقولون له: يا أميرَ المؤمنين، إنَّهُ ضالٌّ مُضِلٌّ كافِرٌ، فأمَرَ بي فأُقِمتُ بين العقابين، وجِيءَ بكُرْسِيٍّ فأُقِمْتُ عليه، وأمَرَني بَعْضُهم أن آخُذَ بِيَدِي بأيِّ الخَشَبتين، فلم أفْهم، فتخلَّعت يداي، وجِيءَ بالضَّرَّابين ومعهم السِّيَاطُ، فجعل أحَدُهم يَضْرِبُني سَوطَين، ويقولُ له - يعني المُعْتَصِمُ -: شُدَّ، قَطَعَ اللهُ يَدَكَ! ويجيءُ الآخَرُ فيضْرِبُني سَوطَين، ثم الآخَرُ كذلك، فضربوني أسْواطًا، فأُغْمِيَ عليَّ، وذَهَبَ عقلي مرارًا، فإذا سَكَنَ الضَّرْبُ يعودُ إليَّ عَقلي، وقامَ المعتصمُ إليَّ يدعوني إلى قولِهم، فلَمْ أُجِبْهُ، وجعلوا يقولون: ويْحَكَ، الخليفةُ على رأسِكَ، فلَمْ أقبلْ، فأعادوا الضَّرْبَ، ثم عادَ إليَّ فلم أُجِبْهُ، فأعادوا الضربَ، ثم جاءَ إليَّ الثالثةَ، فدعاني فلم أعْقِلْ ما قال من شِدَّةِ الضَّرْبِ، ثم أعادوا الضَّرْبَ، فذَهَبَ عقلي، فلم أحُسَّ بالضَّرْبِ، وأرْعَبَهُ ذلك من أمري، وأمَرَ بي

فأطلقتُ، ولم أشعُرْ إلا وأنا في حُجْرَةٍ من بيتٍ وقد أُطلِقَتْ الأقيادُ من رِجلي، وكان ذلك في اليومِ الخامسِ والعشرين من رمضانَ من سَنَةِ إحدى وعشرين ومائتين، ثم أمرَ الخليفةُ بإطلاقِهِ إلى أهلِهِ، وكان جملةُ ما ضُرِبَ نيفًا وثلاثين سَوْطًا، وقيل: ثمانينَ سَوْطًا، لكنْ كان ضَرْبًا مُبَرِّحًا شديدًا جدًّا.

ولمَّا حُمِلَ من دارِ الخلافةِ إلى دارِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، وهو صائمٌ، أتوهُ بسُوَيقٍ وماءٍ؛ ليُفطِرَ من الضَّعْفِ، فامتَنَعَ من ذلك، وأتمَّ صَوْمَهُ، وحين حَضَرَتْ صلاةُ الظُّهرِ صلى معهم، فقال له ابنُ سماعةَ القاضي: صَلَّيْتَ في دَمِكَ؟ فقال له أحمدُ: قد صَلَّى عُمَرُ وجُرْحُهُ يَثْعُبُ دَمًا، فسَكَتَ[1].

قد قالَها وعيونُ القومِ شاخِصَةٌ ... والسَّوطُ في جُرْحِهِ الرَّعَّافِ يَغْتَسِلُ
لا لَنْ أقولَ لكم ما ترغَبون ولَنْ ... أُغالِطَ النَّفْسَ هذا شأنُ من سَفَلُوا
قُرْآنُنا ليسَ مخلوقًا وإنْ وَرِمَتْ ... أنوفُكم لَيْسَ مِثْلَ الوردةِ البَصَلُ

* نَدَمُ الخَليفةِ المعتصمِ على ضَرْبِ أحمدَ:

لما رَجَعَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ إلى منزلِهِ، جاءَهُ الطبيبُ فَقَطَعَ لحْمًا مَيِّتًا من جَسَدِهِ، وجعل يُداويهِ، والنائبُ يبْعَث كثيرًا في كُلِّ وقْتٍ يَسْأَلُ عنه؛ وذلك أنَّ المُعْتَصِمَ ندم على ما كان منه إلى أحمدَ نَدَمًا كثيرًا، وجعل يسأَلُ النائبَ عنه، والنائبُ يستعلِمُ خَبَرَهُ، فلمَّا عُوفِيَ، فَرِحَ المُعْتَصِمُ والمسلمون بذلك، ولما شفاهُ اللهُ بالعافيةِ، بَقِيَ مدةً وإبهاماهُ يؤذِيهما البَرْدُ، وجَعَلَ كُلَّ مَن سَعَى في أمرِهِ في حِلٍّ إلا أهلَ البدعةِ، وكان يتلو في ذلك قولَهُ تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، ويقولُ: ماذا ينفَعُكَ

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٣٤٩: ٣٤٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

أن يُعَذِّبَ أخوك المُسْلِمُ في سبيلك؟ وقد قال اللهُ تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، وينادىٰ يومَ القيامةِ: «ليَقُمْ مَن أجرُهُ علىٰ اللهِ»، فلا يقومُ إلَّا مَنْ عفا»[١].

* ثَبَاتُ أَحْمَدَ علىٰ الحَقِّ وانتهاءُ المِحْنَةِ:

خرجَ أحمدُ من سجنِهِ إلىٰ منزلِهِ وهو ثابتٌ علىٰ الحَقِّ، ولَزِمَ مَنْزِلَهُ، وامتنعَ من التحديثِ، وذلك بأمْرِ الخليفةِ المعتصمِ، وأحمدُ صابرٌ محتسبٌ، ولم يزَلْ كذلك مُدَّةَ خلافةِ المعتصمِ، وكذلك في أيامِ ابنِهِ محمدٍ الواثِقِ، فلما وَلِيَ المُتَوَكِّلُ علىٰ اللهِ جعفَرُ بنُ المعتصمِ استبشرَ الناسُ بولايتِهِ؛ فإنَّهُ كان مُحِبًّا للسنَّةِ وأهلِها، ورَفَعَ المحنةَ عن الناسِ، وكَتَبَ إلىٰ الآفاقِ ألَّا يتكلَّمَ أحدٌ في القولِ بخَلْقِ القرآنِ، ثم كَتَبَ إلىٰ نائبِهِ ببَغدادَ وهو إسحاقُ بنُ إبراهيمَ أن يبعَثَ بأحْمَدَ بنِ حنبلٍ إليه، فاستدعىٰ إسحاقُ بالإمامِ أحمدَ إليه، فأكْرَمَهُ إسحاقُ وعَظَّمَهُ؛ لما يعلمُ من إعظامِ الخليفةِ له وإجلالِهِ إياهُ، وسألَهُ فيما بينَهُ وبينَهُ عن القرآنِ، فقال له أحْمَدُ: سؤالُ تَعَنُّتٍ أو اسْتِرشادٍ؟ فقال: بل سؤالُ اسْتِرْشادٍ، فقال: هو كلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مخلوقٍ، فسَكَنَ إلىٰ قولِهِ في ذلك، ثم جَهَّزَهُ إلىٰ الخليفةِ بسُرَّ مَنْ رَأَىٰ[٢].

* اهتمامُ الخليفةِ المُتَوَكِّلِ بعلاجِ أَحْمَدَ:

لَمَّا طالتْ عِلَّةُ أبي عبدِ اللهِ، كان المتوكِّلُ يَبْعَثُ بابنِ ماسَوَيْهِ المُتَطَبِّبِ، فيَصِفُ له الأدويةَ، فلا يتعالَجُ، ويَدْخُلُ ابنُ ماسَوَيْهِ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ليستْ بأحْمَدَ عِلَّةٌ، إنما هو من قِلَّةِ الطعامِ والصيامِ والعبادةِ، فسَكَتَ المُتَوَكِّلُ[٣].

---

(١) المرجعُ السابقُ (١٠/ ٣٤٩).

(٢) المرجعُ السابقُ (١٠/ ٣٥١).

(٣) سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ للذهبي (١١/ ٢٧١).

ة ضوئيا بـ CamScanner

يا صامدًا وسياطُ القومِ ناهلةٌ ... من جُرْحِهِ ولظَى الآلامِ يشتعلُ

أَسْلَمْتَ ظَهْرَكَ للحجَّامِ يقطَعُ مِنْ ... جراحِهِ أَثَرَ السَّوْطِ الذي فَتَلُوا

وكُنْتَ تدعو إذا آذَتْكَ شَفْرَتُهُ ... بالخَيرِ للناسِ لم تَعْبَأْ بما فعلوا

لله جوهَرُكَ الحُرُّ الذي عَجَزَتْ ... أَنْ تَسْتَدِلَّ إلى أمثالِهِ المُثُلُ

* وفاةُ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ:

قال صالحُ بنُ أَحْمَدَ: لما كان أَوَّلُ ربيعٍ الأولِ أصابَت أبي الحُمَّىٰ ليلةَ الأربعاءِ، وباتَ وهو محمومٌ، يتنفسُ تنفسًا شديدًا، وكنت قد عَرَفْتُ عِلَّتَهُ، وكنتُ أُمَرِّضُهُ إذا اعْتَلَّ، قال المروذيُّ: مَرِضَ أبو عبدِ الله ليلةَ الأربعاءِ لليلتين خلَتا من شَهْرِ ربيعٍ الأوَّلِ، ومَرِضَ تسعةَ أيامٍ، وتسامَعَ الناسُ، فأَقْبلوا لعيادتِهِ، فربَّما أَذِنَ للناسِ فيدخلون أفواجًا يُسَلِّمون عليه فَيَرُدُّ عليهم بيدِهِ، وقد بَلَغَهُ في مرضِهِ عن طاووسَ أنَّه كان يكْرَهُ أنينَ المريضِ، فتَرَكَ الأَنينَ، فلم يَئِنَّ حتىٰ كانتِ الليلةُ التي تُوُفِّيَ في صَبيحَتِها، فأَنَّ حينَ اشْتَدَّ به الوجَعُ.

وأَحْسَنُ ما كان من أمرِهِ أَنَّهُ أشارَ إلىٰ أهلِهِ أَنْ يوضِّئوه، فجعلوا يوضِّئُونَهُ، وهو يشيرُ إليهم أَنْ خَلِّلُوا أصابِعي، وهو يذكُرُ اللهَ في جميعِ ذلك، فلمَّا أكمَلوا الوضوءَ تُوُفِّيَ رحمه الله ورَضِيَ عنه، وكان ذلك يومَ الجُمُعَةِ، الثاني عَشَرَ من ربيعٍ الأولِ، سنةَ إحدىٰ وأربعين ومائتين من الهجرةِ، وكان عُمْرُهُ سَبْعًا وسبْعينَ سنةً.

قال عبدُ الوَهَّابِ الوَرَّاقُ أيضًا: ما بَلَغَنا أَنَّ جَمْعًا في الجاهليَّةِ والإسلامِ كان أكثرَ من الجَمْعِ علىٰ جنازَةِ أبي عبدِ اللهِ[1].

(١) سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ للذهبي ١١/ ٣٤٢: ٣٣٤ والبدايةُ والنهايةُ لابنِ كثيرٍ (١٠/ ٣٥٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

٧- محمدُ بنُ إسماعيل البُخاريُّ:

● التعريفُ بالإمامِ البخاريِّ:

اسْمُهُ ونَسَبُهُ: أبو عبدِ اللهِ بنُ أبي الحَسَنِ، محمَّدُ بنُ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ بنِ المُغيرةِ بنِ بَرْدِزْبَهْ، الجَعْفِيُّ مولاهم، البخاريُّ.

فأمَّا الجَعْفِيُّ: فنِسْبَةً إلى يَمانِ الجَعْفِيِّ الذي أَسْلَمَ على يدَيْهِ المُغيرةُ جَدُّ البخاريِّ، وكان قبلُ مَجُوسِيًّا، فنُسِبَ إليه نِسْبَةَ ولاءِ إسلامٍ.

وأمَّا البُخاريُّ: فنِسْبَةً إلى مدينةِ «بُخارى» الواقعةِ في بلادِ ما وراءَ النَّهْرِ، وهي الآنَ تَقَعُ في الجزءِ الغربيِّ من جمهوريَّةِ «أوزبكستان».

* مولِدُهُ ومكانُ ولادَتِهِ:

وُلِدَ يومَ الجُمُعَةِ بعدَ صلاتِها، لثَلاثَ عَشْرَةَ ليلةً خَلَتْ من شَهْرِ شوَّالَ، سَنَةَ أربعٍ وتسعينَ ومائةٍ، «بِبُخارى»، وقد ذكرَ البخاريُّ أنَّهُ وَجَدَ تاريخَ مولِدِهِ بخَطِّ أبيهِ(١).

* نَشْأَتُهُ:

ماتَ أبوه وهو صغيرٌ، فَنَشَأَ في حِجْرِ أُمِّهِ، وكان أبوهُ قد تَرَكَ مالًا أعانَ أمَّهُ على تَنشِئَتِهِ وتربيتِهِ التربيةَ الكريمةَ، قال أبوهُ «إسماعيلُ» عندَ وَفاتِهِ: «لا أَعْلَمُ في مالي دِرْهَمًا من حرامٍ ولا شُبْهَةٍ»(٢).

---

(١) انظرْ: «هَدْي الساري»، ص(٤٧٧).

(٢) ترجَم لَهُ ابنُهُ محمدٌ في «التاريخ الكبير»، (١/ ٣٤٢)، فقال: «إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ بنِ المغيرةِ الجَعفيُّ، أبو الحَسَنِ، رأى حمَّادَ بنَ زيدٍ، وصافَحَ ابنَ المباركِ بكِلْتا يدَيْهِ، وسَمِعَ مالِكًا»، وترجَم له ابنُ حِبَّانَ في «الثِّقاتِ»، (٨/ ٩٨).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ذَهَبَتْ عيناهُ في صِغَرِهِ، فرأتْ أُمُّهُ خليلَ الرحمنِ إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - في المنامِ، فقال لها: «يا هذه، قد رَدَّ اللهُ على ابنكِ بَصَرَهُ بكثْرَةِ دعائِكِ أو بكائِكِ»، فأصْبَحَ وقدْ رَدَّ اللهُ له بَصَرَهُ[١].

* طَلَبُهُ للعِلْمِ والحديثِ ورِحلاتُهُ:

ظَهَرَ نبوغُهُ العلميُّ في سِنٍّ مبكرةٍ وهو ابنُ عَشْرِ سِنين، فبدأ بطَلَبِ العلمِ ببلدِهِ «بُخَارَى» قبل أنْ يرتحلَ منها، وفي سِتَّ عشرةَ سنةً حَفِظَ كُتُبَ ابنِ المبارَكِ ووَكِيعٍ[٢].

وقد سُئِلَ البُخاريُّ: كيف كان بَدْءُ أمرِكَ؟ قال: «أُلْهِمْتُ حِفظ الحديثِ وأنا في الكُتَّابِ، فقيلَ: كم كان سِنُّكَ؟ فقال: عَشْرَ سنينَ أو أقَلَّ، فلمَّا طَعَنْتُ في سِتَّ عشرةَ سنةً، كنتُ قد حَفِظْتُ كُتُبَ ابنِ المبارَكِ ووَكِيعٍ، وعرفْتُ كلامَ هؤلاءِ[٣]، ثمَّ خرجْتُ مع أمِّي وأخِي إلى «مكةَ»، فلمَّا حَجَجْتُ رَجَعَ أخي بها، وتخلَّفْتُ في طَلَبِ الحديثِ»[٤].

فكانَ هذا أوَّلَ ارتحالِهِ في طَلَبِ العِلْمِ، وكان ذلك حوالي سَنَةَ عَشْرٍ ومائتين، ثمَّ رحَلَ إلى المدينةِ، والشامِ، ومِصْرَ، ونَيسابورَ، والجزيرةِ، والبصرةِ، والكوفةِ، وبغدادَ، وواسِطَ، ومَرْوَ، والرَّيِّ، وبَلْخٍ، وغيرِها، قال الخَطيبُ: «رحلَ في طلبِ العلمِ إلى سائرِ محدِّثي الأمصارِ»[٥].

---

(١) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٦)، و«تهذيبُ الكمالِ»، (٢٤/ ٤٣٨)، و«هَدْيُ الساري»، ص (٤٧٨).

(٢) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٧)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٣٩٤).

(٣) قال ابنُ حَجَرٍ: «يَعْني أصحابَ الرأي»، «هَدْيُ الساري»، ص(٤٧٨).

(٤) انظرْ: «طبقاتِ الشافعيةِ الكبرى»، (٢/ ٢١٢)، و«هدْي الساري»، ص(٤٧٨).

(٥) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٤)، و«سِيَرِ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٣٩٤).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وقال عَمْرُو بنُ عليٍّ الفلاسُ: «حديثٌ لا يعرفُهُ محمدُ بنُ إسماعيلَ ليسَ بحديثٍ»(١).

قال إسحاقُ بنُ راهَوَيْهِ: «اكتبوا عن هذا الشابِّ - يعني البخاريَّ - فلو كان في زَمَنِ الحَسَنِ لاحتاجَ إليه الناسُ لمعرفتِهِ بالحديثِ وفِقْهِهِ»(٢).

وقال أبو عيسى الترمذيُّ: «لم أرَ بالعراقِ، ولا بخُراسانَ في معنى العِلَلِ، والتاريخِ، ومعرفةِ الأسانيدِ أعلَمَ من محمدِ بنِ إسماعيلَ»(٣).

وقال نعيمُ بنُ حمَّادٍ، ويعقوبُ بنُ إبراهيمَ الدروقيُّ: «محمدُ بن إسماعيلَ فقيهُ هذِهِ الأُمَّةِ»(٤).

* ثَنَاءُ الأَئِمَّةِ عليه:

جَعَلَ اللهُ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ عند العلماءِ وأصحابِ التَّراجِمِ، فما زالَ العلماءُ منذ عصرِهِ يُثنون عليه وعلى كتابِهِ «الصَّحيحُ»، حتى إنَّ بعضَهم ألَّفَ مؤلَّفًا مستقلًّا في ترجمتِهِ ومناقِبِهِ كالذهبيِّ(٥)، وابنِ كثيرٍ(٦)، وابنِ حَجَرٍ(٧)، وغيرُهم كثيرٌ، وهذه بَعْضُ أقوالِ وثناءِ أهلِ العِلمِ عليه:

ذُكِرَ قَوْلُ البخاريِّ لعليِّ بنِ المدينيِّ - يعني قولَهُ: «ما اسْتَصْغَرْتُ نفسي إلا بينَ يَدَيْ

---

(١) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٧٨)، و«تهذيبُ الأسماءِ واللغاتِ»، (١/ ٦٩)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٥٠).

(٢) انظرْ: «سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٢١)، و«هدْي الساري»، ص(٤٨٤).

(٣) انظرْ: «شرحُ عِلَلِ الترمذي»، (١/ ٣٢).

(٤) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٢٢)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٧٩)، و«هدْي الساري»، ص(٤٨٣).

(٥) ذَكَرَهُ في «تذكرةُ الحفَّاظ»، (٢/ ٥٥٦).

(٦) ذَكَرَهُ في «البدايةُ والنهايةُ»، (١١/ ٢٤).

(٧) ذَكَرَهُ في «تهذيبُ التهذيبِ»، (٩/ ٤٥).

ة ضوئيا بـ CamScanner

عليُّ بنِ المدينيِّ» - فقال عليٌّ: «دَعُوا هذا، فإنَّ محمدَ بنَ إسماعيلَ لم يَرَ مِثْلَ نَفْسِهِ»(١).

وجاءَ «مسلمٌ» إلىٰ البخاريِّ، فقال: «دَعْني أُقبِّلْ رجلَيكَ يا أستاذَ الأُستاذين، وسَيِّدَ المُحَدِّثينَ، وطبيبَ الحديثِ في عِلَلِهِ»(٢).

وقال «مسلمٌ» أيضًا: «لا يَبْغَضُكَ إلا حاسِدٌ، وأَشْهَدُ أنَّه ليس في الدنيا مِثْلُكَ»(٣).

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ: «ما أَخْرَجَتْ خراسانُ مثلَ محمدِ بنِ إسماعيلَ»(٤).

وقال عبدُ اللهِ بنُ سعيدِ بنِ جعفرٍ: «سَمِعْتُ العلماءَ بالبصرةِ يقولون: ما في الدنيا مثلُ محمدِ بنِ إسماعيلَ في المعرفةِ والصَّلاحِ»(٥).

وقال ابنُ خُزَيْمَةَ: «ما رأيتُ تَحْتَ أديمِ السماءِ أعلمَ بحديثِ رسولِ اللهِ ﷺ وأَحْفَظَ له من محمدِ بنِ إسماعيلَ»(٦).

وكان ابنُ صَاعِدٍ إذا ذَكَرَهُ يقولُ: «الكَبْشُ النَّطَّاحُ»(٧).

---

(١) انظرْ: «تهذيبُ الأسماءِ واللغاتِ»، (١/ ٦٩)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٢٠)، و«هدْي الساري»، ص(٤٨٣).

(٢) انظرْ: «تهذيبُ الأسماءِ واللغاتِ»، (١/ ٧٠)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٣٢)، و«هدْي الساري»، ص(٤٨٩).

(٣) انظرْ: «تهذيبُ الأسماءِ واللغاتِ»، (١/ ٧٠)، و«البدايةُ والنهايةُ»، (١١/ ٢٥).

(٤) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٢١)، و«تهذيبُ الأسماءِ واللغاتِ»، (١/ ٦٨)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٢٢).

(٥) انظرْ: «سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٤٢)، و«هدْي الساري» ص(٤٨٦).

(٦) انظر: «سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٣١).

(٧) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٢١)، و«وَفَيَاتُ الأعيانِ»، (٤/ ١٩٠)، و«هدْي الساري»، ص(٤٨٩).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وقال أبو بكرِ بنُ أبي شَيبَةَ ومحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ نُميرٍ: «ما رأينا مثلَ محمدِ بنِ إسماعيلَ»(١).

وقال الحافِظُ ابنُ كثيرٍ: «هو إمامُ أهلِ الحديثِ في زمانِهِ، والمقْتَدَى بِهِ في أوانِهِ، والمقدَّمُ علىٰ سائِرِ أضرابِهِ وأقرانِهِ»، وقال: «وقد كان البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في غايةِ الحياءِ، والشجاعَةِ، والسَّخاءِ، والوَرَعِ، والزُّهْدِ في الدنيا دارِ الفناءِ، والرَّغبةِ في الآخرةِ دارِ البقاءِ»(٢).

* مِحْنَتُهُ مع محمدِ بن يحيىٰ الذُّهْليِّ(٣) في مسألةِ اللَّفْظِ:

لمَّا قَدِمَ البخاريُّ نيسابورَ سَنَةَ (٢٥٠)هـ، استقبلَهُ الناسُ استقبالًا عظيمًا، فاجتمعَ الناسُ عليه مُدَّةً يحدِّثُهم، فحَسِدَهُ مَنْ حَسِدَهُ، وكان فيها محدِّثُها محمدُ بنُ يحيىٰ الذُّهْليُّ، وكان يقولُ لدىٰ مَقْدمِ البخاريِّ: «اذهبوا إلىٰ هذا الرجُلِ الصالِحِ، فاسمعوا منه»، فذَهَبَ الناسُ إليه، وأقبلوا علىٰ السماعِ منه، حتىٰ ظَهَرَ الخَلَلُ في مجلسِ محمدِ بنِ يحيىٰ، فَحَسِدَهُ بعد ذلك، وتكَلَّمَ فيه(٤).

ومن ثَمَّ سَأَلَ رجُلٌ البخاريَّ: ما تقولُ في اللَّفْظِ بالقرآنِ: مخلوقٌ هوَ، أمْ غَيْرُ مخلوقٍ؟ فأجابَ بقولِهِ: «القرآنُ كلامُ اللهِ غَيْرُ مخلوقٍ، وأفعالُ العِبادِ مخلوقةٌ، والامتحانُ بِدْعَةٌ»(٥).

---

(١) انظرْ: «سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٣١)، و«هدْي الساري»، ص(٤٨٩).

(٢) انظرْ: «البدايةُ والنهايةُ»، (١١/ ٢٤).

(٣) أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ يحيىٰ بنُ عبدِ اللهِ بنِ خالدٍ النيسابوريُّ، مولىٰ بني ذُهْلٍ، الإمامُ، شيخُ الإسلامِ، حافِظُ نيسابورَ، وُلِدَ بعدَ السبعينَ ومائةٍ، وماتَ سنةَ (٢٥٨)هـ؛ انظر: «تذكرةُ الحفَّاظِ»، (٢/ ٥٣٠)، و«تهذيبُ التهذيبِ»، (٩/ ٤٥٢).

(٤) انظر: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٣٠)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٥٣)، و«هدْي الساري»، ص(٤٩٠).

(٥) انظرْ: «سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٥٤).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وقال: «أفعالُنا مخلوقةٌ، وألفاظُنا من أفعالِنا»(١).

فلمَّا قال البخاريُّ ذلك، اختلفَ الناسُ في تفسيرِ عبارتِه: فقال البَعْضُ: «قال بخَلْقِ القُرْآنِ»، وقال البعضُ الآخَرُ: «بل قال لفظِي بالقرآنِ مخلوقٌ»، فعندها قال محمدُ بنُ يحيىٰ الذُّهْليُّ: «القرآنُ كلامُ اللهِ غَيْرُ مخلوقٍ من جميعِ جهاتِه، وحيثُ تصرفُ، فمَنْ لَزِمَ هذا استغنىٰ عن اللفظِ وعمَّا سواهُ من الكلامِ في القرآنِ، ومَن زَعَمَ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ فقد كَفَرَ، وخرجَ عن الإيمانِ، وبانتْ منه امْرَأَتُهُ، يُستتابُ، فإنْ تابَ وإلا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ، وجُعِلَ مالُهُ فيئًا بين المسلمين، ولم يُدْفَنْ في مقابِرِهم، ومَن وَقَفَ فقال: لا أقولُ: مخلوقٌ ولا غَيْرُ مخلوقٍ، فقد ضاهىٰ الكُفْرَ، ومَنْ زَعَمَ أنَّ لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ، فهذا مبتدعٌ، لا يُجالَسُ ولا يُكَلَّمُ، ومَن ذَهَبَ بعد هذا إلىٰ محمدِ بنِ إسماعيلَ البخاريِّ فاتَّهموه؛ فإنَّه لا يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ إلا مَن كان علىٰ مِثْلِ مذهَبِهِ»(٢).

فانفَضَّ الناسُ عن البخاريِّ ولم يَصِحَّ عنه أنَّه قال باللَّفْظِ؛ روىٰ الخطيبُ عن محمدِ بن نَصْرٍ المروزيِّ، قال: سمعْتُ البخاريَّ يقولُ: «مَنْ زعَمَ أنِّي قُلْتُ: لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ، فهو كذَّابٌ؛ فإنِّي لم أقلْهُ»، فقلتُ له: يا أبا عبدِ اللهِ، قد خاض الناسُ في هذا، وأكثروا فيه، فقال: «ليس إلَّا ما أقُولُ»(٣).

وقال أبو عَمْرٍو الخَفَّافُ: أتيتُ محمدَ بنَ إسماعيلَ، فناظَرْتُهُ في شيءٍ من الأحاديثِ حتىٰ طابَتْ نَفْسُهُ، فقلتُ: يا أبا عبدِ اللهِ، ها هنا أحدٌ يحكي عنك أنكَ قُلْتَ هذه المقالةَ، فقال: «يا أبا عمرٍو، احْفَظْ ما أقولُ لَكَ، مَن زَعَمَ من أهلِ نيسابورَ -

---

(١) انظرْ: «هدْي الساري»، ص(٤٩٠).

(٢) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٣١)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٥٦).

(٣) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٣٢)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٥٧)، «هدْي الساري»، ص(٤٩١).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وسَمَّىٰ بلدانًا أخرىٰ - أنّي قلتُ: لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ، فهو كذَّابٌ؛ فإنّي لم أقلْ هذه المقالَةَ، إلا أنّي قلتُ: أفعالُ العبادِ مخلوقةٌ»[١].

بعدها خَرَجَ من نيسابورَ، فعادَ إلىٰ بلدِهِ بُخارىٰ، فاستقبلَهُ الناسُ، ونُثِرتْ عليه الدَّراهِمُ، وحَدَّثَ بها أيّامًا إلىٰ أنْ حَدَثتِ الوحْشَةُ بينَهُ وبين واليها الأميرِ خالدِ بنِ أحمدَ الذُّهْليِّ؛ حيثُ سألَهُ أنْ يَحْضُرَ منزلَهُ، فيَقْرَأَ «الجامِعَ»، و«التاريخَ» علىٰ أولادِهِ، فامتنعَ عن الحضورِ عندَه، فراسَلَهُ بأنْ يعقدَ مجلسًا لأولادِهِ لا يحضُرُهُ غيرُهم، فامتنعَ، وقال: لا أخُصُّ أحدًا، ثم قال للرسولِ: «أنا لا أُذِلُّ العِلْمَ، ولا أحملُهُ إلىٰ أبوابِ النَّاسِ، فإنْ كانت لكَ إلىٰ شيءٍ منه حاجةٌ، فاحْضُرْ في مسجدي، أو في داري، وإنْ لم يُعجِبْكَ هذا، فإنَّك سلطانٌ فامنعني من المجلسِ؛ ليكونَ لي عذرٌ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ؛ لأنّي لا أكتمُ العلمَ...»[٢]، فوجَدَ عليه الوالي، واستعانَ بخصومِهِ حتىٰ تكلَّموا في مذهبِهِ، فنُفِيَ عن البلدِ، فمَضَىٰ إلىٰ «سَمَرْقَنْدَ».

* وفاتُهُ:

بعد نَفْيِهِ استقرَّ بإحدىٰ قُرىٰ سَمَرْقَنْدَ تُدعَىٰ: «خَرْتَنْكَ»[٣]، فكان له بها أقرباءُ أقامَ عندَهم أيّامًا، مَرِضَ مَرَضًا شديدًا، فسُمِعَ ليلةً وقد فَرَغَ من صلاةِ اللَّيلِ يقولُ: «اللهمَّ إنَّهُ قد ضاقَتْ عليَّ الأَرْضُ بما رَحُبَتْ، فاقْبِضْني إليك»، فما تمَّ الشَّهْرَ حتىٰ ماتَ[٤].

---

(١) المراجعُ السابقةُ.

(٢) انظرْ: «تاريخُ بغدادَ»، (٢/ ٣٣)، و«سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ»، (١٢/ ٤٦٤)، و«هدْيِ الساري»، ص(٤٩٣).

(٣) قال ابنُ خَلِّكانَ في «وفيَّات الأعيانِ»، (٤/ ١٩١): «خَرْتَنْكَ، بفَتْحِ الخاءِ المُعْجمةِ، وسكونِ الرَّاءِ، وفَتْحِ التاءِ المثناةِ من فوقِها، وسكونِ النونِ، وبعدها كافٌ: هي قريةٌ من قُرىٰ سَمَرْقَنْدَ».

(٤) انظرْ: تاريخُ بغدادَ (٢/ ٣٤)، وطبقاتُ الشافعيةِ (٢/ ٢٣٢)، وهدْيِ الساري (ص٤٩٤).

ة ضوئيا بـ CamScanner

تُوُفِّيَ البخاريُّ ليلةَ السبتِ، وهي ليلةُ عيدِ الفِطرِ آنذاكَ، عند صلاةِ العشاءِ، ودُفِنَ يومَ الفِطرِ بعد صلاةِ الظُّهرِ بخَرْتَنك، سنةَ سِتٍّ وخمسينَ ومائتين، عاشَ اثنتينِ وستينَ سنةً إلا ثلاثةَ عَشَرَ يومًا(١).

٩ - شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ:

«مَاذَا يَقُولُ الْوَاصِفُونَ لَهُ ... وَصِفَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْحَصْرِ»(٢)

* التعريفُ بِهِ:

هو الإمامُ الرَّبَّانيُّ، الفقيهُ المجتهدُ، المُجَدِّدُ، بَحْرُ العلومِ العقليَّةِ والنقليَّةِ، شيخُ الإسلامِ، تقيُّ الدينِ، أبو العباسِ، أَحْمَدُ بنُ الشيخِ الإمامِ شِهابِ الدِّينِ أبي المحاسِنِ عبدِ الحليمِ بنِ الشيخِ الإمامِ مَجْدِ الدينِ أبي البركاتِ عبدِ السلامِ بنِ أبي محمَّدٍ عبدِ اللهِ بنِ أبي القاسِمِ الخَضِرِ بنِ محمَّدِ بنِ تيميَّةَ بنِ الخَضِرِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ النميريُّ.

* ولادتُهُ:

وُلِد الإمامُ ابنُ تيميةَ في يومِ الاثنينِ ١٠ ربيعِ الأوَّلِ سَنَةَ ٦٦١هـ في حَرَّانَ.

---

(١) مصادر ترجمته: «الجرح والتعديل»، (٧/ ١٩)، و«الثِّقات»؛ لابن حبَّان، (٩/ ١١٣)، و«الإرشاد في معرفة علماء الحديث»، (٣/ ٩٥٨)، و«تاريخ بغداد»، (٢/ ٤)، و«طبقات الحنابلة»؛ لأبي يعلىٰ، (١/ ٢٧١)، و«الأنساب»؛ للسمعاني، (١/ ٢٩٣)، و«تهذيب الأسماء واللغات»، (١/ ٦٧)، و«وفيات الأعيان»، (٤/ ١٨٨)، و«تهذيب الكمال»، (٢٤/ ٤٣٠)، و«تاريخ الإسلام»، (١٩/ ٢٣٨)، و«سير أعلام النبلاء»، (١٢/ ٣٩١)، و«تذكرة الحفاظ»، (٢/ ٥٥٥)، و«طبقات الشافعية الكبرىٰ»، (٢/ ٢١٢)، و«البداية والنهاية»، (١١/ ٣١)، و«هدي الساري»، ص(٤٧٧)، و«تهذيب التهذيب»، ٩/ ٤٧)، و«النجوم الزاهرة»، (٣/ ٢٥)، و«شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب»، (٢/ ١٣٤)، و«الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُّنة المشرَّفة»، ص(١٠).

(٢) الإمام ابن عبد الهادي، العقود الدرية، (ص: ٢٩٤).

ة ضوئيا بـ CamScanner

* أقوالُ العلماءِ فيه:

قال الإمامُ ابنُ دقيقِ العِيدِ: «لَمَّا اجتمعتُ بابن تيميةَ رأيتُ رجُلًا كلُّ العلومِ بيْنَ عينَيْهِ، يأخُذُ ما يريدُ ويدَعُ ما يريدُ، وقلتُ له: ما كنتُ أظنُّ أنَّ اللهَ بقِيَ يَخلُقُ مِثْلَكَ!»[١].

قال الإمامُ الذهبيُّ: «كان آيةً من الذكاء وسُرْعَةِ الإدراكِ، رأْسًا في معرفةِ الكتابِ والسُّنةِ والاختلافِ، بحرًا في النقليَّاتِ، هو في زمانِهِ فريدُ عصْرِهِ عِلْمًا وزُهْدًا، وشجاعَةً وسَخَاءً، وأمرًا بالمعروفِ ونَهْيًا عن المُنكَرِ، وكثرةَ تصانيفَ»[٢]، وقال أيضًا: «وهو أكبرُ مِن أن يُنبَّهَ علىٰ سِيرتِهِ مثلي، فلو حُلِّفتُ بين الرُّكْنِ والمَقامِ، لحَلَفْتُ أني ما رأيتُ بعَيني مثلَهُ، وأنَّهُ ما رَأىٰ مثلَ نفسِهِ في العِلمِ»[٣].

وقال الإمامُ عَلَمُ الدِّينِ البِرْزَاليُّ: «كان إمامًا لا يُلْحَقُ غبارُهُ في كُلِّ شيءٍ، وبَلَغَ رُتبةَ الاجتهادِ، واجتمعَتْ فيه شروطُ المجتهدين»[٤].

وقال الإمامُ ابنُ الزَّمْلكاني:

«مَاذَا يَقُولُ الْوَاصِفُونَ لَهُ ... وَصِفَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْحَصْرِ

هُوَ حُجَّةٌ للهِ قَاهِرَةٌ ... هُوَ بَيْنَنَا أُعْجُوبَةُ الدَّهْرِ

هُوَ آيَةٌ فِي الْخَلْقِ ظَاهِرَةٌ ... أَنْوَارُهَا أَرْبَتْ عَلَى الْفَجْرِ»[٥]

---

(١) الإمامُ مرعي الكرمي، الكواكبُ الدُّرِّيةُ، ص(٥٦).

(٢) نفسُ المرجعِ السابقِ، ص٦٢.

(٣) الإمام مرعي الكرمي، الكواكبُ الدُّرِّيةُ، ص(٥٩).

(٤) البدايةُ والنهايةُ (١٤/ ١٣٧).

(٥) الكواكبُ الدُّرِّيةُ (٥٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

وقال الإمامُ ابنُ سيِّدِ الناسِ: «ألفيتُهُ مِمَّنْ أدْرَكَ من العلومِ حظًّا، وكان يستوعبُ السُّنَنَ والآثارَ حِفظًا، إنْ تكلَّمَ في التفسيرِ فهو حامِلُ رايتِهِ، وإنْ أفتىٰ في الفِقْهِ فهو مُدْرِكُ غايتِهِ، أو ذاكَرَ بالحديثِ فهو صاحِبُ عِلْمِهِ، وذو روايتِهِ، أو حاضَرَ بالنِّحَلِ والمِلَلِ لم يُرَ أوسَعَ من نِحْلَتِهِ، ولا أرْفَعَ من درايتِهِ، بَرَزَ في كلِّ فنٍّ علىٰ أبناءِ جِنْسِهِ، ولم تَرَ عينُ مَنْ رآهُ مثلَهُ، ولا رأتْ عينُه مِثْلَ نَفْسِهِ»[1].

وقال الإمامُ المِزِّيُّ: «ما رأيتُ مثلَهُ، ولا رأىٰ مثلَ نفسِهِ، وما رأيتُ أحدًا أعلمَ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ ولا أتْبَعَ لهما مِنه»[2].

وقال الإمامُ ابنُ الحريريِّ[3]: «إذْ لم يَكُنْ ابنُ تيميةَ شيخَ الإسلامِ، فمَنْ هُوَ؟!»[4].

* محنته:

افْتُحِنَ مِحَنًا عديدةً، وما تكادُ تنتهي عاصِفةُ إحدىٰ المِحَنِ حتىٰ تَبْدَأَ محنةٌ جديدةٌ حتىٰ لَقِيَ رَبَّهُ وهو في سِجْنِ القَلْعَةِ فحياةُ الإمامِ منظومةٌ مِن المِحَنِ تتابَعَتْ عليه، حيث إنَّه سُجِنَ سَبْعَ مرَّاتٍ[5]: أربعَ مرَّاتٍ بمِصْرَ، بالقاهرةِ والإسكندريَّةِ، وثلاثَ مرَّاتٍ بدِمَشْقَ، وكانت بدايةُ السَّجْنِ له حينما بلَغَ الثانيةَ والثلاثين من عُمُرِه، وبعد عودتِهِ من

---

(١) الإمامُ ابن العمادِ الحنبلي، شذراتُ الذهبِ، (٦/ ٨٢).

(٢) نفسُ المرجعِ السابقِ، (ص: ٨٤).

(٣) الإمامُ الشيخُ قاضي القضاةِ أبو عَبْدِ اللهِ محمَّد بن عثمانَ بن أبي الحسنِ الأنصاري الحنفي، تولَّىٰ قضاءَ مصرَ والشام، توفي سنة ٧٢٨هـ.

(٤) الإمامُ مرعي الكرمي، الكواكبُ الدُّرِّيَّةُ، (ص: ٥٦).

(٥) د. بكر بن عبد الله أبو زيد، المداخل إلىٰ آثارِ شيخِ الإسلامِ ابن تيمية، (ص: ٣١ - ٣٧) بتصرُّفٍ واختصارٍ.

CamScanner بـ ضوئيا ة

الحَجِّ، حيثُ بَدَأ تعرُّضُهُ لأخْبِيَةِ السُّجُونِ، وبلايا الاعْتقالِ والتَّرْسِيمِ عليه؛ «أي: الإقامةُ الجبريَّةُ» خلالَ أربعةٍ وثلاثين عامًا، ابتداءً من عام ٦٩٣هـ إلىٰ يومِ وفاتِهِ في سجنِ القلعةِ بدمشقَ، يومَ الاثنين ٢٠ ذي القَعدةِ سنة ٧٢٨هـ ولِسَجَناتِهِ أسبابٌ متعدِّدةٌ:

أما السَّجْنَةُ الأولىٰ، فكانتْ بدمشقَ عام ٦٩٣هـ لِمُدَّةٍ قليلةٍ.

وأمَّا السَّجْنَةُ الثانيةُ، فكانتْ بمِصْرَ بسببِ مسائلَ في الصِّفاتِ؛ كمسألةِ العَرْشِ والنُّزولِ، وكانتْ لمُدَّةِ سَنَةٍ وستَّةِ شهورٍ من رمضان ٧٠٥هـ حتىٰ ربيع الأول ٧٠٧هـ.

وأمَّا السَّجْنَةُ الثالثةُ، فكانَتْ بمِصْرَ بسببِ مسألةِ مَنْعِهِ الاستغاثةَ والتَّوسُّلَ بالمَخْلوقين، وكلامِهِ في ابنِ عَرَبيٍّ الصوفيِّ، وكانت هذهِ المُدَّةُ يسيرةً، ابتداءً من أولِ شوالَ ٧٠٧هـ - ١٨ شوالَ ٧٠٧هـ.

وأمَّا السَّجْنَةُ الرابعةُ، وكانتْ بمِصْرَ، وهي امتدادٌ للثالثةِ لِمُدَّةٍ تزيدُ علىٰ شهرَينِ من آخرِ شوالَ ٧٠٧هـ - أوَّلِ سنةِ ٧٠٨هـ.

وأمَّا السَّجْنَةُ الخامسةُ، فكانت بمِصْرَ، وهي امتدادٌ للرَّابعةِ، حيثُ وقَعَ الترسيمُ عليه بالإسكندريَّةِ لِمُدَّةِ سبعةِ شهورٍ وأيامٍ، من غُرَّةِ ربيعٍ الأوَّلِ ٧٠٩ - شوالَ ٧٠٩هـ وكانَ ذلكَ بإيعازٍ من بَعْضِ المغرِضِين.

وأما السَّجْنَةُ السادسَةُ، فكانتْ بدمَشْقَ بسببِ مسألةِ الحَلِفِ بالطلاقِ، وأنَّهُ من الأيمانِ المُكَفِّرةِ، وكانتْ لمدةِ خمسةِ شهورٍ وثمانيةٍ وعشرين يومًا من ١٢ رَجَبَ ٧٢٠هـ - إلىٰ ١٠ محرم ٧٢١هـ.

وأمَّا السَّجْنَةُ السابعةُ والأخيرةُ، فكانت بدِمَشْقَ بسببِ مسألةِ الزِّيارةِ السُّنِّيَّةِ والبِدْعِيَّةِ للمقابرِ، ودامَتْ لعامين وثلاثةِ أشهرٍ وأربعةَ عَشَرَ يومًا، ابتداءً من يومِ

الإثنين ٦ شعبان ٧٢٦هـ - إلىٰ ليلةِ وفاتِهِ ليلةَ الإثنين ٢٠ ذي القعدةِ ٧٢٨هـ[1].

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ:

وبَقِيَ مُدَّةً في القلعةِ يكتبُ العِلْمَ ويُصَنِّفُهُ، ويرسِلُ إلىٰ أصحابِهِ الرسائِلَ، ويَذْكُرُ ما فَتَحَ اللهُ به عليه في هذه المَرَّةِ من العلومِ العظيمةِ، والأحوالِ الجَسيمةِ.

وقال: قد فَتَحَ اللهُ عليَّ في هذا الحِصْنِ في هذه المَرَّةِ من معاني القرآنِ، ومن أُصولِ العلمِ بأشياءَ، كان كثيرٌ من العلماءِ يَتَمَنَّوْنَها، وَنَدِمْتُ علىٰ تضييعِ أكثرِ أوقاتي في غيرِ معاني القُرآنِ، ثم إنَّهُ مُنِعَ من الكتابةِ، ولم يُتْرَكْ عندَهُ دواةٌ ولا قَلَمٌ ولا وَرَقٌ، فأقْبَلَ علىٰ التلاوةِ والتَّهَجُّدِ والمُناجاةِ والذِّكْرِ.

قال شيخُنا أبو عبدِ اللهِ ابنُ القَيِّمِ: سمِعْتُ شيخَنا شَيْخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ، ونَوَّرَ ضَرِيحَهُ يقولُ: إن في الدنيا جَنَّةً مَنْ لم يدخُلْها لم يَدْخُلْ جَنَّةَ الآخرةِ قال: وقال لي مَرَّةً: ما يَصْنَعُ أعدائي بي؟ أنا جَنَّتي وبُستاني في صَدري، أينَ رُحْتُ فهي معي، لا تفارِقُني، أنا حَبْسي خَلْوةٌ وقَتْلي شهادةٌ، وإخراجي مِنْ بلدي سِياحةٌ.

وكان في حَبْسِهِ في القلعةِ يقولُ: لو بَذَلْتُ مِلْءَ هذهِ القلعةِ ذَهَبًا ما عَدَلَ عندي شُكْرَ هذه النِّعْمةِ - أو قال: ما جَزَيْتُهُم علىٰ ما تسبَّبوا لي فيهِ من الخَيْرِ - ونحوِ هذا.

وكان يقولُ في سُجودِهِ، وهو محبوسٌ: اللهمَّ أعِنِّي علىٰ ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادَتِكَ، ما شاءَ اللهُ.

وقال مَرَّةً: المحبوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عن رَبِّهِ، والمأسُورُ مَنْ أسَرَهُ هواهُ.

---

(١) نفسُ المرجعِ السابقِ، (ص: ٣٢ - ٣٧) بتصرُّفٍ.

ولمَّا دَخَلَ إلىٰ القلعةِ، وسارَ داخِلَ سورِها نَظَرَ إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣].

قال شيخُنا: وعَلِمَ اللهُ ما رأيتُ أحدًا أطْيَبَ عَيْشًا منه قَطُّ، مع ما كان فيه من الحَبْسِ والتَّهْديدِ والإرجافِ ومع ذلك أطْيَبُ الناسِ عَيْشًا، وأشرَحُهم صَدْرًا، وأقواهم قلبًا، تَلُوحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ علىٰ وجْهِهِ. وكُنَّا إذا اشْتَدَّ بنا الخَوْفُ وساءَتْ بِنا الظُّنونُ، وضاقَتْ بنا الأرْضُ: أتيناهُ، فما هو إلَّا أنْ نراهُ، ونَسْمَعَ كلامَهُ، فَيَذْهَبَ عَنَّا ذلك كُلُّهُ، ويَنْقَلِبَ انشراحًا وقوةً ويقينًا وطُمَأنِيةً. فسبحانَ مَنْ أشْهَدَ عبادَهُ جَنَّتَهُ قبل لقائِهِ وفَتَحَ لهم أبوابَها في دارِ العملِ، فأتاهم من رَوْحِها ونسيمِها وطِيبِها ما استفرغَ قواهم لطلبِها، والمسابَقَةِ إليها[1].

عَشْنا في عِرْضِهِ قومٌ سِلاطُ ... لهم من نَثْرِ جوهَرِهِ التقاطُ
تَقِيُّ الدينِ أحْمَدُ خَيْرُ حَبْرٍ ... خُروقُ المُعْضِلاتِ به تُخاطُ
هُمُ حَسِدُوهُ لمَّا لَمْ يَنالوا ... مناقِبَهُ فقد مَكَروا وشاطوا
وكانوا عن طرائِقِهِ كُسالى ... ولكِنْ في أذاهُ لهم نَشاطُ[2]

* وفاتُهُ:

وفاتُهُ[3]: تُوفِّي الإمامُ ابنُ تَيْمِيَةَ في ليلَةِ الإثنين، العشرين من ذي القَعْدَةِ سنةَ ٧٢٨هـ، بقلعةِ دمشقَ بالقاعةِ التي كانَ محبوسًا، وكانَ إلىٰ حِينِ وفاتِهِ مُشْتَغِلًا باللهِ عن

---

(١) ذيلُ طبقاتِ الحنابلةِ (٥/ ٥١٩).

(٢) جلاءُ العينينِ للبغدادي (٢٦).

(٣) البدايةُ والنهايةُ، (١٤/ ١٣٥ - ١٣٦).

ة ضوئيا بـ CamScanner

جميع ما سواه، وإنَّ مِن حُسْنِ الختام لهذا الإمامِ أنْ يَمُوتَ بعد انتهائِهِ من قراءةِ قولِهِ - تعالىٰ -: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥][1].

١٠ - الإمامُ ابنُ القَيِّم:

حَمِدْتُ الذِي يُولي الجَمِيلَ وَيُنْعِمُ ... لَهُ الفَضْلُ يُؤتي مَنْ يَشَاءُ وَيُكْرِمُ[2]

* التعريفُ بِهِ:

هو الإمامُ الفَذُّ، والعَلَمُ المُتَبَحِّرُ، والمُفَسِّرُ المُحَدِّثُ، طَبِيبُ القلوبِ وعِلَلِها، وخبيرُ النفوسِ وآفاتِها، صاحِبُ التصانيفِ الرَّائِعَةِ، والمصنفاتِ النافِعَةِ، الإمامُ أبو عبدِ اللهِ شَمْسُ الدِّينِ محمدُ بنُ أبي بكرِ أيوبَ بنِ سَعْدِ بنِ حريزِ بنِ مَكِّيٍّ الزرعيُّ الدِّمَشْقِيُّ الحَنْبَلِيُّ، المشهورُ بابنِ قَيِّمِ الجوزيَّةِ، أو ابنِ القَيِّمِ، نسبةً إلىٰ أبيهِ الذي كان قَيِّمًا - ناظرًا - علىٰ المدرسةِ الجوزيَّةِ (إحدىٰ مدارِسِ الفِقْهِ الحنبليِّ بِدِمَشْقَ).

وُلِدَ سَنَةَ ٦٩١هـ بدمَشْقَ - علىٰ الرَّاجِحِ من كلامِ المُؤَرِّخِين - في أُسرةٍ علميَّةٍ خالصَةٍ؛ إذْ كانَ أبوهُ الشيخُ أبو بكرٍ قَيِّمًا علىٰ المدرسةِ الجَوزيَّةِ، فانتَظَمَ ابنُ القَيِّمِ في الدَّرْسِ، وطَلَبَ العلمَ وهو في السابعَةِ، فدَرَسَ علىٰ يَدَيْ مُدَرِّسِي الجَوزِيَّةِ وغيرِهم، وظهرَتْ منهُ مثابرةٌ عظيمةٌ في طَلَبِ العلمِ، ورغبةٌ صادقةٌ في النبوغِ والألمَعِيَّةِ، حتىٰ إنَّه قد أتقنَ علومًا عِدَّةً وهو دُونَ العِشرينَ من العُمُرِ، ولم يَكْتَفِ بطَلَبِ العلمِ من مشايخِ الحَنَابِلةِ الذين يَنْتَمي إلىٰ مذهَبِهم، ولَكِنْ طَلَبَهُ من سائِرِ الشُّيوخِ، وأربابِ

---

(١) المرجعُ السابقُ (١٤/ ١٣٨).

(٢) قالها ابنُ القَيِّمِ انظرْ (مجموعةُ القصائدِ الزُّهْدِيَّةِ ١/ ٢٩٤٠).

المذاهبِ؛ فلَقَدْ دَرَسَ على يَدِ العلامةِ ابنِ الزَّمَلْكانيِّ الشافعيِّ، والحافِظِ المِزِّيِّ الشافعيِّ، ومجدِ الدينِ التُّونُسِيِّ المالكيِّ، والصَّفِيِّ الهنديِّ الحَنَفيِّ، وهكذا طافَ على شيوخِ المذاهِبِ، وجَنَى من بساتينِ علومِهِم، حتى صارَ من العلماءِ المُتَبَحِّرينَ الموسوعِيِّينَ في تلكَ الفترةِ الزاخرةِ بالعلماءِ والأعلامِ.

كان ابنُ القَيِّمِ كعادةِ العُلماءِ الرَّبانيين في الأُمَّةِ يَجْمَعُ بينَ العلمِ والعَمَلِ، فهو ليس كمَنْ بُلِيَتْ بهم الأُمَّةُ - أُمَّةُ الإسلامِ - مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلى العلمِ زُورًا، فيقولُ ولا يَعْمَلُ، وينْصَحُ ولا يَرْتَدِعُ، ويَعِظُ ولا يَتَّعِظُ، فلقد كان ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ ذا عِبادةٍ وزَهادةٍ، وتَهَجُّدٍ واجتهادٍ، سائرًا في مدارجِ الرَّبانيِّينَ، دائِمَ الذِّكْرِ، طويلَ الفِكْرِ، يُطِيلُ الصلاةَ بصورةٍ لم يَقْوَ على مثلِها أَشَدُّ أهلِ زمانِهِ عبادةً.

وبجانبِ عبادتِهِ واجتهادِهِ - الذي لم يَلْحَقْ شَأْوَهُ فيها أَحَدٌ - كان ابنُ القَيِّمِ سَمْحَ الأخلاقِ، كبيرَ الاحتمالِ، سريعَ العَفْوِ، كثيرَ التَّوَدُّدِ، وأُوذِيَ كثيرًا، فلم تَسْمَعْ مِنْهُ كلمةٌ واحدةٌ في حَقِّ مَنْ آذاهُ، عفا عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وجَعَلَ أَجْرَهُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، على الرَّغْمِ من كَثْرَةِ الوِشاياتِ والسِّعاياتِ في عصرِهِ، إلا أَنَّهُ لم يَتَلَوَّثْ بشيءٍ منها قَطُّ؛ لذلكَ طَوَى الزمانُ ذِكْرَ خصومِهِ وأعدائِهِ، على الرَّغْمِ من كَوْنِ بعضِهِم من العلماءِ الكبارِ، فلم يَعُدْ يَعْرِفُهُمْ أَحَدٌ، ورُفِعَ ذِكْرُهُ فصارَ أستاذًا، وقُدْوَةً للسالِكينَ حتى وَقْتِنا الحاضِرِ.

* ثَنَاءُ الناسِ عَلَيْهِ:

ثناءُ الناسِ وأَهْلِ العِلْمِ على ابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ - خاصَّةً من مُعاصِرِيهِ، ومَنْ جاءَ بَعْدَهُ - أَصْدَقُ شَهادةٍ على مكانَةِ هذا الإمامِ الفَذِّ، الذي اجْتَهَدَ خصومُهُ من أربابِ التَّصَوُّفِ، والمُقَلِّدةِ والمُتَعَصِّبَةِ والحَسَدَةِ في طَمْسِ حسناتِهِ ومكانتِهِ وتَشْوِيهِ سِيرَتِهِ،

ولكنْ كما قِيلَ: كفىٰ بالحاسِدِ والحاقِدِ عُقُوبَةً من نفسِهِ، وثناءُ الناسِ وأهْلُ العلمِ علىٰ ابنِ القَيِّمِ من جُمْلَةِ عُقُوبَةِ اللهِ ﷻ لهؤلاءِ الحَسَدَةِ والمُتَعَصِّبَةِ، وهذا طرفٌ من ثَناءِ الناسِ علىٰ هذا الإمامِ الفَذِّ:

قال عنهُ ابنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ - وهو من أَخَصِّ تلاميذِهِ -:

تَفَقَّهَ في المَذْهَبِ، وبَرَع وأَفْتَىٰ، ولازَمَ الشَّيْخَ تَقِيَّ الدينِ بنِ تَيْمِيَةَ، وتَفَنَّنَ في علومِ الإسلامِ، وكان عارِفًا في التفسيرِ، لا يُجارَىٰ فيه، وبأُصولِ الدِّينِ، وإليهِ فيهِ المُنْتَهَىٰ، والحديثِ، ومعانيهِ، وفقهِهِ، ودقائِقِ الاسْتِنْباطِ منه، لا يُلْحَقُ في ذلك، وبالفِقْهِ وأصولِهِ، وبالعربيَّةِ، وله فيها اليَدُ الطُّولَىٰ، وعلمِ الكلامِ والنَّحْوِ، وغيرِ ذلكَ، وكان عالمًا بعِلْمِ السُّلوكِ، وكلامِ أهلِ التَّصَوُّفِ وإشاراتِهم ودقائِقِهم، له في كُلِّ فَنٍّ من هذِهِ الفُنونِ اليَدُ الطُّولَىٰ.

قال ابنُ ناصِرٍ الدِّمَشْقِيُّ: وكان ذا فنونٍ من العلومِ، وخاصَّةً التَّفْسِيرُ والأصولُ من المنْطُوقِ والمَفْهومِ.

وقال عنه ابنُ كثيرٍ: سَمِعَ الحديثَ، واشْتَغَلَ بالعِلْمِ، وبَرَعَ في علومٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لا سِيَّما علمِ التفسيرِ والحديثِ والأُصُلَيْنِ، ولمَّا عادَ شَيْخُ الإسلامِ من الديارِ المِصْرِيَّةِ سنةَ ٧١٢هـ لازَمَهُ حتىٰ ماتَ الشَّيْخُ، فأَخَذَ عنهُ عِلْمًا جَمًّا جَمَعَ ما سَلَفَ له من الاشْتِغالِ، فصارَ فريدًا في بابِهِ في فنونٍ كثيرةٍ، مع كثرةِ الطَّلَبِ ليلًا ونهارًا، وقال: لا أعْرِفُ في هذا العالَمِ في زمانِنا أكْثَرَ عِبادةً مِنْهُ.

قال عنه القاضي الزرعيُّ: ما تَحْتَ أديمِ السَّماءِ أَوْسَعُ عِلْمًا منه.

قال عنه الشوكانيُّ: بَرَعَ في شَتَّىٰ العلومِ، وفاقَ الأَقْرانَ، واشْتُهِرَ في الآفاقِ، وتَبَحَّرَ في معرفةِ مذاهِبِ السَّلَفِ.

قال الحافظُ ابنُ ناصرِ الدينِ الشافعيُّ: الشيخُ الإمامُ العلامةُ شَمْسُ الدِّينِ، أَحَدُ المُحَقِّقين، عَلَمُ المُصَنِّفين، نادِرَةُ المُفَسِّرينَ، له التَّصانيفُ الأنيقةُ، والتآليفُ التي فيها عُلومُ الشريعةِ والحَقِيقَةِ.

قال عنه ابنُ رَجَبٍ في موضِعٍ آخَرَ: وكانَ رَحِمَهُ اللهُ ذا عبادةٍ وتَهَجُّدٍ، وطولِ صلاةٍ إلى الغايةِ القُصْوَى، وتَأَلُّهٍ ولَهَجٍ بالذِّكْرِ، وشَغَفٍ بالمَحَبَّةِ والإنابةِ والاستغفارِ، والافتقارِ إلى اللهِ، والانكسارِ له، ولم أُشاهِدْ مِثْلَهُ في ذلك، ولا رأيتُ أوسَعَ منه عِلْمًا، ولا أعْرَفَ بمعاني القرآنِ والسُّنَّةِ وحقائقِ الإيمانِ مِنْهُ، وليسَ هو المَعْصُومَ، ولكنْ لم أَرَ في مَعْنَاهُ مِثْلَهُ.

قال عنهُ الحافِظُ السُّيُوطِيُّ: وصارَ من الأئِمَّةِ الكبارِ في التفسيرِ والحديثِ والفُرُوعِ والأُصولِ والعربيَّةِ.

وقال عنه القاضِي عَبْدُ الرحمنِ التَّنُوخِيُّ الحَنَفِيُّ في مَعْرِضِ سياقِهِ لترجَمَةِ شَيْخِ الإسلامِ ابنِ تيميَةَ: وتلميذُهُ ابنُ قَيِّمِ الجوزيَّةِ الذي سارَتْ تصانيفُهُ في الآفاقِ، ولو لَمْ يَكُنْ لَهُ - أي ابنُ تيميةَ - من آثارٍ إلَّا ما اتَّصَفَ بِهِ تلميذُهُ ابنُ القَيِّمِ من العِلْمِ لَكَفَى.

* محنته:

مِنْ لُطْفِ اللهِ ﷻ وتَقْدِيرِهِ لابنِ القَيِّمِ أَنَّهُ الْتَقَى بشَيْخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ؛ فلقد كانَ مع ابنِ القَيِّمِ في بداياتِهِ صُوفيًّا، مَشغولًا بِمَا هُمْ عليه من عوايدَ وطُرُقٍ، حتى الْتَقَى مع ابنِ تيميَةَ سَنَةَ ٧١٢هـ عند عودتِهِ من مِصْرَ مُظَفَّرًا مرفوعَ الرَّأسِ؛ بعد أنْ نَصَرَهُ اللهُ ﷻ على خُصُومِهِ الصُّوفيَّةِ هناك بَعْدَ مِحَنٍ طويلةٍ، وفُصُولٍ عريضَةٍ، وكان لقاؤُهُ مع ابنِ تيميَةَ نُقْطَةً فاصِلةً في حياتِهِ؛ إذِ انْتَقَلَ من التَّصَوُّفِ إلى الحَقِّ والسُّنَّةِ، وطريقةِ السَّلَفِ الصالِحِ في العقائِدِ والأُصولِ، وقد أَخَذَ ابنُ تيميةَ بمجامِعِ قَلْبِ ابنِ القَيِّمِ،

وأصبحَ مُرْشِدَهُ العِلْمِيَّ والدَّعَوِيَّ، وأصبحَ ابنُ القَيِّمِ من أخصِّ وأنجبِ تلاميذِ ابنِ تيميةَ، وأصبحَ كلاهُما يُعَبِّرُ عن الآخرِ، وكذلك أصبحَ ابنُ القيِّمِ امتدادًا لابْنِ تيميةَ، وقد لَزِمَ أقوالَهُ وآراءَهُ وأفكارَهُ، ولم يَخْرُجْ عنها، وبالتالي تَعَرَّضَ ابنُ القَيِّمِ لِنَفْسِ المِحَنِ التي تَعَرَّضَ لها ابنُ تيميةَ، وكان شَرِيكَهُ وقَرِينَهُ فيها.

* مِحْنَتُهُ مع شَيْخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَةَ:

قُلْنا من قَبْلُ إنَّ حياةَ ابنِ تيميةَ كانت مُسَلْسَلًا مُتَواصِلًا من المِحَنِ والابتلاءاتِ، وكانتْ بِدايةُ العَلاقَةِ بينَ ابنِ القَيِّمِ وابنِ تيميةَ سَنَةَ ٧١٢هـ بعدَ عَوْدَتِهِ من مِصْرَ مُنْتَصِرًا على خُصُومِهِ من الصُّوفيَّةِ، وقد شَهِدَتْ هذهِ الفَتْرَةُ من سَنَةِ ٧١٢هـ إلى سنة ٧٢٠هـ هُدْنَةً من المِحَنِ في حياةِ ابنِ تيميةَ مَكَّنَتْهُ من نَشْرِ أفكارِهِ وفَتاواهُ وعِلْمِهِ، وتَهْيِئَتِهِ لمجموعةٍ من التلاميذِ الَّذِين سَيَحْمِلونَ المَنْهَجَ السَّلَفِيَّ، ويَنْشُرُونَهُ بين الناسِ، ومن هؤلاءِ - بَلْ وعَلَى رأسِهِم - الإمامُ ابنُ القَيِّمِ.

في سَنَةِ ٧٢٥هـ خَرَجَ ابْنُ القَيِّمِ حاجًّا، وأثناءَ عَوْدَتِهِ عَقَدَ دَرْسًا لِلْوَعْظِ والتَّفْسِيرِ بالمَسْجِدِ الأقْصَى، تَكَلَّمَ فِيه عن مسألةِ الزيارَةِ، وشَدِّ الرِّحالِ لزيارةِ قَبْرِ الخليلِ بفَلَسْطِينَ وأنْكَرَها؛ فهاجَ عليه الناسُ وثاروا، ورفَعُوهُ إلى قاضِي القُضَاةِ؛ فحَكَمَ بِرِدَّتِهِ وقَتْلِهِ.

وانظرْ كَيْفَ وَصَلَ الحالُ بالتَّعَصُّبِ والجَهْلِ، يُهْدَرُ دَمُ امْرِئٍ مسلمٍ، بل عالمٍ ربانيٍّ على فتوىً صحيحةٍ، واستطالَ الأمْرُ، وعَظُمَتِ المِحْنَةُ، وانتهزَ خُصومُ ابنِ تيميةَ من الصُّوفيَّةِ والأشاعِرَةِ، وغيرِهم الفُرصَةَ، وألَّبُوا الفُقَهاءَ والعلماءَ والسُّلْطَةَ على ابنِ تيميةَ، وكُلَّ مَنْ ينتمِي إلى مَدْرَسَتِهِ، فَقَبَضُوا على ابنِ تَيْمِيَةَ، وابنِ القَيِّمِ، وابنِ كَثِيرٍ، والكَتبيِّ، والبرزاليِّ، وغيرِهم، وآذَوْهُم بشِدَّةٍ، وشَهَّرُوهم في دِمَشْقَ، وكان لابنِ القَيِّمِ النصيبُ

الأوقر؛ إذ ضُرِبَ بينَ يَدَيِ القاضي والأميرِ، وأُهِينَ بِشِدَّةٍ، ثم حُمِلَ على حمارٍ مَقلوبًا، وطِيفَ به في أنحاءِ دِمَشْقَ كما يُفعَلُ مع السُّرَّاقِ والمُفسِدِين، ثم ألقَوا بِهِ في السِّجْنِ مع شيخِهِ ابنِ تَيمِيَةَ، ولكنْ بصُورةٍ انفِرادِيَّةٍ، وظَلَّ رهينَ حَبْسِهِ حتى ماتَ شَيْخُهُ ابنُ تيمية سنةَ ٧٢٨هـ وخِلالَ تِلْكَ الفترةِ الطَّوِيلةِ انشَغَلَ ابنُ القيمِ بالذِّكْرِ والمُناجاةِ والدُّعاءِ، وقراءةِ القُرآنِ؛ فَفَتَحَ اللهُ ﷻ لَهُ أبوابًا كثيرةً من العِلمِ والتَّدَبُّرِ والفَهْمِ، وقد بانَ أثرُ ذلك في كتاباتِهِ بَعْدَها؛ فجاءتْ من قَلَمٍ مُجَرَّبٍ، وقَلْبٍ مُتَبَتِّلٍ، ومُعايَشَةٍ مِحْنَةٍ، وبعد وفاةِ شَيْخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ أُفرِجوا عن ابنِ القَيِّمِ.

* مِحْنَتُهُ مع قاضِي القُضاةِ السُّبكيِّ:

بعد خروجِ الإمامِ ابنِ القيم من سِجْنِهِ ومِحْنَتِهِ أخَذَ على عاتِقِهِ نَشْرَ أفكارِ شَيْخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ، والمُحافَظَةَ على منهجِهِ ومدرستِهِ التي أرسَى دعائِمَها بكثيرٍ من الجُهْدِ والنَّصَبِ والمِحَنِ، حتى ماتَ من أجلِها مَسْجُونًا، وقد أصبحَ ابنُ القَيِّمِ هو رائِدَ المدرسَةِ التَّجْدِيدِيَّةِ بعد رَحِيلِ ابنِ تيميةَ، لذلك كان من الطبيعيِّ أنْ يَتَعَرَّضَ ابنُ القيمِ لنَفْسِ الحَمَلاتِ التشويهيَّةِ والتعريضيَّةِ التي سَبَقَ وأنْ تَعَرَّضَ لها شَيْخُهُ.

اجتهدَ الإمامُ ابنُ القيمِ كثيرًا لِرَدِّ أهْلِ عَصْرِهِ لِهَدْيِ القُرونِ الأولَى، والتَّصَدِّي لِلْبِدَعِ التي تَسَرَّبَتْ لِحَياةِ المسلمين، والتي ليستْ من الدينِ في شَيْءٍ، وكانَ الأشاعرةُ وقْتَها من أشَدِّ خُصومِ ابنِ تيميةَ ومَنْهَجِهِ السَّلَفِيِّ، وكُلُّ مَنْ ينتمي إلى السَّلَفِيَّةِ، وكانت الدولةُ للأشاعِرَةِ؛ فاستَخْدموا نفوذَهُمْ، ومساندَةَ السُّلْطَةِ لهم في قَمْعِ أتْباعِ المَنْهَجِ السَّلَفِيِّ، وكان قاضي القضاةِ في بلادِ الشامِ تَقِيُّ الدينِ السُّبكيُّ: وهو واحدٌ من أسرةٍ عريقةٍ في العلمِ وفي القضاءِ، وأيضًا من أشهرِ الأُسَرِ تَمَسُّكًا بالمَذْهَبِ

الأشعري، وكان للسبكي صولات وجولات مع أتباع المنهج السلفي، وبالأخص تقي الدين السبكي كان أشدهم قسوة ونقدًا وتحاملًا على ابن تيمية وتلاميذه.

تولى تقي الدين السبكي منصب قاضي القضاة بالشام سنة ٧٣٩هـ وابن القيم وقتها يعتبر علم المدرسة السلفية، فتحامل عليه بشدة، وصار يتتبعه في فتاواه وآرائه، ويتقيده، ويؤلب عليه السلطة، حتى إن السبكي قد عقد له مجلسًا بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل، وأجبره على التراجع عنها، ثم سعى في سجنه بسبب تصديه لمسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد، وهي الفتوى التي سبق وأن أفتاها ابن تيمية، وأوذي بسببها، وبالفعل تسبب السبكي في سجن ابن القيم فترة من الوقت، ومن شدة تضييق تقي الدين السبكي على الإمام ابن القيم اضطره للرحيل إلى مكة، حيث جاور هناك فترة طويلة من الزمن، استغلها في العبادة والإقبال على الله ﷻ، والتأليف والتصنيف، فألف في تلك الفترة أروع كتبه مثل: بدائع الفوائد، ومدارج السالكين، وزاد المعاد، ومفتاح دار السعادة.

ورغم كثرة المحن والابتلاءات التي تعرض لها الإمام ابن القيم، والإهانة والضرب والحبس الذي تعرض له: صغيرًا وكبيرًا، تلميذًا وإمامًا، إلا أنه لم يغير موقفه وآراءه، ومنهجه ودعوته، وظل على طريقه ودربه سائرًا، ينفع الناس، ويحارب البدع والخرافات والأفكار المخالفة للإسلام، وقد جعل هدفه في الحياة العودة بالناس لمنابع الدين الصافية النقية؛ لذلك لما رحل عن دنيانا في رجب ٧٥١هـ خرجت دمشق عن بكرة أبيها لتودع هذا الإمام الفذ العلامة، وقد تأسفت الجميع لرحيله، حتى خصومه؛ لما كان عليه من العلم والفضل، والأخلاق الحسنة، ولم

تَنَلِ المِحْنَةُ منه، ولم تُؤَثِّرْ على مكانتِهِ ودَرَجَتِهِ، وظَلَّ لوقتِنا الحاضِرِ يتبوَّأُ منزلةً ساحقةً في تاريخِ علماءِ الأُمَّةِ وأعلامِها[1].

وأَختِمُ مِحْنَةَ ابنِ القَيِّمِ بقَوْلِهِ رَحِمَهُ اللهُ:

إذا طَلَعَتْ شمسُ النَّهارِ فإنَّها ... أمارةُ تَسليمي عليكُم فَسَلِّمُوا

سلامٌ من الرَّحمنِ في كلِّ ساعةٍ ... ورَوْحٌ وريحانٌ، وفَضلٌ وأَنعُمُ[2]

---

(١) انظر: «الدرر الكامنة» (٤/ ٢١)، و«البدر الطالع» (٢/ ١٧٣)، و«المختار المصون» (١٨٤)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٢٥٢)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٨)، و«شذرات الذهب» (٣/ ١٦٨)، ومحنة ابن القيم لشريف بن عبد العزيز الزهيري بحث منشور في شبكة الألوكة.

(٢) ميمية ابن القيم (٥).

الخاتمة

فَحَدُّهُ الحُسْنُ غدا مُودَعًا ... أما ترى الحالَ عليه خِتامُ[١]

الناسُ يقولون لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ إحسانَهُ: «حُقَّ لِمَنْ كَتَبَ بِيمْنِكَ أنْ يَخْتِمَ بِعَنْبَرٍ»[٢].

عليكَ سلامٌ نَشْرُهُ كُلَّما بَدَا ... به يَتَغالَى الطِّيبُ والمِسْكُ يُخْتَمُ[٣]

وها أنا قَدْ بَذَلْتُ جَهْدًا وأَرَدْتُ خيرًا فإنْ أصَبْتُ فمِنَ اللهِ وَحْدَهُ وإنْ أخطأتُ فمِنْ نَفْسي والشيطانِ وغالبُ الظَّنِّ كما قال الأوَّلُ:

أَظُنُّ نَسيمَ الرَّوْضِ للزَّهْرِ قد روى ... حديثًا، فطابَتْ من شَذاهُ المَسالكُ

وَها قَدْ دَنا فَصْلُ الرَّبيعِ فَكُلُّهُ ... ثُغُورٌ، كما قال النسيمُ ضَواحِكُ[٤]

وخِتامًا:

بَقِيتَ ولا أَبْقَى لَكَ الدَّهْرُ كاشِحًا[٥] ... فإنَّكَ في هذا الزَّمانِ فَرِيدُ

عُلاكَ شُوارٌ والمسالِكُ مِعْصَمٌ[٦] ... وجُودُكَ طَوْقٌ والبريَّةُ جِيدُ[٧]

---

(١) كشفُ الحالِ (٧).

(٢) «الأمثالُ المُولَّدةُ» (٩٠).

(٣) «خزانةُ الأدبِ» (٢/ ٥٠٤).

(٤) «الوعاةُ الشاكي» (٩).

(٥) الكاشِحُ: المُبْغِضُ.

(٦) الكاشِحُ: المُبْغِضُ.

(٧) «خزانةُ الأدبِ» (٢/ ٥٠٣).

ة ضوئيا بـ CamScanner

ة ضوئيا بـ CamScanner

الفهرس

المقدمة ٥
تمهيد ٧
١ - تعريف الابتلاء ٧
٢ - الفرق بين الابتلاء والاختبار ٩
أنواع الابتلاء: ١٠
١ - الابتلاء التكليفي ١٠
٢ - الابتلاء الشخصي ١٠
٣ - الابتلاء الاجتماعي ١٠
٤ - الابتلاء الجماعي ١١
فقه الابتلاء ١٣
١ - أنواع الابتلاء ١٣
٢ - أقسام الناس في البلاء ١٦
٣ - مراتب الناس في البلاء ١٦
٤ - الفرق بين البلاء والعقوبة ١٨
٥ - الابتلاء خاص بالمؤمن ٢١
٦ - المصائب كفارات ومع الصبر كفارات وأجر ٢٣
٧ - المصائب تكفر الصغائر والكبائر ٢٥
٨ - المصائب سببها الذنوب والمعاصي ٢٧
٩ - الأجر على قدر البلاء ٢٨
١٠ - المؤمن لا يستدعي البلاء ٢٩

ة ضوئيا بـ CamScanner

١١ - الحكمةُ من تسليطِ أعداءِ اللهِ علىٰ أوليائِهِ ٣١
١٢ - الحكمةُ من ابتلاءِ الأنبياءِ ٣٢
١٣ - كراهة تَمَنِّي الموتِ بسَبَبِ البلاءِ ٣٣
١٤ - تأويلُ مصائبِ الأطفالِ ٣٤
مظاهِرُ الابتلاءِ ٣٦
١ - الابتلاءُ بالضَّرَّاءِ ٣٦
٢ - الابتلاءُ بالمعاصِي ٣٧
٣ - الابتلاءُ بالسَّرَّاءِ ٣٩
٤ - الابتلاءُ بالطاعاتِ ٤٠
مراتِبُ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ ٤٣
١ - التَّمْحِيصُ ٤٣
٢ - التَّطهيرُ ٤٣
٣ - القُرْبُ والتكريمُ ورَفْعُ الدَّرَجاتِ ٤٣
فضائِلُ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ ٤٥
١ - تحقيقُ الإيمانِ ٤٥
٢ - تقوية الإيمانِ بالقَضَاءِ والقَدَرِ ٤٦
٣ - تمحيصُ ما في القلوبِ ٤٨
٤ - رِفعةُ المنزلةِ في الآخِرَةِ ٤٩
٥ - أنَّ مَنِ ابتلاكَ أرحم بك من نفسك ٥٠
٦ - تَوَقُّعُ المِنَحِ ٥١
٧ - تحقيقُ العبوديَّةِ ٥٢
٨ - ظهورُ فضلِ العبدِ وما جُبِلَ عليهِ من المكارِمِ ٥٣

ة ضوئيا بـ CamScanner

٩ - معرفةُ أنَّ مرارةَ الدنيا حلاوةُ الآخِرَةِ ٥٤
١٠ - يكْشِفُ لَكَ أنَّ الدنيا نَكَدٌ وتَعَبٌ ٥٦
١١ - الابتلاءُ بالفَقْرِ أقلُّ للحِسابِ ٥٧
١٢ - الشَّوْقُ إلىٰ الجَنَّةِ ٥٨
١٣ - أنه سببٌ للنجاةِ من النارِ ٥٩
١٤ - أنه دليلُ حُبِّ اللهِ لعبدِهِ ٥٩
١٥ - أنه تكفيرٌ للذنوبِ وحَطٌّ للخطايا ٦٠
١٦ - يُضاعِفُ الأُجورَ ٦١
١٧ - المبتلىٰ عزيزٌ علىٰ اللهِ ٦١
١٨ - فضلُ الحَمْدِ علىٰ البلاءِ ٦٢
١٩ - في الصَّبْرِ علىٰ ما تكرَهُ خَيرٌ كثيرٌ ٦٣
٢٠ - أنَّ ابتلاءَ المؤمنِ كالدواءِ له ٦٤
٢١ - فضلُ مَنِ ابتلاه اللهُ بعينَيْهِ فَصَبَرَ ٦٥
٢٢ - فضلُ مَنِ احتسبَ حبيبًا أو عزيزًا ٦٧
٢٣ - فضلُ الصَّبْرِ علىٰ موتِ الأولادِ ٦٧
٢٤ - معرفةُ قَدْرِ العافيةِ ٦٩
٢٥ - من يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يُصِبْ مِنْهُ ٧٠
٢٦ - إظهارُ حقائقِ الناسِ ٧٠
٢٧ - استخراجُ عُبُودِيةِ الدُّعاءِ ٧١
٢٨ - استخراجُ عبوديَّةِ الشُّكرِ ٧٢
٢٩ - الرحمةُ بالعُصاةِ ٧٣
٣٠ - أنَّهُ طريقُ الإمامةِ في الدِّينِ ٧٣

ة ضوئيا بـ CamScanner

٣١ – أنه نعمةٌ من الله على عبدِهِ ٧٤
٣٢ – أنه سببٌ لدخول الجنةِ ٧٥
آدابُ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ ٧٧
١ – اليقينُ ٧٧
٢ – الصبرُ ٧٨
٣ – الرضا ٧٩
٤ – الشكرُ ٨٠
٥ – الحَمْدُ ٨١
٦ – محاسبةُ النَّفْسِ ٨٢
٧ – الرجوعُ إلى الله ٨٣
٨ – الاستقامةُ ٨٣
٩ – الاستعانةُ ٨٤
١٠ – التوكُّلُ ٨٥
١١ – الصلاةُ ٨٦
١٢ – الصَّدَقَةُ ٨٧
١٣ – الاستغفارُ ٨٧
١٤ – قراءةُ القرآنِ ٨٨
١٥ – السَّكينةُ ٨٩
١٦ – بذلُ الأسبابِ لدفعِ البلاءِ ٨٩
١٧ – سؤالُ اللهِ العافيةَ ٩٠
١٨ – الاسترجاعُ ودعاءُ المُصيبةِ ٩١
١٩ – اجتنابُ ما يُغْضِبُ الله ٩٢

ة ضوئيا بـ CamScanner

٢٠ - تذكُّر القضاءِ السابقِ ٩٤
٢١ - معرفةُ طبيعةِ الدنيا ٩٤
٢٢ - معرفةُ أنَّ الابتلاءَ سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِهِ ٩٦
٢٣ - النَّظَرُ إلىٰ مَنْ فوقَكَ في البلاءِ ٩٧
٢٤ - الدعاءُ ٩٨
٢٥ - انتظارُ الفَرَجِ ٩٩
٢٦ - تهوينُ المصيبةِ بذِكْرِ أعْظَمِها ١٠٠
٢٧ - نسيانُ المصيبةِ ١٠١
٢٨ - الصَّبْرُ علىٰ المُبْتَلَىٰ ١٠١
فضائِلُ الابتلاءِ بالذُّنوبِ والمعاصي ١٠٣
١ - تحقيقُ صنعَةِ الإنسانيَّةِ في العبدِ ١٠٣
٢ - التواضُعُ والخَشْيَةُ ١٠٥
٣ - النَّدَمُ والبكاءُ ١٠٥
٤ - العَفْوُ عن الناسِ ١٠٦
٥ - تعريفُ العبدِ حقيقةَ نفسِهِ ١٠٧
٦ - خَلْعُ رداءِ الكِبْرِ ١٠٨
٧ - نفيُ العُجْبِ ١٠٩
٨ - زوالُ الحَضَرِ والضِّيقِ ١٠٩
٩ - لَوْمُ النفسِ ١١٠
آدابُ الابتلاءِ بالمعاصي ١١١
١ - الحياءُ من اللهِ ١١١
٢ - الخوفُ من اللهِ ١١٣

ة ضوئيا بـ CamScanner

٣ – الرَّجاءُ ١١٤
٤ – استحضارُ عقوبةِ المعاصي ١١٥
٥ – الابتعادُ عن الرُّفقةِ السَّيِّئةِ ١١٦
٦ – التحوُّلُ عن المكانِ الذي عصىٰ اللهَ فيه ١١٨
٧ – تَرْكُ المعاصي ١٢٠
٨ – الاستغفارُ والتَّوْبَةُ ١٢٠
٩ – جِهادُ النَّفْسِ ١٢٢
١٠ – جِهادُ الشَّيطانِ ١٢٣
١١ – عَدَمُ المُجاهرةِ ١٢٥
١٢ – عَدَمُ الرِّضا بالذنوبِ ١٢٦
فضائِلُ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ ١٢٧
١ – استخراجُ عبوديَّةِ السَّراءِ ١٢٧
٢ – الاستغناءُ عن الناسِ ١٢٩
٣ – الإنفاقُ علىٰ النفسِ ١٣٠
٤ – الإنفاقُ علىٰ العيالِ ١٣١
٥ – مواساةُ الأرحامِ ١٣٢
٦ – مواساةُ الفقراءِ والمساكينِ ١٣٣
٧ – عمارةُ المساجِدِ ١٣٤
٨ – الإنفاقُ علىٰ طلابِ العلمِ ١٣٥
٩ – اليَدُ المنفقةُ هي العليا ١٣٦
١٠ – سِدادُ الدَّيْنِ ١٣٧
آدابُ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ ١٤٠
١ – اليقينُ بأنَّ كُلَّ شيءٍ إلىٰ زوالٍ ١٤٠

ة ضوئيا بـ CamScanner

٢ - شكرُ النعمِ ١٤١
٣ - أداءُ حَقِّ اللهِ في المالِ ١٤٢
٤ - عدمُ الأمنِ من مَكْرِ اللهِ ١٤٢
٥ - الابتعادُ عن الذنوبِ الملكيَّةِ أو الربوبيَّةِ ١٤٤
٦ - الابتعادُ عن الذنوبِ الشيطانيَّةِ ١٤٥
٧ - أن يتذكَّرَ أنَّ التوسعَةَ ابتلاءٌ واختبارٌ ١٤٦
٨ - تقويةُ الصِّلَةِ باللهِ ١٤٧
٩ - النظرُ إلىٰ مَنْ دونَكَ في النِّعْمَةِ ١٥٠
١٠ - إظهارُ النِّعْمةِ ١٥٠
فضائِلُ الابتلاءِ بالطَّاعاتِ ١٥٢
١ - معرفةُ فضلِ اللهِ علىٰ العبدِ ١٥٢
٢ - الحصولُ علىٰ السعادةِ ١٥٣
٣ - النجاةُ من الشدائِدِ ١٥٣
٤ - الفلاحُ في الدنيا والآخرةِ ١٥٤
٥ - ثباتُ الأجْرِ عند العجزِ ١٥٥
٦ - لطْفُ اللهِ بعبدِهِ ١٥٥
٧ - أهلُ الطاعاتِ يوَفيهم اللهُ أجْرَهم غَيْرَ منقوصٍ ١٥٦
٨ - الثباتُ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ١٥٦
٩ - أهلُ الطاعاتِ يظلُّهُم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ القيامةِ ١٥٧
١٠ - يرافِقُ أهْلُ الطاعاتِ النَّبِيِّينَ، والصِّدِّيقين، والشُّهَداءَ، والصالحين ١٥٨
آدابُ المبتلىٰ بالطاعاتِ ١٥٩
١ - أنْ يعلمَ أنَّ الطاعاتِ توفيقٌ من اللهِ ١٥٩

CamScanner ة ضوئيا بـ

٢ - الصِّدْقُ مع اللهِ ١٦٠
٣ - عدمُ المَنِّ بالطاعاتِ ١٦١
٤ - أنْ يتحلَّىٰ بالخوفِ ١٦٢
٥ - أنْ يَحْذَرَ من الوقوعِ في البدعِ ١٦٣
٦ - البُعْدُ عن الغلوِّ والتَّشَدُّدِ ١٦٤
صُوَرٌ من الابتلاءِ ١٦٧
١ - النبيُّ ﷺ ١٦٧
أ - مواقِفُ عاليةٌ من صَبْرِ النبيِّ ﷺ علىٰ الأذَىٰ ١٦٧
ب - النبيُّ ﷺ من أَشَدِّ الناسِ بلاءً ١٦٨
جـ - ما لَقِيَهُ النبيُّ ﷺ من الأذىٰ يومَ أُحُدٍ ١٦٩
د - أَشَدُّ ما مَرَّ علىٰ النبيِّ ﷺ من الأذىٰ ١٧٠
٢ - النبيُّ أيوبُ - عليهِ الصلاةُ والسلامُ - ١٧١
٣ - جُرَيْجٌ العابدُ ١٧٣
٤ - أصحابُ الأُخدودِ ١٧٥
٥ - مالِكُ بنُ أَنَسٍ ١٧٧
٦ - أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ ١٨١
٧ - محمَّدُ بنُ إسماعيلَ البخاريُّ ١٩٤
٨ - أحمدُ بنُ تيميَةَ ٢٠١
٩ - محمدُ بن أبي بكرٍ ابنِ قيِّمِ الجَوزيَّةِ ٢٠٧
الخاتمةُ ٢١٥
الفَهْرَسُ ٢١٧

ة ضوئيا بـ CamScanner

صدر حديثًا

لأبي عبد الله فيصل عبده قائد الحاشدي

- مواعظ النساء.
- الابتلاء السنة الباقية.
- عقيدة المسلم.
- حسن الجوار خلق الأبرار.
- صناعة الرجال.
- مراعاة المشاعر.
- أسرار التوفيق.
- جرح المشاعر.
- جنة الرضا.
- السكينة الخلق المفقود.
- صناعة الحفظ.
- جفاف المشاعر.

- دليلك إلى الفراسة (الطبعة الثانية منقحة ومزيدة).
- المواعظ الذهبية (زاد للخطباء والوعاظ).
- الفريد في خطب التوحيد.
- البصيرة في خطب السيرة.
- ذوقيات، حتى نرتق بأخلاقنا.
- دفء المشاعر في الحياة الزوجية.
- صناعة الكتابة (قواعد وأصول) (يصدر قريبًا).
- أعذب الكلام في صلة الأرحام (يصدر قريبًا).
- سلامة الصدر راحة البال ونعيم الآخرة (يصدر قريبًا).
- الجامع في خطب الكبائر (يصدر قريبًا).
- العسل المصفى في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام (تحت الطبع).

ISBN: 978-977-372-111-4

دار القمة للطباعة والنشر والتوزيع

دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع

داركم المتميزة

١٢-١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية

تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان المتحدة

أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة - مقابل بنك سبأ - شارع رداع

محافظة ذمار - اليمن جول: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

alemanbookstore@gmail.com dar_aleman@hotmail.com

ة ضوئيا بـ CamScanner